

مختصر كتاب الوفاء

إشراف

مصطفى الشيخ عبد الحميد

الجزء الثالث

مستوفيات

مكتبة أم القرى للتحقيق والنشر

بيروت - لبنان

اهداء حسين الخزامي لموقع
الدكتور الشيخ احمد الوائلي قدس سره
www.al-waeli.com

محاضر تاليف الوائلي
رحمته الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاضرات في الفقه

محمد بن عبد الله

إشراف

مفتي الديار المصرية

الجزء الثالث

مكتبة دار الفقه



حقوق المبيع والنشر محفوظة

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اسم الكتاب: محاضرات الوائلي (رحمه الله) / الجزء الثالث

إشراف: مصطفى الشيخ عبد الحميد

الناشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

المطبعة: شريعت

عدد النسخ: (١٠٠٠) نسخة

الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

لبنان / بيروت / الغبيري ص.ب ٢٧٨ / ٢٥

قم/إيران / ٥٩٨ - ٣٧١٨٥ - هاتف: ٧٧٣٥٦٤٦ - ٧٧٤٦٥٤٦

info@Omalqora.net

في رحاب السبط المجتبي ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الناس أقسام ثلاثة

نحتفل هذه الليلة بولادة ثاني نجوم أيمة أهل البيت الإمام الحسن ﷺ سبط
الرسول الأكرم ﷺ. وقد يقول قائل: إن ولادة إنسان ليست بذلك الحدث الذي
يستحق أن تحتفل به الدنيا، فهي تستقبل كل يوم طائفة وتودّع أخرى. وهذا إلى
حدّ ما صحيح، لكنّ هؤلاء الداخلين إلى الحياة والخارجين منها لم يترك أحد
منهم بصماته عليها إلا القليل.

فالداخلون إلى الدنيا يُقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم يدخل إلى الدنيا كما يدخل العشب البري في أيام الربيع، لا يلبث أن
تحرقه الشمس وتقسو عليه الرياح حتى يعود هشيماً وينتهي. فمن الناس من

يدخل ويخرج فلا يشعر بدخوله أو خروجه أحد، يقول أحد الأدباء في العصر العباسي:

خليفة مات لم يحزن له أحد . وآخر قام لم يفرح به أحد^(١)

وقسم منهم يدخل إلى الحياة كالشجرة العالية الوارفة الظل، الممتدة الأغصان، الواسعة الأفياء ولكن لا ثمر فيها، فهو يدخل إلى الدنيا صدياً وسمعة ومنظراً وبهجة لكن حياته ليس فيها عطاء أبداً.

وقسم ثالث يدخل إلى الحياة كالشجرة المثمرة، في كل عام يتجدد عطاؤها وثمرها. فمثل هذا إذا دخل إلى الحياة أغناها، وإن خرج منها تأسفت عليه.

فنحن إنما نحتفل بميلاد إمام من أئمة أهل البيت عليه السلام لأن دخولهم إلى الدنيا أغنى الحياة، وخروجهم منها ترك فراغاً كبيراً؛ فلذا يحتفل الإنسان بحياة فيها خصب يغني الناس. وعندما نحتفل بميلاد الحسن عليه السلام فإنما نحتفل بامتداد طبيعي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، حمل الرسالة وترك آثاره في الحياة. وسوف نعرف ما هي الآثار التي تركها هذا الإمام العظيم، وليس المراد بالآثار: الآثار المادية، فكم تارك آثاراً مادية لكن كان بلاء على الدنيا، فهل نستطيع أن نحتفل بفرعون الذي ترك الأهرامات الضخمة؟ إننا نحتفل بابن سينا والفارابي والكندي وأناس من هذا النمط الذي لم يترك أهرامات ضخمة وإنما بنى آثاراً فكرية ضخمة، وهذا هو العطاء الذي يخلد، يقول أحد الأدباء:

أرى الموت يحييكم وبعض الذي مشوا	على الأرض لو عاينت يمشي بهم قبر
تشدّ بهم اللطين سودّ فعاليهم	وتسمو بكم للسور أمثلة غر
كسرانم أعمال وزاد من التقى	وفيض من الإصلاح هذا هو العمر

رأيت الغنى فكراً يعيش وغيره وإن ملأ الآفاق من ذهب فقر
فما مات عيسى وهو يفتش الثرى ولا عاش قارون وأبوابه تبرز
تهاوى رماداً ألف صرح مُقَرَّد وعاش على البردي في أنق سطر

المبحث الثاني: سبب نزول الآية الكريمة

وبعد هذه المقدمة نعود إلى الآية، فهي نزلت في المباهلة، فالنبي ﷺ يقول:
تعالوا ندع أبناءنا، فمن هم الأبناء الذين أرادهم النبي ﷺ؟ المعروف عند الجميع^(١)
أن النبي ﷺ دعا للمباهلة الإمام علياً وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فالمقصود
بـ«أبناءنا» في الآية الإمام الحسن والحسين ﷺ خاصة.

والهدف من هذا أن الإمام الحسن والحسين ﷺ هما ابنا رسول الله ﷺ،
فإعطاؤهما صفة «سبط» وإن كان من الناحية اللغوية صحيحاً؛ حيث إن ابن البنت
يسمى سبطاً^(٢)، لكن من الناحية العلمية هو ولد. ونحن بغض النظر عن الناحية
العلمية لا ندعوهما ابني رسول الله ﷺ لأن ابن البنت ولد حقيقي - وإن كان حقيقياً
في الواقع؛ بدليل أن الجد لا يستطيع أن يتزوج ابنته، فالنبي ﷺ لا يسعه الزواج من
بنت الحسن أو بنت الحسين ﷺ؛ لأنهما داخلان في صلبه فيحرمون عليه^(٣) -

(١) أنظر: مسند أحمد ١: ١٨٥، الجامع الصحيح ٤: ٢٩٣، ٥: ٣٠٢، وغيرهما كثير.

(٢) لسان العرب ٧: ٣١٠ - سبط، بل نص فيه على أن الأسباط هم خاصة الأولاد والمصاص
فيهم.

(٣) فمثلاً روي عن أبي الجارود أنه قال: قال لي أبو جعفر ﷺ: «يا أبا الجارود، ما يقولون لكم
في الحسن والحسين ﷺ؟». قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ. قال: «فأي شيء
احتججتم عليهم؟». قلت: احتججنا عليهم بقول الله عز وجل في عيسى بن مريم ﷺ:
﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الأنعام: ٨٤ - ٨٥. قال: «فأي شيء قالوا لكم؟». قلت: قالوا: قد
يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب. قال: «فأي شيء احتججتم عليهم؟». قلت:
احتججنا عليهم بقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ آل عمران:

وإنما قلنا بينوتهما لأن النبي ﷺ نصّ على ذلك في أكثر من مورد، كقوله في الحسن عليه السلام: «إن ابني هذا سيد»^(١)، لا لما مرّ من الدليل السابق من كون ابن البنت ولداً حقيقياً.

المبحث الثالث: البنوة دموية وروحية

فالقرآن عبر عن الحسنين عليهما السلام بأبنائهما ابن رسول الله ﷺ، فماذا استهدف من هذه البنوة؟ فلدينا هنا نوعان من البنوة:

٦١. قال: «فأي شيء قالوا؟». قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول: أبناءنا.

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: «يا أبا الجارود، لأعطينكما من كتاب الله عزّ وجلّ أنّهما من صلب رسول الله ﷺ لا يردها إلا كافر». قلت: فأين ذلك جعلت فداك؟ قال: «من حيث قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ النساء: ٢٣، فسلهم يا أبا الجارود: هل كان لرسول الله ﷺ نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فهما ابناه لصلبه». الكافي ٨: ٢٦٣ - ٢٦٤ / ٥٠١.

وسأل المأمون الإمام الرضا عليه السلام: يا أبا الحسن إني فكّرت في شيء فنتج لي الفكر الصواب فيه: فكّرت في أمرنا وأمركم، ونسبنا ونسبكم، فوجدت الفضيلة فيه واحدة، ورأيت اختلاف شيعتنا في ذلك محمولاً على الهوى والعصية. فقال له الرضا عليه السلام: «إن لهذا الكلام جواباً إن شئت ذكرته لك، وإن شئت أمسكت». فقال له المأمون: إني لم أقله إلا لأعلم ما عندك فيه. فقال له عليه السلام: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين لو أن الله تعالى بعث نبيّه محمداً ﷺ فخرج علينا من وراء أكمة من هذه الآكام يخطب إليك ابنتك، كنت مزوجه إياها؟». فقال: يا سبحان الله، وهل أحد يرغب عن رسول الله ﷺ؟ فقال له الرضا عليه السلام: «أفترأه كان يحلّ له أن يخطب إلي؟». فسكت المأمون هنيئة ثم قال: أنتم والله أمسّ برسول الله ﷺ.

بحار الأنوار ١٠: ٣٤٩، ٩: ٩٤، ١٨٧ / ١٩.

ومثلها مناظرة الإمام الكاظم عليه السلام للرشد. انظر الاحتجاج ٢: ٢٣٨ / ٢٧١.

(١) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨:

٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

النوع الأول: بنوة الدم

وهي أن يتكون الولد من صلب أبيه. وهذه البنوة مفتقرة إلى بنوة الروح، فلا بد من انسجام روحي. قال تعالى على لسان نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فأتاه الجواب: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾^(١). فما هو الوجه في نفي البنوة عن ابن نوح ﷺ؟ إن نساء الأنبياء مبرآت ولا يتطرق إليهن الشك في عفتهم؛ لأن السبي لا يمكن أن يُبتلى بهذا، فهو عارٌ منفر عن النبوة؛ ولذلك ألقى الله من افتري على عائلة النبي ﷺ في حادثة الإفك^(٢) في أسفل الدرك من الجحيم.

النوع الثاني: البنوة الروحية

فالله تعالى ينفي البنوة عن ابن نوح ﷺ؛ لأن البنوة ليست بنوة دم^(٣) فقط، فبنوة الحسين ﷺ؛ ليست بنوة دم فقط، وإنما هي بنوة روح، قال الشاعر:

أيا واحداً من خمسة إن رأيتهم رأيت بهم في كل وجه محمداً

ولذا فإننا عندما ننظر إلى الحسن ﷺ فإننا ننظر إلى النبي ﷺ.

المبحث الرابع: من ملامح الإمام الحسن ﷺ

الأول: أنه ﷺ أشبه الناس برسول الله ﷺ

فالمؤرخون يقولون: إن الحسن ﷺ أشبه النبي ﷺ خلقاً وخلقاً، أي أشبه

(١) هود: ٤٥ - ٤٦.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ٢٣٦، المعجم الكبير ٢٣: ١٢٤، مسند الشاميين (الطبراني) ٣: ٣٣٤.

(٣) قال أبو فراس الحمداني:

كانت مودة سلمان له رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحماً
ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥. فمودة سلمان جعلت له من رسول الله ﷺ رحماً بقوله:
«سلمان منا أهل البيت». عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

بأخلاقه والكثير من أعضائه الجسدية^(١). وأشبهه أباه أمير المؤمنين عليه السلام في قامته وبعض ملامحه، فكانت الزهراء عليها السلام ترقصه فتقول:

أشبهه أباك يا حسن واخضع عن الحق الرسن
واعبد إلهاً ذا منن ولا تسوال ذا إحن^(٢)

وقد كان الإمام علي عليه السلام يُنزل ابنه محمد بن الحنفية إلى المعركة ويمنع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وكان يقول: «املكوا عني هذين الغلامين لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ». ف قيل له في ذلك فقال: «هذان ابنا رسول الله ﷺ، وهذا ابني»^(٣). ويريد بذلك أن حمل رسالة النبي ﷺ يكون عن طريق هذين. مع العلم أن الإمام الحسن عليه السلام كان ممارساً للحرب في أعتى الميادين وأقساها، ولا يُخاف عليه، وقد اشترك في الفتوحات قائداً لإحدى الكتائب. ومن يرمي الإمام عليه السلام بحب الحياة فهو مغفل لا يفهم من حياة الإمام عليه السلام شيئاً، أو أنه أخذ التاريخ من أعدائه، وموقف التاريخ معروف بسليته من أهل البيت. لم لا، وهو الذي كُتب في زمن معاوية المعروف بأساليبه في تزوير التاريخ؟ فقد كان يصعد على المنبر ويقول: تعرفون من هم أهل البيت الذين عنتهم الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٤)؟ قالوا: لا. قال: نحن أهل البيت. وقد استعمل معاوية المال والسيف وغيره في هذا السبيل كما هو معروف.

(١) شرح الأخبار ٣: ٩٧ / ١٠٢٤، الإرشاد ٢: ٥، مسند أحمد ١: ٩٩، ١٠٨، الجامع الصحيح ٥: ٣٢٥ / ٣٨٦٨.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٩، بحار الأنوار ٤٣: ٢٨٦ / ٥١، شجرة طوبى ٢: ٢٥٧. والإحن: جمع إحنة، وهي العدو. المعجم الوسيط: ٨ - أحن.

(٣) الخصال ٤٤١ / ٣٣، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠ / ٣٣، ١ / ٢٣٨ / ٥١٨.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

إذن فانتفاء الحسنين ﷺ للنبي ﷺ ليس بالدم فقط، فالكثير من أبناء الأئمة من يبرأ منه الإمام، ونحن نبرأ منه من أمثال جعفر الكذاب الذي هو ابن إمام وأخو إمام. في حين أن النبي ﷺ اعتبر سلمان الفارسي من أهل البيت ﷺ. ولذا يقول محيي الدين ابن عربي صاحب (الفتوحات المكية): «إن سلمان الفارسي معصوم، بدليل أن أهل البيت معصومون، والنبي ﷺ يقول: «سلمان منا أهل البيت»، فيكون سلمان معصوماً»^(١). ولذا تجد هناك حملة على محيي الدين بن عربي بسبب الكثير من آرائه في أهل البيت ﷺ، منها مثلاً قوله: «إن المسلم لا يدخل النار ببركة التمسك بأهل البيت ﷺ»^(٢)، ولو كانت آراء ابن عربي في مروان لكان له شأن آخر، ولصار سيّد العارفين.

فالبنوة التي يشبها القرآن للحسينين ﷺ هي البنوة الروحية. والحسن هو الامتداد الطبيعي لرسول الله ﷺ. ولذا يقول ﷺ: «كل بني أمّ ينتمون إلى عصبتهم إلا بني فاطمة ﷺ فإنني أنا أبوهم»^(٣). أي هم ينتمون إليّ. وهذا الحديث يرويه كل مؤرخي المذاهب الإسلامية.

فهذه أول مزايا الإمام ﷺ، وهي أنه ابن رسول الله ﷺ الذي يحمل أخلاقه.

(١) عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

(٢) قريب منه في شرح أصول الكافي (المازندراني) ٦: ١٤٨ / شرح الحديث: ١ من باب الإشارة والنص على الحسن بن علي ﷺ.

(٣) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكل بني أب عصبة ينتمون إليه إلا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمال ١٢: ٣٤١٦٨ / ٩٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

الثاني: أنه ﷺ أحد من باهل بهم النبي ﷺ

فهو أحد الوجوه الكريمة التي باهل بها النبي ﷺ نصارى نجران، وهم الأسقف والعاقب والسيد، وذلك عندما أتوا إلى المباهلة، فتقدم السيد للمباهلة وقال لمن معه: والله، إني أرى أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم على الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأفعل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. والله لئن باهلتموهم لا يدور حول عليكم ومن النصارى عين تطرف. فامتنع النصارى عن المباهلة وصالحوا النبي ﷺ ببركة هذه الوجوه الكريمة^(١).

الثالث: أنه ﷺ ممن شملتهم آية التطهير

فالإمام الحسن ﷺ أحد الذين احتوتهم آية التطهير من الرجس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، فهو من الذين أبعد الله عنهم الرجس، ورفع القرآن عقيرته بتطهيرهم آناء الليل وأطراف النهار.

الرابع: أنه ﷺ حفظ نسل الرسول ﷺ

أضف إلى ذلك أن الحسين ﷺ حفظا نسل النبي ﷺ عبر التاريخ، وقد انحصر نسله بهما. وكم حدثت من المحاولات لقطع هذه القناة الممتدة عبر التاريخ! وقد سمعنا في كربلاء من يقول: اقتلوهم.. لا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. والقصد أن يقطع هذا الحبل المتصل بالنبي ﷺ^(٢).

الخامس: أنه ﷺ إمام قام أو قعد

فالحسن هو الإمام بشهادة النبي ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(٣).

(١) التبيان ٢: ٤٨٤، قريب منه في شواهد التنزيل ١: ١٦٣ - ١٦٤ / ١٧٤.

(٢) وقد أكد الرسول الأكرم ﷺ هذا المعنى بما مر من أحاديث في الصفحة السابقة.

(٣) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

السادس: أنه ﷺ سيد شباب أهل الجنة

فالحسن سيد شباب أهل الجنة بصريح قول النبي ﷺ فيه وفي أخيه الإمام الحسين ﷺ: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»^(١).

ومن هنا فإن الاحتفال بمولده ليس أمراً بلا جدوى، فهناك الآلاف ممّن يأتون إلى الدنيا يومياً، ويرحل عنها مثلهم، ومن هؤلاء من يأتي إلى الدنيا وتتمنى أنه لم يولد، فهو بلاء على الدنيا، يقول أحدهم:

فكم من وليدٍ قد وددنا لو أنه يموت بأيدي القابلات مناغيا

تنبش إليه الأمهات ولو درت بما سوف يجنيه لطمن النواصيا

وكما قلنا فإن هناك أشخاصاً إذا ولجوا إلى الحياة أثروها، وإذا خرجوا منها خلفوا فراغاً. والإمام الحسن ﷺ من هذا النوع، فقد استقبلت الدنيا هذا العطاء في السنة الثالثة من الهجرة، ليلة الخامس عشر من رمضان المبارك. وهو أول وليد يربط بين النبوة والإمامة؛ ولذا فرح به النبي ﷺ فرحاً لا حدود له، وقد جاءت به الزهراء ﷺ إلى النبي ﷺ حين ولادته فقالت: «يا رسول الله، هذا ولدك فسمّه». فقال: «ما كنت لأسبق ربي باسمه». فهبط عليه جبرئيل يحمل اسمه. قال: «إن علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسّم ابنه باسم ابن هارون (شبر)». قال: «ذلك عبراني وأنا عربي؟» قال جبرئيل: «سمه حسناً»^(٢).

فسماه كذلك، وأمر بتغيير الخُرقة التي لفّ بها، وراح يلثمه، وعقّ عنه بكبشين

(١) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجه ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرک علی الصحيحین ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.
(٢) ذخائر العقبی: ١٢٠، المعجم الكبير ٣: ٩٧ / ٢٧٧٦، ينابيع المودة ٣: ٢٠١ / ٥٧٩.

أملحين وتصدق عنه بوزن شعره ورقاً. فهو أول وليد احتفل به النبي ﷺ وأدخل على قلبه السرور، وقال عنه: «إن ابني هذا سيد»^(١). وقد أضيف إلى هذا الحديث من مخترعات الرواة: «وسيلص الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢). وقد وضعت هذه الزيادة لغرض جعل من قاتل الحسن عليه السلام مسلماً. ولا يمكن لأحد يمتلك خلفية علمية أن يقع بمثل هذا الخطأ؛ لأن النبي ﷺ يقول لعلي عليه السلام: «حربك حربي وسلمك سلمي»^(٣)، «من أحبك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن أبغضك فليس له نصيب من الإسلام»^(٤). فمن حارب علياً عليه السلام حارب رسول الله ﷺ، فكيف يكون من حارب رسول الله ﷺ مسلماً؟ وعليه لا يمكن أن نعتبر من يرفع سيفه لقتل سيد شباب أهل الجنة مسلماً. فالملحق مع الحديث غير صحيح وإنما هو من اختراع الرواة. ثم إن الإمام الحسن عليه السلام لم يخرج للصلح، وإنما خرج للقتال، فلما أسلمه جيشه اضطر إلى الصلح.

وهناك الكثير من الأحاديث من أمثال هذا منها أن لبابة أم الفضل بن العباس دخلت على النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، رأيت كأن عضواً من أعضائك انفصل فسقط في حجري، فقال ﷺ: «خيراً رأيت، ستلد فاطمة عليها السلام ولداً، وسترضعنه بلبن قُثم»^(٥).

(١) مسند أحمد ٥: ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٥١، صحيح البخاري ٣: ١٦٩، ١٧٠، ٤: ١٨٤، ٢١٦، ٨: ٩٩، سنن أبي داود ٢: ٣١١ / ٤٢٩٠، ٤٠٥ / ٤٦٦١، وغيرها كثير.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٤، المناقب (الخوارزمي): ١٩٩، وقاله له بهذا المعنى أحاديث كثيرة، انظر الحاوي للفتاوي ٢: ٤٤.

(٤) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، المعجم الكبير ١٢: ٣٢١، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، وقال: قال البوصيري: رواه ثقات.

(٥) مسند أحمد ٦: ٣٣٩، ٣٤٠، مسند أبي يعلى ١٢: ٥٠٠، المعجم الكبير ٣: ٢٠، ٢٥: ٢٥.

ويبدو أن العباسيين دبّروا^(١) هذه القصة ليشرعوا أن آباءهم شاركوا في اللبن الذي شرب منه الحسن عليه السلام، فاشتركوا في هذه المكرمة، وإلا فإن العباس كان آنذاك لا يزال في مكة، وبين قثم والإمام الحسن عليه السلام سنون طويلة؛ فلا لبن ولا رضاع بينهما، بل إن العباس لم يهاجر وإنما التحق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في السنة العاشرة في فتح مكة ثم جاء مع النبي إلى المدينة. ولذا فإن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)، قطع ولاية العباس عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه لم يهاجر.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم سرّه الله بالحسن عليه السلام، ثم أكمل سروره بالإمام الحسين عليه السلام، فكان يحمل هذين الصبيين على صدره ولا يكاد يفارقهما الليل والنهار، ولم يكونا يفارقانه حتى في صلاته. وقد أطال السجود مرة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قال: «لا، وإنما ولدي ارتحلني فكرهت أن أعجله»^(٣).

وكان يصعد المنبر والإمام الحسن والحسين عليهما السلام في حجره لا يكادان يفارقانه. ولك أن تتصور مقدار النكبة التي لحقت بالحسين عليه السلام عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهما لم يناديا أمير المؤمنين عليه السلام «يا أبا» في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما راحا يناديانه بذلك بعد رحيله.

استقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً الخليفة الأول فرآه يحملهما على عاتقيه، فقال: نعم

(١) ربما كانت الواقعة صحيحة لكنهم أضافوا إليها قصة الرضاع.

(٢) الأنفال: ٧٢.

(٣) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣/٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٣١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أمد الغاية ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

الجميل جملكما، ونعم الراكبان أتنما. قال النبي ﷺ: «وأبوهما خير منهما»^(١).
فأخذهما أبو بكر من حجر النبي ﷺ.

عاش الإمام عليه السلام الحسن سبع سنوات مع النبي ﷺ، وقد يسأل سائل: كيف عاش هذه الفترة القصيرة وله عن النبي ﷺ مسند يرويه أحمد بن محمد الدولاقي؟ ولا تزال هذه النسخة المخطوطة في مكتبة أمير المؤمنين بالنجف، فهل يستطيع صبي مثل هذا أن يحفظ الأحاديث الكثيرة عن النبي ﷺ؟

إن هذا الأمر ليس فيه غرابة، وإليك بعض الأمثلة البسيطة: راجع حياة الاقتصادي والثائر الإنجليزي المعروف «جون لوك»، وانظر ما يكتبون في ترجمته، وانظر ترجمة حياة «جون مل ستيوارت» وماذا كتب فيها، يقولون: إن عمره أربع سنوات وحفظ لغات عدة، ووضع النظريات الكثيرة. فليست أرقام الموهوبين غير عادية، وإنما الموهوب رقم غير عادي.

وكان عمر الإمام الجواد عند وفاة والده عليه السلام سبع سنوات، وكان أحد الفقهاء يتردد إليه، فكان يقول: الناس يظنون أنني أعلمه، وأنا والله أعلم منه طرفي الليل والنهار. فقد تجد ابن سبع أو عشر يستوعب ما لا يستوعبه الرجل الكبير. فليست الغرابة أن يأخذ الإمام الحسن عليه السلام عن جدّه الأحاديث فيحفظها، أو أن يأخذها بالواسطة من أبيه أمير المؤمنين عليه السلام. ولدينا في تأريخ المسلمين من بلغ الاجتهاد وهو ابن الثامنة عشرة^(٢).

والسنون السبع الأولى في حياة الإنسان هي السنون الحساسة فيها، وقد

(١) سنن ابن ماجه ١: ٤٤ / ١١٨، المعجم الكبير ٣: ٢٩ / ٢٦١٧، ٦٥ / ٢٦٧٧، ١٩: ٢٩٢.
وليس فيها إشارة إلى أبي بكر.

(٢) خلاصة الأقوال: ١٠، كشف اللثام ١: ٢٥.

قضاها الإمام الحسن ﷺ في حجر جده. ثم أصيب الحسنان بموت جدّهما، فراحا يعيشان فراغاً كبيراً، ثم لحقتهما المصيبة الثانية بعد ثلاثة أشهر بموت أمّهما فاطمة ﷺ، لكن الله تعالى عوضهما بحجر امرأتين طيبتين طاهرتين هما أسماء بنت عميس الخثعمية من جانب وفاطمة بنت حزام أم البنين من جانب، تلك المرأة التي كرّست حياتها لخدمتهما، حتى إن بعض المؤرّخين يقول: إنها ألحّت على أمير المؤمنين ﷺ ألاّ يسميها باسمها كيلا يتألم الحسنان.

نشاط الحسن ﷺ إبان إمامة والده ﷺ

عاش الإمام الحسن ﷺ هذه الفترة من سبع سنين حتى نهاية حياة والده أمير المؤمنين ﷺ - أي ما يقرب من ثلاثين سنة - وقد مرّ بأحداث ضخمة، ولكن كانت الأضواء فيها مسلطة على أمير المؤمنين ﷺ، وليس معنى ذلك أن حياته كانت بلا أضواء، وإنما كان نشاطه الاجتماعي والجهادي والعلمي يشغل جانباً من تلك الفترة، فمن نشاطه الاجتماعي أنه كان يقوم بأعمال تتناسب مع ما له من مكانة، فالخلافة لم تستغن عنه في أحداثها ولا في فتوحاتها، فقاتل في أكثر من واقعة وواقعة^(١).

وهناك مغالطة يذكرها المؤرّخون دائماً في فتح القسطنطينية، ويروون أن أول جيش يفتح القسطنطينية من أهل الجنة، ثم ينسبون ذلك إلى يزيد بن معاوية؛ ليكون بذلك من أهل الجنة^(٢). ففي سنة تسع وأربعين كان سفيان بن عوف على

(١) طبقات المحدثين بأصبهان (ابن حبان) ١: ١٩١، تاريخ جرجان: ٤٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٦١، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٠٩.

قال المناوي: «لا يلزم منه كون يزيد بن معاوية مغفوراً له لكونه منهم إذ الغفران مشروط بكون الإنسان من أهل المغفرة ويزيد ليس كذلك لخروجه بدليل خاص ويلزم من الجمود على العموم أن من ارتد ممن غزاها مغفور له وقد أطلق جمعٌ محققون جلّ لعن يزيد به حتى

رأس الجيش الذي فتح القسطنطينية، ومن بعد ذلك بسنة جاء الجيش الثاني، ولكن بعد أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحُمى فتكا به، ويزيد مع جارية له في دير مَرَّان تغنيه، فوصل له خبر الجيش الذي أصابته الحمى والطاعون، فشرب حتى ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُم بالفرقدونة من حمى ومن شوم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفعاً بدير مَرَّان عندي أم كلثوم^(١)

ومن بعد ذلك ألحَّ عليه أبوه معاوية أن يلتحق بالجيش فالتحق، ولكن في المرة الثانية.

فالذي فتح القسطنطينية هو سفيان بن عوف، ولك أن تراجع التواريخ المعتبرة كالطبري وابن الأثير^(٢) وغيرهما^(٣).

أمير المؤمنين عليه السلام يرسل الحسنين عليهما السلام لحماية عثمان وفي أيام الثورة على الخليفة الثالث كان أمير المؤمنين عليه السلام يدرك ما سوف تجرّه الثورة من البلاء على المسلمين؛ ولذلك أوقف الحسنين عليهما السلام على باب عثمان كيلا تُفتح عليه الدار^(٤)، وكيلا يأتي التاريخ بعد ذلك فيقول: إن علياً عليه السلام هو الذي

قال التفتازاني: الحق أن رضا يزيد بقتل الحسين وإهانته أهل البيت مما تواتر معناه وإن كان تفاصيله آحاداً فنحن لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه. قال الزين العراقي: وقوله بل في إيمانه أي بل لا يتوقف في عدم إيمانه بقرينة ما قبله وما بعده. البداية والنهاية ٨: ١٣٥. (١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٣: ٣١٤.

(٣) الإصابة ٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٣٥٠.

(٤) المستدرک على الصحيحين ٣: ١٠٦، مسند ابن الجعد: ٣٩٠، الثقات (ابن حبان) ٢: ٢٦٣،

سير أعلام النبلاء ٨: ١٨١، الإمامة والسياسة ١: ٤٤.

سهل عليهم الأمر. ولكن علياً ﷺ مع كل ذلك لم يسلم من هذه التهمة، يقول أحد شعراء الأمويين:

بني هاشم كيف الهوادة بيننا ودرع ابن أروى عندكم ونجائبة
بني هاشم ردوا تراث ابن أخيتكم ولا تنهبوه لا تحل مناهبة
ممن قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرأوبة^(١)

ولكن انظر إلى لحظة من لحظات الصدق مع النفس عند مروان، يقول ابن حجر في (الصواعق المحرقة): «سألوا مروان عن موقف علي ﷺ من الخليفة الثالث فقال: والله، إنه لأبرأ الناس من دمه. فقليل له: فلم تنسبون إليه تهمة في عثمان؟ قال: إن أمرنا لا يستقيم إلا بذلك»^(٢).

نعم، أرسل الإمام علي ﷺ الحسنين ﷺ للوقوف على باب الدار؛ ولذلك لم يدخل الثوار من الباب، وإنما تسوروا عليه من وراء الباب وقتلوه. وأظن أن هذا هو الذي حمل طه حسين على القول: «إن الإمام الحسن ﷺ كان عثمانياً بما تحمله الكلمة من معنى».

وفي المجال العلمي كانت الكثير من المسائل التي ترد على المسلمين توكل إليه، فمن ذلك أن أمير المؤمنين ﷺ كان جالساً في مسجد النبي ﷺ وجاء سائل فقال: يا أمير المؤمنين، جئت إلى الحج فوطئت بيض النعام، ولا أدري ما يكون عليّ. فقال له الإمام علي ﷺ: «سل ذا الوفرة». وأشار إلى الإمام الحسن ﷺ، فأقبل إليه فسأله، فقال ﷺ: «انظر إلى عدد البيض الذي وطئته، وخذ عدداً مثله من النياق فاضرب النياق بالفحول، فما حملت فاهده إلى بيت الله». فقال: إن النوق يزلقن.

(١) الجمل (الشيخ المفيد): ١١٢، المحلى ١٠: ٥١٣، شرح نهج البلاغة ١: ٢٧٠، تاريخ مدينة دمشق.
(٢) الصواعق المحرقة ١: ١٦٣.

فقال له عليه السلام: «والبيض يمرق». فرجع السائل إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأخبره بما أفنى، فقال عليه السلام: «والله لقد أفتاك بحكم الله من فوق سبع سماوات»^(١).

نشاطه عليه السلام إبان إمامته

ومن بعد هذه الفترة عاش فترة أخرى وهي ما بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام، ووصول الخلافة إليه، حيث ابتدأت زحمة الأحداث، فكان أن واجه عليه السلام تلك

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٦، بحار الأنوار ٣٤: ٢٥٤/٢٢، وليس فيهما: سل ذا الوفرة، بل ورد هذا اللقب في رواية أخرى فقد جاء شامي لأمر المؤمنين عليه السلام ليسأله فقال له: «سل ذا الوفرة». فسأله عن عدة أمور منها: كم بين الحق والباطل؟ وكم بين السماء والأرض؟ وكم بين المشرق والمغرب؟ وما قوس قزح؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين؟ وما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين؟ وما المونث؟ وما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض؟ فقال الحسن بن علي عليه السلام: «بين الحق والباطل أربع أصابع فما رأيته بعينك فهو الحق، وقد تسمع باذنك باطلاً كثيراً». قال الشامي: صدقت. قال: «وبين السماء والأرض دعوة المظلوم ومد البصر، فمن قال لك غير هذا فكذبه». قال: صدقت يا ابن رسول الله. قال: «وبين المشرق والمغرب مسيرة يوم للشمس تنظر إليها حين تطلع من مشرقها وحين تغيب من مغربها». قال الشامي: صدقت، فما قوس قزح؟ قال عليه السلام: «ويحك لا تقل قوس قزح فإن قزح اسم شيطان، وهو قوس الله وعلامة الخصب وأمان لأهل الأرض من الفرق، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المشركين فهي عين يقال لها: برهوت، وأما العين التي تأوي إليها أرواح المؤمنين فهي عين يقال لها: سلمى، وأما المونث فهو الذي لا يدري أذكر هو أم أنثى فإنه ينتظر به؛ فإن كان ذكراً احتلم وإن كانت أنثى حاضت وبدا ثديها، وإلا قيل له بل على الحائط فإن أصاب بوله الحائط فهو ذكر وإن انتكص بوله كما ينتكص بول البعير فهي امرأة. وأما عشرة أشياء بعضها أشد من بعض، فأشد شيء خلقه الله عز وجل الحجر، وأشد من الحجر الحديد الذي يقطع به الحجر، وأشد من الحديد النار تذيب الحديد وأشد من النار الماء يطفى النار، وأشد من الماء السحاب يحمل الماء، وأشد من السحاب الريح تحمل السحاب، وأشد من الريح الملك الذي يرسلها، وأشد من الملك ملك الموت الذي يميت الملك، وأشد من ملك الموت الموت الذي يميت ملك الموت، وأشد من الموت أمر الله رب العالمين يميت الموت». فقال الشامي: أشهد أنك ابن رسول الله ﷺ حقاً، وأن علياً أولى بالأمر من معاوية. الخصال (الصدوق): ٤٤٠، ٤٤١، الاحتجاج ١: ٣٩٩، بحار الأنوار ١٠: ١٣٠/٤٣، ٣٢٥.

الأحداث المتشابكة برباطة جأش وثبات، فدعا الناس إلى بيعته وطاعته، وجهّز الجيش لقتال معاوية، وهياً كلّ الفرص. غير أنه ﷺ لما تراحم الأمر بين المهمّ والأهمّ قدم الأهمّ، فهو ﷺ رأى أن حقن الدماء في هذه الفترة أهمّ، ومن ناحية أخرى رأى أن الحرب ستمكّن الروم من حدود المسلمين، فالروم كانوا قد حشدوا على الحدود من جهة الشام. فلم يكن الإمام الحسن ﷺ محبّاً للحياة كما يحلو للبعض أن يتّهمه، وكيف يحبّ الحياة من نشأ في كنف جدّه النبي ﷺ وأبيه أمير المؤمنين ﷺ؟ فهو لم ينشأ في بيت دعة أو رفاهية، وقد اشترك مع أبيه في الحروب، فلم يكن بعيداً عن ساحاتها، لكن المصلحة اقتضت حقن الدماء. ولا ننسّ خذلان أصحابه له، ذلك الذي ملأ نفسه انفعالاً، حيث خرج من الكوفة، فوقف على مشارفها فأطال النظر إليها، وراح يقول:

«وما عن قلبي فارقت دار أحبّتي همّ المانعوني حوزتي وذمّاري»^(١)

ورجع إلى المدينة يجترّ آلامه، حيث رأى أن كلّ الشروط التي اشترطها على معاوية لم يُنفَّذ منها شيء أبداً، ولكن ماذا يصنع؟ والغريب في التأريخ أنه ينتقده لأنه صالح معاوية، لكن هل سلم من انتقاداته الإمام الحسين ﷺ الذي نهض ضدّ الأمويّين؟ أم إنه يقول عنه: خرج على إمام زمانه^(٢)! وهذا يظهر لك أن التأريخ لا بدّ أن يستنقد الحسن

(١) شرح نهج البلاغة ١٦: ١٦.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ - ٢٦٦، وفيه: وقد غلب على ابن العربي البغض من أهل البيت، حتى قال: قتله - يعني أن يزيد قتل الحسين ﷺ - سيف جدّه. وقال: ومن مجازفات ابن العربي أنه أفتى بقتل رجل عاب لبس الأحمر؛ لأنه عاب لبسة لبسها رسول الله ﷺ، وقتله بفتياه كما ذكره في (المطامح). وهذا تهوّر غريب، وإقدام على سفك دماء المسلمين عجيب، وسيخاصمه هذا القتل غداً، ويبوء بالخزي من اعتدى. وليس

والحسين عليه السلام على كل حال.

وبقي الحسن عليه السلام يعيش آلامه ويضمد جراحاته، حتى جاءت المأساة الأخيرة حيث دُسَّ له السم، ذلك السلاح الخفي الذي استخدمه معاوية مع الكثيرين، فقد استعمله مع سعد بن أبي وقاص^(١)؛ لأن موقفه كان سلبياً منه. وقد حاول معاوية مراراً أن يحصل منه على شتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فرفض، مع أنه كان عدوًّا لعلي عليه السلام، لكن عداوته لم تكن خسيصة وإنما كانت عداوة نبيلة، فقد واجه معاوية بقوله: والله لو كانت لي واحدة مما كان لعلي لكان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس: زوجته رسول الله ﷺ ابنته، ودفع له اللواء يوم خيبر، وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى». فقال معاوية: إذن لم تخلف عن بيعته؟ قال: ذلك لا يعنيك^(٢).

واستعمل معاوية السم مع الأشتر^(٣)، وأرسل السم إلى جعدة مع الكثير من الإغراءات، فدسَّته للحسن عليه السلام في اللبن وكان صائماً، وقدَّمته له عند الإفطار. فتناول منه جرعة فأحس بالسم يجري في عروقه، فعاد إلى الدار يلفظ أمعاءه والدماء قد أخذته.

ودخل عليه الإمام الحسين عليه السلام وهو في هذه الحالة، فراح يشرح للحسين الموقف وما سوف يحصل، ثم قال له: «لا تهرق في أمري ملء محجمة دماً، وإذا لم

ذلك بأول عجرفة لهذا المفتي وجراته وإقدامه؛ فقد ألف كتاباً في شأن مولانا الحسين (رضي الله عنه، وكرم وجهه، وأخرى شائته) زعم فيه أن يزيد قتله بحق بسيف جدّه نعوذ بالله من الخذلان. فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ٣١٣.

(١) شرح نهج البلاغة ٦١: ٢٩، النصائح الكافية (محمد بن عقيل): ٨٦.

(٢) مروج الذهب ٣: ٢٤ - ٢٤، شواهد التنزيل ٢: ٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ١١٢.

(٣) الغارات ١: ٢٦٣، القدير ٩: ٤٠، ١١: ٦٣، شرح نهج البلاغة ٦: ٧٦، النصائح الكافية: ٨٧.

يمكن الدفن عند جدي فادفني عند أُمي».

ثم قال: «سَجَنِي إِلَى الْقَبْلَةِ». وراح الإمام الحسين عليه السلام يودّع أخاً عاش معه وترعرع، ورضع معه لبان النبوة والإمامة، وجرت من عين الإمام الحسين عليه السلام دمة حارة وهو يلحظ الروح الطيبة تصعد إلى بارئها، وضع رأسه في حجره.. أغرق وجهه بدموعه ثم قام بتنفيذ وصاياه. وخرجوا يحملون النعش، وخرج بنو أمية، وواجه الإمام الحسين عليه السلام ذلك بما عُرف عنه من ثبات وصبر، ولم يصّر على دفنه عند جده وإنما جدّد به عهداً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم عاد به إلى البقيع، فأنزله في قبره وجلس على شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله.. يبلّ الثرى بقطرات من دموع عينيه، ويقول:

«أدهن رأسي أم تطيب مجالسي	وخدك معفور وأنت تريبُ
وليس حريباً من أصيب بماله	ولكنّ من وارى أخاه حريبُ
بكسائي طويل والدموع غزيرة	وأنت بسعيد والمزار قريبُ

ثم نفّض يديه من تراب القبر ورجع^(١). وكان يجول بالدار ويقول:

«أجول بالدار لا أراك وبا لدار أناس جوارهم غبن»^(٢)

أقول له: سيدي، مكان واحد خالٍ أقضّ مضجعك، فكيف حالك لو رأيت بيوتكم بعد واقعة الطفّ وقد أصبحت جميعها بيوتاً للأحزان؟ كيف بك لو رأيت أختك في دارك تجول لا تهدأ حتى الصباح ولسان، حالها يقول:

(١) شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦٠، نظم درر السمطين: ٢٠٦.

(٢) البيت لسليمان بن قتة. مقاتل الطالبين: ٥٠، شرح الأخبار ٣: ١٣٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٠٥، بحار الأنوار ٤٤: ١٦١، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٢.

منازل كانت نيزات بأهلها توالى عليها غيرة وقتام

ألا لا تُـزان الدار إلا بأهلها على الدار من بعد الحسين سلام

يناعي اشبعد تدري اشبغالي وشخّفت عندي اللسيالي



الإمامة في القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ
فَاتَّمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي
الظَّالِمِينَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

هناك محاولة لتفسير هذه الآية بحيث تُصرف عن مضمونها الأساسي؛ لأن مضمونها ضخم جداً، فهي يمكن أن تعتبر من الفقه السياسي في الإسلام. وهذه المحاولة قد تكون غير مقصودة أو أنها إسرائيلية بحيث لا يشعر المفسر بها. وإبراهيم هو اسم سرياني أما بالعربية فهو (أب رحيم) فيقبلون الحاء هاء فيصبح إبراهيم. وهو ابن ناحور، أما آزر الذي ذكر في القرآن فليس أباه وإنما هو عمه، والعم يسمى أباً. فأبوه لم يكن مشركاً وإنما كان موحداً على الفطرة.

المبحث الأول: آراء في الكلمات الواردة في الآية

وإبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، ورسالته عامة، وأراد الله أن يمتحنه بكلمات، فما هي الكلمات التي اختبر بها الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام؟ هناك عدة آراء:

الرأي الأول: أنها التكاليف

وهذا الرأي يرويه المسلمون جميعاً دون استثناء، باعتبار أن التكاليف تنزل بكلمات. وهذه التكاليف عشرة^(١): خمسة في الرأس وخمسة في الجسم؛ فالخمسة التي في الرأس: المضمضة والاستنشاق؛ واحدة لتطهير الفم، وواحدة لتطهير المجاري التنفسية، ثم السواك، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضله^(٢). ويعلل تطهير الفم واللثة والأسنان على أنها المعبر الذي يمرّ منه القرآن^(٣)، وهو مكان الملكين^(٤) باعتبار أنه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد^(٥). والرابع من الخمسة قص الشارب؛ لأنه يحمل في طياته الكثير من المكاره، فهو على مدخل الفم الذي هو الطريق إلى المعدة، وقد يكون مكمناً لآثار ضارة. والخامس فرق الرأس^(٦).

أما الخمسة التي في البدن فهي قص الظفر، فلا يبقى الظفر فيمنع إيصال الماء إلى البشرة، ويكون مكمناً للجراثيم أيضاً، وإزالة الشعر من مواضع الشعر؛ كيلا تكون مكمناً للأمراض، والثالث الختان، ويستحب في الأيام الأولى. ومن كرامة

(١) انظر: مجمع البيان ١: ٢٧٤ - ٢٧٥، تحرير الأحكام ١: ٧١ - ٧٣، المستدرک علی

الصحيحين ٢: ٢٦٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٩٨، باختلاف فيها في هذه السنن العشرة.

(٢) انظر وسائل الشيعة ٢: ٥ - ٢٧ / ب ١ - ١٣، كنز العمال ٩: ٣١٠ - ٣٢١ / ٢٦١٥٦ - ٢٦٢٢٨.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن أفواهكم طرق القرآن؛ فطهروها». الفقيه ١: ٥٢ / ١١٢، كنز العمال ١: ٦٠٣ / ٢٧٥١.

(٤) قال الرسول ﷺ: «نقوا أفواهكم بالخلال؛ فإنها مكن الملكين الحافظين الكاتبين. بحار الأنوار ٥٦: ٢٠٢ / ٨٢.

(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. ق: ١٨.

(٦) فرق الرأس: المفرق، وهو ما بين الجبين إلى الدائرة. لسان العرب ١٠: ٣٠١، ٣٠٢ - فرق، ١٢: ٦٢٤ - هوم.

نبيّنا ﷺ على الله أنه ولد مختوناً، فقد قال ﷺ: «من كرامتي على ربي أنني ولدت مختوناً ولم يرَ أحد سواي»^(١). فالأغلف الذي لم يُختن طوافه باطل، وصلاته باطلة؛ لأن الغلفة تمنع وصول الماء إلى العضو فلا تتحقّق الطهارة. وإذا قطعت هذه الغلفة فيجب أن تدفن؛ لأنها جزء حي مبان من جزء حي. ثم الرابع الاستجمار بالماء، فموضع البول متعيّن فيه الاستجمار بالماء، لكن موضع الغائط إذا تعدّى المخرج كان الماء واجباً، وإلا فيختير بينه وبين الاستجمار بالحجارة ثلاثاً^(٢)، والخامس الغسل من الجنابة.

وأنا أستغرب أن يوقف الله تعالى أبا الأنبياء إبراهيم ﷺ ليبتليه بكلمات وموضوع ضخم، فيكون هذا الموضوع هو قصّ الظفر والشارب والاستجمار وغيره. ولكن هذا الرأي على كلّ حال مروي عند المفسّرين، وإلا فإن جوّ الآية يوحي بموضوع كبير، ويبدو أن المفسّرين المسلمين أحسنوا الظن بالرواية، فجاءهم البلاء منها.

الرأي الثاني: أنها ذبح ولده إسماعيل ﷺ

وذلك لما أمره الله بذبحه^(٣). وهذا موضوع ضخم؛ لأن إقدام الإنسان على ذبح ابنه أصعب حتى من إقدامه على قتل نفسه، فيمكن أن يقتل الإنسان نفسه ولا يقتل ولده؛ لأن علاقة البنوة والأبوة لا يمكن أن تبرزها الكلمات، فالله تعالى أراد أن يختبر نبيه ﷺ بهذا الفعل، ليظهر جوهر النبوة. وقد امتثل إبراهيم ﷺ وأتم الكلمات، فاستدعى ولده إسماعيل ﷺ^(٤)، وهو ذو المكانة الكبيرة في نفسه؛ لأنه الولد الأوّل،

(١) المعجم الصغير ٢: ٥٩ / ٩٣٦، المعجم الأوسط ٦: ١٨٨، كنز العمال ١١: ٤١١ /

٣١٩٢٤. (٢) انظر المعتبر ١: ١٢٤ - ١٢٥.

(٣) تفسير القمي ١: ٥٩، جامع البيان، المجلد ١، ج ١: ٧٣٤ / ١٥٩٢.

(٤) يشار إلى أن هناك خلافاً بين المفسّرين حول المأمور بذبحه من ولد النبي إبراهيم ﷺ،

فلم تكن سارة أم إسحاق تلد، فلما تزوج مولاتها هاجر غارت فحملت بإسحاق. فإسماعيل عليه السلام هو الوليد الأول الذي كُحلت به مقلّة النبي إبراهيم عليه السلام، ففداه الله تعالى بكبش.

ويقول المفسرون من غير الشيعة: إن هذا الكبش من كباش الجنة، وقد نزل مع آدم عليه السلام من الجنة^(١). في حين أن المدة بين نزوله مع آدم عليه السلام وبين إبراهيم عليه السلام هي آلاف السنين، فهل يمكن أن يعيش هذا الكبش آلاف السنين؟ مع أننا نحن الشيعة عندما نروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»^(٢)، ونقول: فلا بد أن يكون إمام الزمان حياً؛ لذا فإن الإمام المهدي (عج) حيّ، عندما نقول ذلك يقولون لنا: أنتم مخرفون، فكيف يعيش الإنسان كلّ هذه المدة؟ لكنهم يصدقون أن يعيش كبش لآلاف السنين، فلماذا يرفضون فكرة أن يعيش تلك الفترة الطويلة إمام يتعبّد الله البشر بطاعته، ويرون ذلك خرافة؟ فأين هي الموضوعية؟

لقد أتى الأمر إلى إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، وهذا هو التكليف الشاقّ الذي لا يقدم عليه الإنسان إلّا أن يكون فاقداً للعقل. ولذا ألقت النظر هنا إلى أن الوالد لا يقاد بولده، فلو أقدم أب على ذبح ولده فلا يقاد النفس بالنفس، لأنّه لا يمكن أن يقدم أب على قتل ولده إلّا أن يكون فاقداً للعقل. فلا يمكن أن يكون هناك شيء أعزّ من الولد أبداً. فالوالد يرى نفسه بولده ولا يراها بأبيه؛ ذلك أن الولد هو الامتداد

وهل هو إسماعيل عليه السلام أو إسحاق، انظر التبيان ٨: ٥١٨، جامع البيان، المجلد ١٢، ج ٢٣: ٩١-١٠٣.

(١) انظر جامع البيان، المجلد ١٢، ج ٢٣: ١٠٤ / ٢٢٦٥٥، تفسير القرآن العظيم ٤: ١٧، وفيهما كبش من الجنة قد رعاها قبل ذلك أربعين خريفاً.

(٢) الإمامة والتبصرة (ابن بابويه): ١٥٢، كمال الدين: ٤٠٩ / ٩.

الطبيعي للوالد. فالاختبار - هذه الكلمة الضخمة - الوارد في الآية يناسبه هذا الموضوع، وهو موضوع مهم.

الرأي الثالث: أنها تكاليف النبوة وأعباء الإمامة

فمن أعباء الإمامة أن الإمام يتعرض للاضطهاد والاستهزاء والسخرية والمضايقة، فالمطلوب منه أن يحمل قلباً يسع الدنيا، ويتحسس آلام البشرية. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أقنع من نفسي أن يقال: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟ فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها...» إلى أن يقول: «ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص»^(١).

فهو يرى نفسه مسؤولاً عن هذا الذي هو بالحجاز أو اليمامة الذي يبيت وهو لا طمع له بالقرص. وهذه ليست مسألة ترف يريد الإمام عليه السلام منها أن يبين لنا معنى من المعاني الأخلاقية، وإنما ذلك لازم من لوازم الإمام، فهو يجب عليه أن يتحسس الناس وآلامهم.

فأعباء النبوة والإمامة هي التي ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام^(٢)، وهذا هو الذي يتناسب مع جو الآية؛ لأن أعباء الإمامة تحتاج إلى قابليات لا حدود لها، ولا يقوم بها أي كان. فالإمام عليه السلام يرى أنه لا بد أن يصهر نفسه تماماً في سبيل تحقيق العدل، فتراه يقف في السوق مع يهودي يدّعي عليه في درع، ثم يقدمه إلى القضاء^(٣).

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

(٢) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج ١: ٧٣٥ / ١٥٨٧، ١٥٨٨.

(٣) المغني: ١١: ٤٤٤، جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٢٧ - ١٢٨.

ثم قال في المغني: وقد روي عن علي (كرم الله وجهه) أنه نزل به رجل، فقال له: «إنك خصم؟». قال: نعم. قال: «تحول عنا؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تضيفوا أحد

وهو عليه السلام يساوي أبسط الرعية في الثوب الذي يلبسه^(١)، ويتحمل من أناس ليس لهم وزن^(٢). فلا بد للإمام إذن من أن يحمل نفسية كبيرة وحلماً واسعاً. كما أن الإمام يتعرض أيضاً إلى الابتلاءات هو وعائلته، فهو يتعرض إلى الجرح أو القتل أو الإيابة لعائلته أو الشدائد التي لا حدود لها. فهذه هي التكاليف التي ابتلى الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام، فلما أتمها ووفى بها صار موضع المدح من القرآن الكريم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٣).

الرأي الصواب من هذه الوجوه الثلاثة

وهذا هو المعنى الضخم الذي جاءت الآية لتقريره، فهي نزلت لتبين لنا أن الإمام يجب أن يتحلّى بالعدل والفضل والإحسان والصدق والحلم والعلم والشجاعة وصفات الكمال، كي يكون مؤهلاً للإمامة، وإلا فما معنى أن الله يختبر إبراهيم عليه السلام؟ فالإمامة ليست مجرد جلوس على العرش دون النظر إلى أحوال

الخصمين إلا ومعه خصمه».

ثم قال: لأن ذلك يوهم الخصم ميل الحاكم إلى من أضافه، ولا يلحق أحدهما حجته ولا ما فيه ضرر على خصمه.

المعني: ١١: ٤٤٤ - ٤٤٥.

(١) انظر: كشف الغمة ١: ١٧٣، كشف اليقين: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٢٣٤ / ١٥.

(٢) وعلى ذلك شواهد كثيرة منها قول أحدهم له: لا أصلي معك في عيد ولا في جمعة ولا في جماعة، ولا أخرج معك إلى جهاد. فيقول له عليه السلام: «وأنا لا أضيرك ما دام المسلمون منك في أمان».

أو ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث قال عنه: وقال ابن الكلبي: كان سلمان اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان علي يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

وقد مرّ.

(٣) النجم: ٣٧.

الدنيا والرعية، وإلى تحقق العدل والصدق والخير فيها وإلا فهي ليست إمامة. فالقرآن الكريم يريد أن يبين لنا في هذه الآية أعباء الإمامة.

إذن فما هو الداعي إلى صرف الآية من هذا المعنى الضخم إلى أن المراد بها هو التكاليف من قص الشعر أو الاختتان أو السواك أو غيره؟ هذه محاولة غريبة، ويجب أن توضع عليها علامة استفهام. والغريب هنا أن هذا المعنى ترويه المذاهب الإسلامية كافة! خصوصاً أن هذا التفسير يوجد عند العباقرة من المفسرين.

ولكن أغلب الظن أن المفسرين أحسنوا الظن بهذه الرواية، وهي مروية عن ابن عباس والراوي هو عكرمة^(١) المعروف بالكذب^(٢).

(١) انظر جامع البيان، المجلد ١، ج ١: ٧٣٠ / ١٥٧٧ - ١٥٧٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٧٠.

(٢) روى ابن قتيبة عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال عن عكرمة: إن هذا يكذب علي أبي. المعارف: ٢٠١.

وقال ابن سعد: ليس يحتاج بحديثه. الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٢.

وذكر ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير: ٣٩ أن رجلاً سأل سعيد بن المسيب عن آيات من القرآن، فقال له: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء! يعني عكرمة.

أما ابن حجر في مقدمة (فتح الباري) فقد ذكر كل ما قيل فيه من مدح وذم، ثم دفع جميع الطعون عليه وصحح مدحه وعدالته، مع أن الصحيح كما نصّ ابن الصلاح أن الجرح مقدّم على كل حال. مقدمة ابن الصلاح: ١٩٤ - ١٩٢.

ومما نقل ابن حجر فيه أنه كان خفيف العقل. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

وأن المسلمين قد نبذوه وجفوه، وقد توفي هو وكثير عزة في يوم واحد، فشهد الناس جنازة كثير ولم يشهدوا جنازته. تهذيب التهذيب ٧: ٢٤٠.

وأن ابن المسيب قال لمولاه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة علي ابن عباس. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧ - ٢٣٨، وانظر ميزان الاعتدال ٣: ٩٢ - ٩٧، إكمال الكمال ١: ٢٥٥، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٧٩.

ونقل الذهبي أن مالكا ومسلماً تركاه. ميزان الاعتدال ٣: ٩٢.

المبحث الثاني: هل العامة مؤهلون لانتخاب الخليفة؟

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذا أوضح في كون الكلمات هي أعباء الإمامة، حيث جاء هذا المعنى بعد الكلمات مباشرة. وهذا المعنى يؤشر إلى نصوص أخرى في القرآن، منها: ﴿إِنِّي جَاعِلُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، ومنها: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾^(٢). وإذا رجعت إلى نظريات القرآن في هذا المجال وجدتها جميعاً تدور حول التعيين والجعل، فالنظرية صريحة في الجعل والتعيين وليس الانتخاب، فالله ينصّ على الأنبياء، والأنبياء ينصّون على الأئمة من بعدهم. وهكذا يبقى الإمام منصوباً عليه من قبل النبي ﷺ. يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(٣). فإذا نصّ الله على الإمام فلا مجال للاختيار؛ لأن مثل هذه المسألة المهمة الخطيرة لا يمكن أن يذرّها الله تعالى لمن هم ليسوا أهلاً لها، ولا يمكن أن يحكم فيها العامة التي نسميها الشعب. فالشعب رأي عام، والرأي العام قليل الإدراك لا يمكن أن يحدّد الإمامة والقيادة. وحتى لو كان ذا ثقافة وإدراك فهو لا يدري ما بداخل الفرد المنتخب من الإيمان وغيره. فالرأي العام قد يقوده شيء بسيط، وقد يتأثر بعاطفة، وقد يشتري بشيء ما، وهذه أمانة ضخمة لا توكل لهؤلاء العامة.

قاضي القضاة وقرطبة

وقد قرأت للكاتب خالد محمد ما أضحكني، فقد روى هذا الكاتب أنه دعي القضاة في الأزهر في يوم من الأيام إلى امتحان عام لغرض تعيين قاضي القضاة، وكان من جملة الأسئلة: عرّف قرطبة (وهي مدينة). فكتب أحد القضاة الممتحنين:

(٢) الأنبياء: ٧٣.

(١) البقرة: ٣٠.

(٣) الأحزاب: ٣٦.

قرطبة على وزن فُعْلَلَة، امرأة صحابية تزوجها رجل من التابعين في عهد النبي ﷺ فولدت له أولاداً صالحين. فكيف نترك انتخاب الإمام إلى أمثال هؤلاء العامة إذا كان القاضي هذا مبلغ علمه؟

دليل الشورى غير ناهض

والآيتان اللتان يستدلّون بهما على الانتخاب ليستا صالحتين للاستدلال، فالأولى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾^(١)، وقد نزلت في مدح الأنصار الذين كانوا يتشاورون في حلّ مشاكلهم^(٢).

والثانية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣)، فالبعض يقول: إن هذه المشاورة هي لاستجلاب مودّتهم لا لحاجة إلى رأيهم؛ لأنه مسدّد بالوحي^(٤)، فليس فيهما دليل ناهض. ولا أريد هنا مناقشة هذه الآراء التي ترد حتى عند الشيعة في حال عدم وجود الإمام، فلا بد من وجود الأفضل من حملة العلم الذي يرشحه الجوّ العلمي من الأمة.

إشكال حول نظرية الشورى

ولو سلمنا على فرض المحال أن نظرية الانتخاب موجودة، فهذا الانتخاب متى حدث في الأمة؟ إذا قلنا: إن الخلافة شورى وانتخاب، فمعنى ذلك أن خلافة الخليفة الثاني ليست صحيحة؛ لأنها حصلت بتعيين من الخليفة الأول. وكذلك خلافة الخليفة الثالث غير صحيحة لأنه لم ينتخبه إلا ثلاثة. فأين الانتخاب؟ ومتى تم؟ وعندما نسأل عمّن ينتخب الإمام يقال: إنهم أهل الحل والعقد. ونسأل عن عددهم فيقال: اثنان بل حتى واحد. فهل هذا انتخاب؟ إنه سخافة في مقابل رأي

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٣٦.

(٤) فتح القدير ١: ٣٩٣.

(١) الشورى: ٣٨.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

الإسلام الصريح الذي يقول ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. فالله ينصّ على النبي، والنبي ينصّ على الوصي، وإلى هنا لا نقاش في نظرية النص.

المبحث الثالث: صفات الإمام

ثم طلب إبراهيم من الله أن يؤهّل ذريته إلى حمل الإمامة: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ فجاءه الجواب أن الإمامة لا تنتهي إلى ظالم: ﴿قَالَ لَا يَتَّالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فالإمامة لا تتال الظالم؛ لأن من أول شروط الإمامة العدل.

دخل جماعة من الصوفية يوماً على الإمام الرضا (عليه السلام)، فوجدوه جالساً على فراش نظيف، وكان يتكئ على وسادة وعليه ملابس رقيقة وثمانية، فقال له أحدهم: جدك رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما شبع من خبز الشعير، وأبوك كان يلبس الكراديس الغليظة ويأكل الطعام الجشب، وأنت تجلس على هذه المرققات وتلبس الملابس الناعمة؟ فاستوى الإمام جالساً، ثم قال: «أما علمت أن يوسف (عليه السلام) نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الدياج مزرورة بالذهب، ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا إلى قسطه. وإنما يحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرم طعاماً ولا شرباً من حلال وإنما حرم الحرام قل أو كثر، وقد قال الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾» (١)، (٢).

فالنبي (صلى الله عليه وآله) والإمام (عليه السلام) كانا في وقت عسر.

وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى أثر نعمته عليه. يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «إن الله جميل يحب الجمال، البس وتجمل وليكن ذلك من حلال». وإذا كان العدل هو المطلب الأول من الإمام، فالظالم لا يكون إماماً؛ لأنه

لا عدل عنده ولا صلاح فيه ولا تقوى. ومعنى ذلك أن الإمامة لا تصل إلى الظالم شرعاً، وإلاّ فهي الواقع قد وصل الظالمون إليها وسيطروا على الحكم، وقد وصل الأمر بالوليد - كما يذكر الدميري في (حياة الحيوان) - أنه فجر يوماً بجارية، ثم أخرجها وهي نجسة متنكرة بلبس العمامة، وأنزلها الفجر لتصلي بالمسلمين. ومع ذلك يسميه التأريخ: الخليفة الوليد ويثني عليه ويحترمه؛ لأنه أصلح مسجداً بأموال نهبها من الناس.

ونذكر هنا التفاتة جميلة لقتادة نقلها عنه القرطبي في تفسيره وهي أنه قال: «وصل الظالمون إلى الحكم وعاشوا وأكلوا وتمتعوا»^(١).

ولا زال البعض يتباكى على الخلافة العثمانية، ويعتبرها إسلامية، مع أن خلفاءهم لا يختلفون عمّن سبقهم من العباسيين والترك والأمويين وغيرهم، هؤلاء الذين نهبوا المسلمين واستعبدوهم^(٢)، وحولوا قصورهم إلى بؤر للانحطاط والرذيلة، والذين وصل سفك الدماء في أيامهم إلى ما لا يمكن للإنسان أن يتصوره.

فالإمامة شرعاً لا تصل إلى الظالم، أما مقاييس الدنيا وواقعها فشيء آخر، فقد تجد من لا يعقل أي طرفيه أطول يسبح بالأموال، وقد تجد من ملئ علماً لكنه لا طمع له في الرغيف. وقد رأيت أحد العلماء الأزهريين، وهو الشيخ علي الخفيف رحمته الله - وكان أحد الأساتذة الذين أشرفوا على رسالتي في جامعة بغداد - رأيته لما مات لم يحضر جنازته سوى عدد قليل لا يتجاوز المئتين والخمسين، ومات أحد المغنيين - وكنت آنذاك في القاهرة - فخرج وراءه أكثر من مليون. هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٨.

(٢) قال ابن أبي الحديد: وكانت بنو أمية تختتم في أعناق المسلمين كما توسم الخيل؛ علامة لاستعبادهم. شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

هي مقاييس الدنيا التي لا مقاييس فيها لولا الشريعة.

القرطبي يدعم خروج الحسين عليه السلام على يزيد

فالإمامة في الواقع كما ينقل القرطبي في تفسيره عن قتادة وصلت إلى الظالم، وذلك بالخدعة والغش والحيلة^(١) والخروج على الإمام الحق. ثم قال القرطبي بعد ذكر قول قتادة المار: «ولذا خرج الحسين عليه السلام وعبدالله بن الزبير على يزيد لأنه فاسق»^(٢).

وجزى الله هذا المفسر خيراً على هذا، فهو على الأقل لم يقل: قتل الإمام الحسين بسيف جدّه كما يقول المفسر ابن عربي^(٣).

لكن القرطبي مع إيمانه بكونه فاسقاً يعود فيقول: «لكن الأولى كان عدم الخروج؛ لأن في الخروج سفك الدم واستبدال الأمن بالخوف، فيكون الصبر على الظلم أفضل»^(٤).

ويخالف المعتزلة والخوارج في هذا الرأي، وقد أخذ المعتزلة هذا الرأي من الإمامية؛ لأن المعتزلة متأخرون عن الإمامية، فالرأي في وجوب الخروج على الظالم هو للإمامية لا للمعتزلة. وهذه الغلطة تتكرر عند الكتاب دائماً فيتصورون أن الإمامية أخذوا آراءهم من المعتزلة، لكن الحال بالعكس فالمعتزلة متأخرون عقوداً من السنين عن الإمامية.

(١) قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنّه يغدر ويغفر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس». نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

(٣) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ - ٢٦٦، ٥: ٣١٣. وقد مرّ في ج ٢ ص ٦٣، من كتابنا هذا، وص ٢١ - ٢٢ من هذا الجزء.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٠٩.

الحسين عليه السلام يبرر تعجله الخروج

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى هذا الموقف لما خرج يوم التروية من مكة المكرمة، فقال له الفرزدق: القلوب معك والسيوف عليك. قال عليه السلام: «صدق والله أخو تميم». ثم قال: «إن نزل القضاء بما نحبّ فله الحمد على آلائه ونعمائه، وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يبعد من كان الحق سيرته والتقوى سريره». فقال له الفرزدق: ما أعجلك على الخروج في هذا الوقت؟ قال: «لو لم أعجل لأخذت»^(١). فكانه عليه السلام يقول له: إن بني أمية طلبوا دمي، والله أمرني بحفظ النفس حتى أصل المكان الذي أرى فيه أن التضحية واجبة. وقد كان ذلك، فأقدم على التضحية. وكان عليه السلام يعرف ذلك سلفاً، فقد قال: «والله لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العُلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام»^(٢) المرأة»^(٣).

وأراد الإمام الحسين عليه السلام تجسيد الموقف أمامهم لما خطبهم في اليوم العاشر فقال: «تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، أحين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، واحتطبتكم علينا ناراً اقتدحناها لعدونا وعدوكم، فكنتم بذلك ألباً لأعدائكم على أوليائكم من غير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم؟ فهلا - لكم الويلات - تركتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لما يستحصف! ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم عليها

(١) مشير الأحزان: ٢٨. وفيها قال أيضاً: «إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها، فما أحبّ أن أكون ذلك الكبش». شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٦٦.

(٢) فرام المرأة: خرقة الحيض. لسان العرب ١٢: ٤٥١ - فرم.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ٤٠١، لوايع الأشجان: ٧٢.

كتهافت الفراش، فسحقاً لكم يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب، أعنا تتخاذلون، وهؤلاء تنصرون؟ أجل والله غدر قديم وشجيت عليه أصولكم، وتآزرت عليه فروعكم، فكنتم بذلك أخبث ثمرة؛ شجئى للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا مأخذ الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت ونفوس أبية وأنوف حمية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام». ثم رمق السماء بطرفه وقال: «اللهم إني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وخذلان الناصر». وتمثل بأبيات فروة بن مسيك المرادي:

«فإن نهزم فهزائمون قدماً	وان نهزم فغير مهزمين
وما إن طسبنا جبين ولكن	منايانا ودولة أخيرينا
إذا ما الموت رقع عن أناس	خليلة أنساخ بإخربنا
فأفنى ذلكم سروات قومي	كما أفنى القرون الأولينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا	سيلقى الشامتون كما لقينا» (١)

ثم رجع، حتى إذا كان آخر الأمر تلفت في المخيم حوله فوجده خالياً، وخرجت إليه طفلة من أبناء عبد الرحمن بن عقيل فتمسكت بطرف ثوبه، وقالت: إن أبي وعمي بگرا إلى الماء وقد وعداني أن يأتياني به وإلى الآن لم يرجعا، وإن العطش فتت قلبي. قال عليه السلام: «بنية وأين الماء وقد حيل بيننا وبينه؟» قالت: عم إن كنت لا تقدر على جلب الماء خذني إلى القوم واعرضني عليهم لعلهم يرقون لحالي. قال: «نعم، ولكن إذا أخذتك من يردك؟» ثم صاح لأخته زينب عليها السلام:

«خذيها لقد أحرقت قلبي».

أقول له: يا أبا الشهداء، صبية واحدة أخذت منك كلّ هذا الأثر، فما حالك لو رأيت أختك ظهيرة عاشوراء، يوم خرجت وقد تعلّق بثوبها أكثر من عشرين صبيّاً وصبية يسألونها عن آبائهم وإخوانهم وأعمامهم، وهي تجول ما بين اليتامى؟

كم حرة لما أحاط بها العدى برزت تُخفّ العذوّ وهي وقور^(١)



من عيون المواعظ

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام قاله لرجل سأله أن يعظه:

«لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل،

ويرجئ التوبة بسطول الأمل، يقول في

الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل

الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع

منها لم يقنع. يعجز عن شكر ما أوتي، ويتنفى الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي،

ويأمر بما لا يأتي. يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم...

إن عرضت له شهوة أسلف المعصية وسوّف التوبة، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط

الملة»^(١).

المباحث العامة للموضوع

مغالطات في حياة الإنسان

في هذه المقاطع دراسة دقيقة لخلجات الإنسان، فالإنسان يعيش متناقضات يشعر بها، ولكن حبه لنفسه يغطي عليها، ولا يتركه يندفع لإصلاحها. فنحن نلاحظ أن الإنسان إذا رأى خطأ من غيره يبادر إلى نقده، لكنه لا ينقد نفسه مع علمه أنه

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٥٠. قال ابن أبي الحديد: انفرج عن شرائط الملة: فعل ما يقتضي

الخروج عن الدين. شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥٩.

ارتكب الخطأ. ومن هذه المتناقضات أو المغالطات:

المبحث الأول: أنه يرجو الآخرة بغير عمل

يقول أمير المؤمنين: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل»، ووجه المغالطة في الموضوع أن من البديهيّات أن الإنسان في حياته لا يستطيع أخذ شيء أو إعطاءه من دون ثمن؛ مادياً كان أو معنوياً، لكنه يريد من الله تعالى أن يمنحه الجنة دون عمل أو مقابل. فعندما يطلب أحدنا من الله أن يمنحه الجنة والرضوان، فهل قدّم مقابل ذلك شيئاً أو لا؟ فكيف يحصل الإنسان من الله على شيء لم يدفع ثمنه؟

أقسام النعمة

قد يقول قائل: إن الله كريم، والكريم يعطي بدون عوض. وهذا الكلام صحيح، فالله يعطي بلا عوض لكنه طلب منا بعض الأشياء بعوض. فالنعم يقسمها الفلاسفة الإلهيون إلى ثلاثة أقسام: نعمة الابتداء، ونعمة الجزاء، ونعمة التفضل.

أما نعمة الابتداء فنحو نعمة الوجود، فالإنسان ليس له سابق فضل على الله، فأراد الله أن يكافئه فأوجده من العدم. وقد كان من الممكن لنا جميعاً أن نبقي في العدم الأزلي لو لا النعمة التي ابتدأنا الله بها بالخلق والإيجاد.

وأما نعمة العوض والجزاء فهي التي بيّنها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١). والهدف من نعمة العوض هو حفظ المقاييس؛ ذلك أنني، إذا أخذت من الله بلا عوض فقد يأتي من يقول: أنا أيضاً أحقّ لي أن آخذ في الدنيا بلا عوض، وهنا تختلّ المقاييس. فالله يريد أن يعلمنا أن العمل له جزاء، وأن الجزاء لا بدّ له من عمل. وهذه النعمة يتساوى فيها الجميع.

وقد يقول قائل: إذا كان ذلك جزاء، فكيف يصحّ أن نسميه نعمة؟

والجواب أن فائدة العمل تعود علينا نحن، ولا تعود على الله، فالصدقة مثلاً تعود بالنفع على النوع الإنساني كله ولا يلحق الله منها شيئاً.

أما النوع الثالث من أنواع النعم فهو نعمة التفضل، وهي كل ما زاد من الجزاء على جنس العمل. فنحن نعرف أن كل عمل يستحق جزاء معيناً، لكن الله تعالى لا يعطي مقابل العمل مثلاً بمثل، وإنما يعطي بتفضل. انظر لو أن الله ابتلى إنساناً بفقد عزيز - لا سمح الله - فما هو الجزاء المتصور عن هذه المصيبة؟ إن كان ذلك بلا جزاء فهو ظلم، وإن كان بقدر المصيبة فهو عبث، والله منزّه عن العبث. فلا بد إذن من كون الجزاء أفضل؛ فتكون هذه النعمة نعمة تفضل.

فالمغالطة التي يسلط أمير المؤمنين عليه السلام الضوء عليها في سلوك الإنسان أنه يرجو الآخرة بلا عمل، مع علمه أن كل أعماله اليومية التي يقوم بها لا يمكن أن تكون بلا عوض.

المبحث الثاني: أنه طویل الأمل مع علمه بقضاء الله

ثم قال عليه السلام: «ويرجى التوبة بطول الأمل»، والإرجاء هو التأخير، فهو يعرف أن عنده أعمالاً كثيرة، وذنباً عديدة لكنه يؤخر التوبة اعتماداً على طول الأمل. وهذا العمل قد يكون سليماً إذا كان عند الإنسان وثوق بأنه سوف يعيش. لكن هل هناك من هو واثق ومتيقن بأنه يعيش ولو لدقائق؟ إن النفس قد يصعد ثم لا ينزل. فإذا كان الإنسان لا يملك شيئاً من الأمل فلماذا يؤخر التوبة إذن؟ يقول أبو العتاهية:

يا أيُّ هذا الذي قد غره الأمل	ودون ما يأمل التنفيس والأجل
ألا ترى إنما الدنيا وساكنها	كم نزل الركب حلّوا ثم ارتحلوا
حتّوفها رصّد وعيشها نكد	وصسفوها كدر وملكها دول

تظل تفرع بالروعات ساكنها فلا يطيّب له لين ولا جذل
النفس هاربة والموت يتبعها وكل عثرة برجل عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه والقبر وارث ما يسعى له الرجل^(١)

وقد يرد في ذهنك سؤال: لماذا يفتح الشارع الإسلامي الباب في معاملاته التجارية لعقود طويلة الأجل، كعقد الإجارة لعشر سنين، أو مداينات لوقت طويل، أو غير ذلك؟

والجواب هو أن الله تعالى سمح بذلك لكي ينتظم الكون، فلو نظّم الإنسان كل شؤنه على أساس أنه سيموت بعد دقيقة، فالدنيا لن تستقيم. فالكون يبقى مستمراً والمجتمع يبقى وإن مات الأفراد، والله تعالى استخلف الإنسان في الدنيا لكي يعمر الحياة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فالإنسان إن كان بلا أمل فإنه يعيش في جحيم، فالأمل هو النافذة التي يخرج منها الكبت النفسي، ولولاها لمات الإنسان كمدأ. فالفقير يأمل أن يكون غنياً، والمظلوم يأمل أن يكون منتصراً وهكذا، يقول الطغرائي:

أَغْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقِبُهَا مَا أَضِيقُ الْعِيشَ لَوْلَا فُسْحَةُ الْأَمَلِ^(٢)

ولكن هذا الأمل ينبغي أن يبقى في حدود المعقول، فإن خرج عن تلك الحدود تحول إلى كارثة ومصيبة. فهناك من تراه في تصرّفاتة كلّها وكأن الآخرة لم تمرّ بحساباته أبداً، فتري الإنسان مسروراً في الحياة ولا يدري ما تدّخر له الأقدار، وإذا كان كذلك فعليه أن يعرف أن للأمل حدوداً معقولة.

(١) أمثال الحديث (ابن خلّاد): ٥٨، ونقل الأبيات الثلاثة الأول، تاريخ مدينة دمشق ٣٢: ٣٢١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٩: ٤٥٤، الكنى والألقاب ٢: ٤٥٠.

المبحث الثالث: أنه يقول ما لا يفعل

ثم قال عليه السلام: «يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين»، وهذه هي المغالطة الثالثة في سلوك الإنسان، فإنك إن استمعت إلى قوله ظننته واعياً زاهداً، لكنك لو لاحظت سلوكه وجدته يصارع صراع المستميت على الدنيا، وهذه هي الازدواجية بعينها. صحيح أن الإنسان يحتاج الكثير في الدنيا، ولكن إذا خرج الأمر عن حدّ المعقول أصبح كارثة. مرّ أحدهم يوماً على بيت الوزير ابن مقلة - وكان ابن مقلة لا يتورّع عن أخذ أموال الناس - فكتب على باب البيت:

قل لابن مقلة مهلاً لا تكن غجلاً فإنما أنت في أضغاث أحلام
تبني بأنقاض دور الناس مجتهداً داراً ستُنقَضُ ختماً بعد أيام^(١)

وجيء يوماً بأُم جعفر بن يحيى فأدخلت على الرشيد، وذلك بعد نكبة البرامكة، فقال لها الرشيد: ألم أهدم دوركم؟ ألم أيتّم أولادكم؟ ألم آخذ أموالكم؟ فقالت له: أما الدار التي هدمتها فستهدم دارك. وأما المال الذي أخذته فستؤخذ أموالك. وأما الأمهات اللواتي أثكلتهن بأبنائهن فستشكل بولدك^(٢). وقد حصل للرشيد ذلك فعلاً، فقد جاء المأمون ابنه فهدم دورَه، وأخذت أمواله كلها، ولم يحصل في المكان الذي كان فيه حتى على قبر، فدفن في خراسان. يقول دعبل بن علي الخزاعي:

أربع بطوس على قبر الزكي إذا ما كنت تُربّع من دين على وطير
قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم هذا من العير
ما ينفع الرّجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرّجس من ضرر

(١) البيتان لابن بسّام. شرح نهج البلاغة ١٩: ٧٢، سير أعلام النبلاء ١٥: ٢٢٨.

(٢) لم نعر عليه، وقد نقل حديث دخولها عليه ابن قتيبة. انظر الإمامة والسياسة ٢: ١٦٩.

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت له يداه فخذ ما شئت أو قدّر^(١)

أما ابنه الأمين وهو أعز ولده فقد قتله أخوه المأمون، وحصل كل ما وعدته به أم جعفر بن يحيى البرمكي.

وفي الواقع إن الكثير من الظلمة يعرفون كل هذا، ويعرفون أنهم سوف يموتون وينتهي كل شيء، لكن أنفسهم لا تساوي شيئاً عندهم لأنهم وضعاء، فلا يهمهم أن يحرقوا الدنيا، ولو عرفوا أنهم ذاهبون عنها. ولو شعر الإنسان بقيمته لما اعتدى على الناس، ولا يعتدي إلا من يشعر بأنه منحط ووضيع، والله تعالى لا يترك المعتدي، وهو له بالمرصاد.

فالإمام إذن يسلط الضوء على هؤلاء الذين يقولون في الدنيا بقول الزاهدين ويعملون فيها بعمل الراغبين. وقد نعى القرآن على هؤلاء هذا السلوك المزدوج فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٢). ولذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام يصعد المنبر فيقول: «إني لأرفع نفسي عن أن أنهي الناس عما لست عنه أنتهي، أو أمرهم بما لا أسبقهم إليه بعملي، أو أرضي منهم بما لا يرضي ربي»^(٣).

والباحث عندما يمرّ بعلي عليه السلام يجده منبعاً ثراً ضخماً من المواعظ، ولا يجد أنه ناقض كل هذه المواعظ بسلوكه العملي أبداً. فهو عليه السلام أمر الناس بالعدل وكان هو سيد العادلين، وأمر الناس بالجود وكان على رأس المعطين، وأمرهم بالاستقامة ولم ينحرف هو عن الاستقامة. ولم يتهمه حتى أعداؤه بالانحراف. فلم يكن مزدوجاً في سلوكه وأعماله. وكذلك سيرة أهل البيت عليهم السلام من ولده، فقد كانوا لا

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨١، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) الصف: ٢ - ٣. (٣) عيون المواعظ والحكم: ١٧٠.

يقولون شيئاً حتى يطبقوه على أنفسهم أولاً. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم»^(١). فمن الناس من يعلمهم بلسانه، ولكن لا يبدو على سيرته الهدى.

كان الهذلي أديباً كبيراً ونديماً من ندمان المنصور، وكان عنده يوماً في المدينة المنورة فقال له المنصور: لقد طال عهدي بالمدينة، فهل لك أن نخرج نتجول فيها؟ قال: بلى، نخرج. فخرجنا إلى أن مرّا على دار مبنية بناء ضخماً لفتت نظر المنصور، فالتفت إليه الهذلي قائلاً: أصلح الله الخليفة، تعرف لمن هذه الدار؟ قال: لا، قال: هذه لعاتكة التي يقول فيها الشاعر:

يا دارَ عاتكة التي أنقرزلُ خوف العدى وبها الفؤاد مؤكلُ
إنني لأمنحك الصدودَ وإنني فسمّا إليك مع الصدود لأمنلُ

فاستحسن المنصور البيتين، ثم رجعا. فلما كان الليل راح المنصور يفكر بهذين البيتين، فالهذلي من ندماء الملوك، وهو رجل على علم وذكاء كبيرين؛ لذا راح يسأل نفسه عن سبب استشهاده بالبيتين، فبعث وراء جمع من الأدباء، وسأل عمن يحفظ هذه القصيدة اللامية، فوجد من يحفظها، فقرأها له حتى وصل إلى هذا البيت:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذبذب اللسان يقول ما لا يفعل

فتذكر المنصور أنه وعد الهذلي بدار وجارية وأموال، فأعطاه ما وعده به^(٢). وموضع الشاهد هنا أن الإنسان ينبغي أن يقول الشيء ثم يفعله. ومن العيب أن

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٤٠، وذكر أن القصة مع عمر بن عبد العزيز.

يَأْمُرُ النَّاسَ بِشَيْءٍ لَا يَطْبِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّمَا تُؤْمِنُ بِالنَّاسِ بِالْإِبْرَةِ وَتَنْفُسُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١).

المبحث الرابع: أنه يُقبل على الدنيا ويطلب خلود الذكر

ثم قال رحمه الله: «إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ، وَإِنْ مَنَعَ عَنْهَا لَمْ يَقْنَعْ»، فالإنسان مهما أُعْطِيَ مِنْهَا لَا يَشْبَعُ، فَهُوَ يَدَّعِي مِثْلًا أَنَّهُ يَسْعَى لِتَحْقِيقِ الْحَدِّ الْأَدْنَى مِنَ الْمَعِيشَةِ، أَوْ يُؤْمِنُ مُسْتَقْبَلَهُ، لَكِنَّهُ يُؤْمِنُ مُسْتَقْبَلَهُ وَمُسْتَقْبَلِ أَجْيَالٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَيَلْاحِظُ الْفَقِيرَ عَلَى رَغْبِهِ وَلَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ.

يقول الاقتصاديون: إِنْ الرِّغْبَةُ تَدْخُلُ فِي تَحْدِيدِ قِيَمَةِ السِّلْعَةِ، فَلَوْ كُنْتَ مِثْلًا لَا تَمْلِكُ سَجَادَةً فِي بَيْتِكَ وَتَرْغَبُ فِي شِرَائِهَا، فَإِنَّكَ سَتَشْتَرِيهَا، لَكِنَّكَ بَعْدَ فِتْرَةٍ تَحْسُ أَنْكَ أَشْبَعْتَ هَذِهِ الرِّغْبَةَ، فَعِنْدَمَا تَشْتَرِي السَّجَادَةَ الثَّانِيَةَ تَقِلُّ الرِّغْبَةُ، وَفِي السَّجَادَةِ الثَّلَاثَةِ تَقِلُّ أَكْثَرَ وَهَكَذَا إِلَى أَنْ تَنْعَدِمَ الرِّغْبَةُ تَقْرِيْبًا.

فَيَنْبَغِي - بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ - أَنْ تَقِلَّ الرِّغْبَةُ عِنْدَ الْإِنْسَانِ إِذَا حَصَلَ عَلَى الْأَمْوَالِ الزَّائِدَةِ، لَكِنَّا نَلَاظُ أَنَّ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ عِنْدَهُ، فَلَوْ كَانَتْ عِنْدَهُ رَغْبَةٌ فِي تَحْصِيلِ الْمِئَةِ الْأُولَى فَإِنَّ هَذِهِ الرِّغْبَةَ تَصْعَدُ إِلَى الْعِشْرِينَ مِثْلًا فِي تَحْصِيلِ الْمِئَةِ الثَّانِيَةِ. وَكَلَّمَا زَادَ طَلِبًا لِلدُّنْيَا زَادَ تَمَسُّكًا بِهَا^(٢)، مَعَ أَنَّ حَقِيقَةَ حَالِهِ أَنَّهُ أَشْبَهَ بِدَوْدَةَ الْقَرِ الَّذِي تَخْرُجُ الْحَرِيرُ مِنْ بَطْنِهَا وَتَتَصَوَّرُ أَنَّهَا سَوْفَ تَجُوعُ، فَتَلْفُ الْحَرِيرُ عَلَى رِجْلِهَا لِيَكُونَ قَرِيبًا مِنْهَا فَتَأْكُلُ مِنْهُ مَتَى جَاعَتْ، وَتَبْقَى تَلْفُهُ حَتَّى تَسْجُنَ نَفْسَهَا بِدَاخِلِهِ ثُمَّ تَقْتُلُ وَتَعْطِي مَا تَلْفُهُ لِغَيْرِهَا. وَالْإِنْسَانُ هَكَذَا يَكْدُ وَيَكْدَحُ بِدَافِعِ الْإِزْدِيَادِ ثُمَّ يَمُوتُ فَيُطِيلُ النَّظَرَ إِلَى مَا تَرَكَه، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ.

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَوْ أَنَّ لِبْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مَالٍ لَا يَتَنَفَّى وَادِيًّا ثَلَاثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ. مُسْنَدُ أَحْمَدَ ٣: ١٩٢.

وهذه حقيقة مرّة، ولو خرج الإنسان إلى المقبرة وسأل أهله: هل حصلت من الدنيا على شيء؟ فسوف يعرف الجواب هناك. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج إلى الجبّانة - وهي هذه المقبرة القائمة حالياً في ظاهر الكوفة، وقد كانت قائمة قبل زمان أمير المؤمنين عليه السلام بمئات السنين؛ لأن هذه المنطقة قديمة وكانت مأهولة - فيطيل النظر ويقول: «يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أمّا الدور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأمّا الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»^(١).

ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ما أقلّ اعتبارنا بالزمان	وأشدّ اغترارنا بالأمان
كلّ يسوم رزية بفلان	أو وقسوع من الردى بفلان
كسّم ثرائي أضلّ نفساً وأهوا	فكأنّي وثقت بالوجدان
قل لهذي الهوامل استوقفي السب	سر أو استنشدي عن الأعطان ^(٢)
واستقيمي قد ضمك اللقم النه	سج وغنى وراءك الحاديان ^(٣)
قد مررنا على الديار خشوعاً	ونظرنّا البنا فأين الباني
وعرفنا الرُبوع حين مررنا	فذكرنا الأوطار بالأوطان ^(٤)

يُذكر أن قائد العباسيين لاحق مروان بن محمد إلى بوسيرى في مصر فقتله وقعد على فراشه، وطلب أن يؤتى بابتته الكبرى، فجاءت مختنقة بعبرتها، ثم قالت

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.

(٢) الهوامل: جمع هامل، وهو الهاطل، أو العين التي تسكب ماءها. الصحاح ٥: ١٨٥٤ - همل.

(٣) اللقم: وسط الطريق. الصحاح ٥: ٢٠٣١ - لقم.

(٤) الأبيات للرضي عليه السلام. شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٢ - ٢٦٣.

له: إن دهرأ أنزل مروان عن عرشه وأجلسك عليه لدهر سوء^(١).
 إن الدور الوحيدة التي لا تُسكن بعدنا هي تلك القلوب التي يملؤها الإنسان
 حباً وعطاء، وتلك الأيدي التي يحسن إليها، ودونك أهل البيت عليه السلام الذين عمروا
 البيوت في قلوب الناس، فليست عظمتهم في هذا الذهب الذي نراه على قببهم،
 وإنما فيما عمروه في الدنيا، وهو أن يكونوا فكرة في رؤوس الأحرار، فقد كان
 الذي يريده الإمام الحسين عليه السلام هو أن يحل قلوب الناس، يقول أحد الأدباء:

أيا عربلا يا هدير الجراح	وزهو الدّم العلوي الأبى
ويا ألقاً في ثنايا الخلود	يمرّ الخلود مدى الأرحب
ويا صرخ مجد بناء الحسين	وأبدع في رصفه المّعجب
يُشَيِّدُ من جبهة أدميت	وخدّ بعفر الثرى مُترِب

هذا هو العرش الذي بناه الإمام الحسين عليه السلام من دماء الأحرار وفي قلوب
 الأحرار. فليست قيمة الإمام الحسين أو علي عليه السلام في القبة، ولو كانت القيمة في
 القبة لكان الإمام الصادق عليه السلام وغيره من أئمة البقيع عليه السلام لا قيمة لهم؛ لأنهم ليس على
 قبورهم سوى التراب، لكن الواقع خلاف هذا.

المبحث الخامس: أنه يحاسب غيره ولا يحاسب نفسه

ثم قال عليه السلام: «ينهى ولا ينتهى، ويأمر بما لا يأتي»، فهو مثلاً يقيم الحدّ على
 الناس ولا يقيمه على نفسه، فكان الحكام يقيمون الحدّ على شارب الخمرة، ولكن
 إذا جنّهم الليل ثملوا منها حتى الصباح. جيء للرشيد يوماً بكتاب وشاية، قيل له
 فيه: إن الفضل بن يحيى يجمع الندمان في الليل ويشرب الخمرة. فاستدعى الرشيد

(١) شرح نهج البلاغة ٧: ١٣٠، ١٨: ٣٦٥.

أباه يحيى البرمكي وحذره وأطلعه على الكتاب، فقال يحيى: أصلح الله الخليفة، أنا سوف أصلحه. فكتب لابنه:

انصب نهراً في طلاب العلا واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مقبلاً واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فبادر الليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب

ولم يقم الحد على هذا؛ لأنه من أعوان الخليفة، ولو كان غيره لعوقب أشد العقوبة.

المبحث السادس: أنه يحب الخير ولا يفعله ويكره الشر وهو يقربه

ثم قال عليه السلام: «يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويكره المذنبين وهو أحدهم»، فهو يحب الصالحين، ويتبرك بقبورهم، ويزور قبر علي عليه السلام والنبي صلى الله عليه وآله، ويعرف أن النبي صلى الله عليه وآله كان مثال الرحمة لكنه لا يتأسى بأخلاقه، فلا يفهم من الزيارة إلا النفع المادي وهو الخلاص من النار ودخول الجنة. وهذا هو المعنى الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنني وجدت أهلاً للعبادة فعبدتك»^(١).

وقد وجدت من ينتقد كلمة علي عليه السلام هذه وهو لا يعرف معناها؛ لأنه لا يعرف علياً عليه السلام، فليس معنى ذلك أن علياً عليه السلام لم يكن يخاف من النار، فقد كان إذا جنّ عليه الليل يرفع يديه حتى الصباح حيال رأسه وهو يقول: «آه آه من نار نزاعة للشوى، آه آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه آه من غمرة من غمرات لظى»^(٢). لكنه يريد أن يقول: إن الله أكبر من أن يُعبد للخوف والرجاء، وإنما يجب أن يعبد؛ لأنه

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨. (٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩.

يستحقّ العبادة، وهذه عبادة الأحرار^(١). فأنت عندما تقف في الصلاة وتقول في النية: أصلي ليعطيني الله الجنة أو يمنعني من النار، فصلاتك باطلة، بل يشترط أن تقول: قربة إلى الله، فهل معنى ذلك أنك لا تخشى من النار أو لا ترجو الجنة؟ فالعبادة هي ما كانت بدافع القربة إلى الله، وابتغاء وجهه الكريم، وهذا هو الذي يريدّه أمير المؤمنين عليه السلام من حديثه الآنف، وهو عينه ما صنعه الإمام الحسين عليه السلام يوم العاشر من المحرم عندما وقف يقدّم القرابين واحداً تلو الآخر، بعد أن قال لأصحابه: «هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً... الطريق غير خطير، والليل سثير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. إن القوم يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»^(٢). حتى إذا ما أبوا ذلك راح يقدّم الأضاحي، وكان يمرّ على تلك الأضاحي فيقول: «اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى، لك العتبي يا رب، حسبي رضاك».

وبما شئت من هواك اختبرني فاختباري ما كان فيه رضاك
يحشر العاشقون تحت لوائي وجميع الملاح تحت لواءك^(٣)

وجعل آخر الضحايا نفسه الكريمة، فسقط إلى الأرض، يقول فيه السيد حيدر الحلبي:

ولما قضى للعلا حقها وبالسيف شيد بُنيانها
ترجّل للموت عن سابق له أخلت الخيل ميدانها

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار. نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧.

(٢) انظر: الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ - ٢٦٥.

(٣) البيتان لابن الفارض، قصص الأنبياء (الجزائري): ٣٩٦، ونقل البيت الأول فقط.

تريب المَحْيَا تظنُّ السَّمَا بأنَّ على الأرض كَيَوانَهَا
غريباً أرى يا غريبَ الدَّيار تسود خديه كَثبانها^(١)

نزلت أخته إليه يوم العاشر، فرأت ذلك الخدَّ التريب على الرضاء، فصاحت:
«يا رسول الله، هذا حسينك بالعراء محزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة
والردا! بأبي من هو لا جريح فيداوى، ولا غائب فيرتجى، بأبي من شيبته
مخضوبة بالدماء».

اتراني أعير وجهي صوناً وعلى وجهه تجولُ الخيولُ



نظرية الدولة في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا
قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى آيات الله

الآيات المقصودة في هذه الآية هي كل ما في الوجود عدا الله تعالى، فكل ما في الوجود هو آية من آيات الله، إما من الآيات الدالة على وجوده، أو من الآيات الدالة على كماله، أو من الآيات المنزهة له عن النقص. فليس من شيء في الوجود إلا وهو آية من آيات الله؛ لأن كل شيء هو أثر، وكل أثر لا بد له من مؤثر. وهذا الأثر عندما تتفحصه وتحلله تجده غاية في الكمال والتنظيم، والشيء المنظم يدل على منظم.

ويقسم الفلاسفة الموجودات إلى قسمين: واجب الوجود وممكن الوجود، والممكن الوجود هو الذي يتساوى فيه طرفا العدم والوجود، فالتوب الذي تلبسه هو ممكن الوجود؛ لأنه ممكن أن يكون وممكن ألا يكون؛ فيتساوى فيه طرفا

العدم والوجود. أما الوجود الواجب فهو ما لا يمكن أن يكون في أية لحظة من اللحظات غير موجود، وليس هناك شيء واجب الوجود إلا الله عز وجل، وكل ما عداه فهو ممكن.

فكل ما في الكون هو آية من آيات الله، وهي إما أن تدلّ على وجوده دلالة الأثر على المؤثر، أو أن تكون غاية في الدقة والتنظيم فتدلّ على كماله. وإليك هذا المثل البسيط: إن الحرارة القادمة من الشمس تصل إلى الأرض بنسبة واحد إلى بليونين، وهذه قائمة على معادلات دقيقة جداً، فإن زادت على هذه النسبة أو نقصت تعذّرت الحياة على الكرة الأرضية. وهذا يدل على كمال الله؛ لأنه غاية في الدقة والاتقان.

وهناك من آيات الله ما يدلّ على تنزيهه عن النقص، فليس في خلقه من تفاوت، وليس هناك من شيء خالٍ من الحكمة أبداً. فإن كانت أفهامنا لا تصل إلى الحكمة أحياناً فهذا لنقص في عقولنا، لا لأن هناك شيئاً غير قائم على حكمة. يروى أن الحجاج كان يصلي يوماً، فأقبلت خنفساء تدنو إلى محرابه، فأزاحها بإصبعه فرجعت، فأبعدها مرة أخرى فعادت، وهكذا. فلما فرغ من الصلاة سأل: لم خلق الله هذه الخنافس؟ فلم يجبه أحد. وبعد أيام ابتلي بخراج فقال له الأطباء: دواء ذلك أن تأخذ الحشو من جوف الخنفساء فتطليه بها. فطلاه بذلك فبرأ، فقال: الآن أدركت لم خلق الله الخنافس^(١).

وقد شن الإنسان حملة شعواء في الكرة الأرضية على بعض الحيوانات التي اعتبرها ضارّة، ولكن لما قلّ عددها ظهرت حيوانات مضرّة أكثر، وحدث اختلال في البيئة. وقد كانت وظيفة تلك الحيوانات هي القضاء على الحيوانات التي

(١) قريب منها ما في شرح مئة كلمة (ابن ميثم): ٢٤١ - ٢٤٢، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٧٩.

ظهرت فيما بعد. فالذباب مثلاً إذا قُضي عليه نهائياً فإنه يؤدي إلى انتشار نوع من الجراثيم كان يأكلها الذباب.

المبحث الثاني: الآيات الواجب معرفتها

تقول الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾، وهنا يسأل سائل: وهل يستطيع الإنسان المحدود أن يعرف كل آيات الله كي يؤمن بها؟ فيقال عن الدماغ مثلاً: إنه يستطيع أن يستوعب أربعين مليون معلومة في الحد الأقصى، وليس هذا قانوناً، إنما هو شيء دلّ عليه الاستقراء، فكيف يتمكن من استيعاب آيات الله التي لا حدود لها؟ الجواب: هو أن ذلك بحسب استطاعة الإنسان وقابليته، فالله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها^(١).

والمعنيون بهذه الآية هم أهل الصُّفَّة الذين نزلت فيهم، وهم مجموعة من الصحابة الذين قدموا مع النبي ﷺ في بدء الدعوة إلى المدينة، فكان منهم التّواليا والفقراء والغرباء الذين ليس لهم بيوت، فكان أحدهم إذا رجع من الحرب وبه جرح يعيقه عن العمل، تفرغ إلى العبادة وطلب العلم في جانب من المسجد يدعى الصُّفَّة. وكانوا طبقة فقيرة مسحوقة لا تجد طعامها.

أما الإيمان بالآيات فليس فيه فرق بين العالم الكبير والإنسان العادي، غاية ما في الأمر أن كلاً منهما يعبر عنه بلغته الخاصة؛ فمثلاً سئل «كيلر» الأستاذ في جامعة سان فرانسيسكو والاختصاصي بقوانين الديناميكا الحرارية: كيف اعترفت بوجود إله؟ وما هو دليلك؟ قال: دليلي هو أنني رأيت أن هذا الكون الذي نعيش فيه تنتقل فيه الحرارة من الأجسام الحارة إلى الباردة، وبهذا الانتقال

(١) قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٣٣.

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.

وقال: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الأنعام: ١٥٢، الأعراف: ٤٢، المؤمنون: ٦٢.

تشتغل الخلايا الحية، وتحصل الزراعة، وتستمر الحياة على سطح الأرض. وسوف يأتي يوم تنفد فيه هذه الطاقة المنتقلة من الجسم الحار إلى الجسم البارد، وذلك أشبه بالشمس التي سيخبو نورها وتنتهي، فهي ذات عمر معين، فإذا نفدت الطاقة المنتقلة من الجسم الحار إلى البارد فليست هناك أجسام تعكس هذا الانتقال لتستمر الحياة في النبات والحيوان. ولذلك سوف تتوقف الحياة في الكون وتنتهي؛ والانتهاء دليل على الابتداء؛ لأن الأزلي لا ينتهي، ولو كانت الدنيا أزلية لنفدت حرارتها من زمن بعيد؛ لأن قوانين الديناميكا الحرارية تقول: إن كل جسم بارد يأخذ الحرارة من الجسم الحار، فلا بدّ من خالق ابتداء هذا الكون الذي سيصل إلى النهاية.

ويأتي أستاذ آخر من جامعة نورث ويستورن وهو «إيفين» الاختصاصي بوظائف الأعضاء، فيقول في استدلاله على الخالق: إني رأيت خياشيم السمك وقد ركبت بشكل تأخذ الأوكسجين من الماء؛ فعرفت أن الماء خُلق قبل السمك، ورأيت أن وجود الجناح عند الطير والرئة عند الإنسان دليل على أسبقية الهواء. فوجود الإنسان في هذه الحياة مدين لشروط سابقة ملائمة لو لم تخلق لما كان له أن يوجد.

ويمضي في استدلالاته فيقول: إن وجود حب الاستطلاع عند الإنسان دليل على أسبقية الوقائع، فلا يمكن أن يوجد حب الاستطلاع إلا بعد وجود الوقائع، ووجود الإيمان في داخل الإنسان بأن قوة ما عظيمة كونت هذا الكون دليل على وجود الله.

هذان نموذجان من العلماء الذين يستدلون على الله كل واحد منهم حسب اختصاصه، لكننا لو رجعنا إلى البدائيين وسألنا أحدهم: كيف تستدل على وجود الله؟ لأجاب في حدود مدركاته. مرّ النبي ﷺ يوماً ومعه الصحابة على عجز

بيدها مغزل، فسألها النبي ﷺ: «بم عرفت ربك؟». قالت: والله عرفت ربي بهذا الدولاب. قال ﷺ: «كيف؟». قالت: رأيته إن وضعت يدي عليه راح يدور، وإن رفعتها وقف عن الدوران، وإني أرى أن هذا الكون كله يدور في نظام، ففيه الشمس تطلع وتغرب في مواعيد محددة، وفيه مواسم الزرع في مواعيدها، والمد والجزر في مواعيده، فكيف تكون هذه دائرة لوحدها؟ فلا بد من مكون ومحرك لها.

ودليل هذه المرأة لا يختلف عن أدلة أولئك العلماء، سوى أن أولئك لديهم إحاطة علمية واسعة، أما المرأة فقدمت لنا صورة ساذجة. والدليلان نابعان من إحساس واحد، هو وجود المؤثر من وراء الأثر، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا...﴾ التي نزلت في أهل الصفة.

وقد كانت قريش تقول عن هؤلاء: إنهم أراذل ﴿الَّذِينَ هُمْ أَزَاذِلُنَا﴾^(١)، وإنهم اتبعوا النبي ﷺ لملء بطونهم، لا عن إيمان وتفكير. فأراد القرآن أن يهدم هذا الحاجز الموضوع أمام الإنسان الفقير، فقد كان الفقير قبل أن يبعث النبي ﷺ ليس له طمع حتى في الحياة، فلا يكرم، ولا يحترم، بل كانوا يرونه من سقط المتاع^(٢). ودرجة اعتبار الإنسان كانت بقدر ما يملك من الأموال، فلا يطمع الفقير أن يجلس في مكان محترم، أو أن يتزوج من بيت محترم.

وقد تستغرب أن بعض فقهاء المذاهب الإسلامية يقول: إن شهادة أهل الحرف لا تقبل^(٣). فهل تستطيع أن تسمي هذا فقهاً وحكماً نازلاً من السماء.. من الله الذي كرم الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٤)؟ فما ذنب الفقير الذي يمارس عملاً شريفاً

(١) هود: ٢٧.

(٢) سقط المتاع: رديئه وحقيقه. النهاية في غريب الحديث والأثر ٢: ٣٧٩ - سقط.

(٣) انظر حاشية رد المحتار ٦: ١٨ - ١٩. (٤) الإسراء: ٧٠.

أو صنعة ألا تقبل له شهادة؟ وكيف، وهو تعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْثَرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾^(١)؟ من المؤكد أن ذلك هو مزاج الفقيه وقد انعكس على الحكم الشرعي، وليس هو وحي السماء الذي لا يفرق بين الناس على أساس المهن أو الفقر والغنى.

دخل أعرابي يوماً على المأمون وكان في مجلس حاشد، فرأى المأمون أن في المجلس جماعة كثيرة من أهل البادية، فصعد المنبر وأراد أن يتبجح بفصاحته وبلاغته، وراح يتكلم بعربية دقيقة - وكان منطقاً فصيحاً، لكنه كان متكلفاً لذلك - فلما نزل رأى هذا الأعرابي أمامه بملابسه الرثة البالية فازدراه، ورأى أنه في مكان اعتبره ليس له، فأخذ النظر إليه، فقال له: أصلح الله الخليفة، أراك تحد النظر إليّ، أنا الذي أكلّمك لا عباة تي. فخجل المأمون، ثم قال له: ما تعدون الفصاحة والبلاغة عندكم؟ قال: الاختصار مع الإفادة. قال المأمون: ما تعدون الفهاهة والعي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم يرحمك الله. فأطرق المأمون^(٢) وعرف أن هذا الأعرابي على شيء من الأدب والفكر.

والشاهد هنا أن هذا الأعرابي يقول للمأمون: أنا الذي أكلّمك لا ملابسي، فقد تجد من هو مكلّل بالذهب لكنه حيوان، وقد تجد من يلبس الأطمار البالية لكنّ تحتها كنزاً مفعماً بالعلوم والخلق^(٣).

يقول أحد الأدباء: جاء النبي محمد ﷺ إلى الوجود فرفع الإنسانية من

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

(٣) قال الشاعر:

تري الرجل الفقير فتزدريه وفي أثوابه الأسد الهصور

ويعجبك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطيرير

ورويت بغير ذلك، انظر شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٢.

الحضيض إلى الأعلى، ثم جاءت المذاهب الاجتماعية فعادت بالإنسانية من الأعلى إلى الأسفل بدافع العرق والغنى والفقير، وبدافع المنزلة الاجتماعية. وهذا الرأي صحيح تماماً، فقد تحكمت المذاهب بالإنسان على أساس اللون والمنزلة الاجتماعية، والغنى والفقير إلى آخره. فهذا ملون فهو متخلف، وهذا أبيض، فهو تقدّمى، في حين أن الأبيض يعيش اليوم حياة أشبه بحياة الحيوان، فكيف يكون تقدّماً من يعتبر اللواط قانوناً شرعياً^(١)؟ ولكن كما يقال: أست في الماء وأنف في السماء^(٢). ولا تستطيع أن تتكلم؛ لأنهم يمتلكون التقدم المادي، والتقنية الحديثة. ولا زالت إلى الآن نظريات تربط التطور الحضاري بالجنس والدم، فالأبيض عندها هو المقدم في الحضارة والتطور. فانظر كيف لعبت المذاهب الاجتماعية بالإنسان، وانظر إلى رأس المال كيف يبني الصروح من جماجمهم. وهذه المذاهب التي تدّعي أنها جاءت لسعادة الإنسان، أنزلت الإنسان إلى الحضيض. إن اليد التي أسعدت الإنسان هي تلك اليد التي يقبلها محمد ﷺ عندما دخل عليه أحدهم ويده قد شققها المسحاة، فأخذها النبي ﷺ وقبلها وقال: «إنها يد يحبها الله ورسوله، إنها يد يحبها الله ورسوله، إنها يد يحبها الله ورسوله». فهذا هو الذي رفع شعار تكريم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٣).

المبحث الثالث: حجابة الخلفاء

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، أي ارفع الحواجز بينك وبينهم،

(١) فالدانمارك تعد أول بلد في العالم يعترف بزواج المثليين، وذلك عام (١٩٨٩)م، كما أن البرلمان الأوروبي دعا في (٨/٢/١٩٩٥م) إلى منحهم الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الأزواج العاديون. الإسلام والغرب: ٥٨.

(٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ١٧١/ ٢٩٢٨.

(٣) الإسراء: ٧٠.

ومن جاءك فليدخل بلا حاجز. والإسلام علّمنا هكذا، فإن أراد المسلم ملاقة ربه فليقف في المحراب وليقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)، فيواجه الله تعالى مباشرة. فالله تعالى أراد من الأنبياء أن يتخلّقوا بأخلاق السماء، فكانت أبواب الأنبياء بلا حاجب ولا بواب. وما نقرؤه من أن أنس بن مالك كان يقف على باب النبي ﷺ فإنما هو من باب التشرف، وإلا فإن الناس يدخلون على النبي ﷺ كما يدخلون إلى بيوتهم، بل إنهم أحياناً يطيلون الجلوس عند النبي ﷺ بحيث يصل إلى حد الإزعاج، ولم يكن النبي ﷺ يكلمهم، حتى نزلت الآية تنهاهم عن إزعاجه^(٢).

وكان النبي ﷺ يجلس أصحابه إلى جانبه ويقبل عليهم بوجهه الكريم، وقد كان أغلبهم من الطبقة المسحوقة الضعيفة، فقد كان عمار مولئ، وكان أبو ذر غريباً، وكان سلمان مولئ، وكان بلال من هذا النوع أيضاً. فكانوا يدخلون عليه بلا حاجب ولا بواب، ومن هنا تدرك ما يلاقي الناس من الحجاب، يقول أحدهم:

وما كنت أدري كيف آتي إليكم ونصفك محجوب ونصفك نانم^(٣)

ولم يكن في عهد الخلفاء حاجب ولا بواب حتى نهاية عهد أمير المؤمنين عليه السلام، فكان الناس يدخلون على الخليفة ويكلمونه كما يكلمون أي شخص آخر. وجاء بعد هذا العهد عهد الحجاب والبوابين. في حين أن الأمر كان حتى عند الملوك من أهل العدل من غير المسلمين أن أحدهم يدخل عليه الداخل بلا تكلف. يروى عن

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَخِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي مِنْ الْحَقِّ﴾ الأحزاب: ٥٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٧: ٩٤، وصدر البيت فيه: متى يفلح الغادي إليك لحاجة.

أحد الملوك المعاصرين للإسلام أنه كان أظروشاً، فأمر أن يرفع كلّ مظلوم أو من كانت له حاجة خرقة حمراء، كي يراه ويعرف أنه ذا حاجة، وكل ذلك كي لا تفوته مظلومية أحد.

أما أمير المؤمنين عليه السلام فقد وضع صناديق في أنحاء الكوفة، فمن كانت له مظلمة ولا يستطيع أن يصل إلى أمير المؤمنين عليه السلام لشغل أو حياء فإنه يضع ظلامته مكتوبة في الصندوق، فيبعث أمير المؤمنين عليه السلام كل يوم شرطة الخميس ليأتوه بما في الصناديق. فكان ينظر في هذه الظلمات فلا تذهب مظلومية إنسان.

وهذا العالم خيالي بالنسبة إلى عالمنا، ومن هنا يصف بعض الكتاب من يحمل فكراً دينياً بأنه طوبائي يحمل أفكاراً خيالية لا تتسجم مع الواقع، وليس من الممكن أن تتحقق. وفات هؤلاء أنها حدثت وعاشت زمناً طويلاً.

وكان ولاية المسلمين يستقبلون الناس على هذه الهيئة والطريقة، بل أكثر من هذا، فقد كانت هناك قضايا تلفت النظر، مات أحد الأشخاص أيام معاوية وكان معاوية يطلبه، فبعث إلى الوالي أن استوف لي حقي من هذا الميت ثم قسم باقي التركة بين الغرماء الآخرين. وهذا الدين نسميه اليوم بالدين الممتاز، وهو ما كان للدولة. فلما وصل الكتاب إلى الوالي رماه تحت الفراش، فطلب منه الرسول الجواب فقال: اذهب إلى معاوية فقل له: لقد جاءني كتاب قبل كتابك وهو كتاب الله الذي أمرني أن أساوي بين الغرماء. وهذا موقف إسلامي جليل.

وهكذا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام في دخول الناس عليهم بلا حاجب ولا بواب، يقول أحدهم: كانت لي حاجة عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وكنت أتصور أنني عندما أذهب إلى الإمام عليه السلام فسوف أجد الحجاب والبوابين والخدم، فسألت عن داره فقيل لي: إنها في الكرخ. فجئت الكرخ فوجدت خربة فيها بيت من البواري والحصر، ورأيت رجلاً واقفاً في تلك الخربة، فسلمت عليه، فقال: أحسبك غريباً.

قلت: بلى. قال: ما وراءك؟ قلت: أريد الإمام موسى بن جعفر رحمه الله. قال: ليج لا حاجب ولا بواب.

فلما دخلت وجدت رجلاً كأنه جالس، تُعيله الريح إذا مرّت به لضعفه، وقد وقف للصلاة، والى جانبه جَلَم (مقص) ^(١) يأخذ به اللحم الميت من مواضع سجوده، ووجدته يقرأ ﴿يَوْمَئِذٍ تُسْفَرُضُونَ لَا تُخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ^(٢) ودموعه جارية، فانتظرتَه حتى فرغ، ثم طرحت عليه مسألتي فأجابني، ثم ودّعني ببشاشة واحترام، ثم خرجت.

ولكن ارجع إلى تلك الخبرة التي كانت لا حاجب ولا بواب، وقارنها بقصر من القصور التي بناها خلفاء الجور، كدار الرقيق أو قصر الخلد الذي كان فيه اثنا عشر ألف غلام للبريد فقط، فهل تجد له أو لغيره أثراً في بغداد؟ انظر إلى تلك الخبرة تجدها قبة تناطح السماء علوًّا:

لَتَهْنِكَ عُقْبَى الصَّابِرِينَ أبا الرضا	وإن طال حبس واستطال عقاب
وَعَرَبَتْ سَوَاطِئُ فِي أَكْفٍ لَثِيمَةٍ	وَجَسَتْ بِهِ لِلظَّالِمِينَ عَذَابُ
فَكَوَّخٌ بِهِ عَشَتْ اسْتَطَالَ إِلَى السَّمَاءِ	وَقَصُرَ بِهِ عَاشَ الرَّشِيدُ خَرَابُ
وَمُظْلِمٌ سَجَنَ عَشَتْ فِي جَنَابَتِهِ	ضَجِيْعَاكَ مِحْرَابُ بِهِ وَكِتَابُ
تَحْوُلٌ صَرَحًا قَدْ تَكَامَلَ عِنْدَهُ	لَأَرْفَعَ آيَاتِ الْفُنُونِ بَصَابُ

وهذه هي عاقبة الصالحين التي طالما ردّدها القرآن بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ^(٣)، ورحم الله أبا فراس حيث يقول:

للمتقين من الدنيا عواقبها وإن تعجل منها الظالم الأثم ^(٤)

فآية تقول للنبي ﷺ: إذا جاءك هؤلاء فاستقبلهم، وارفع قدر الإنسانية في

(٢) الحاقة: ١٨.

(١) المعجم الوسيط ١: ١٣ - جلم.

(٤) ديوان أبي فراس: ٢٥٥.

(٣) الأعراف: ١٢٨.

أشخاص حاملها بغضّ النظر عن مظاهرهم، فليس من اختيار الإنسان أن يكون ابن بيت معروف وعائلة مرموقة أو ابن بيت غير معروف، فهو لا يستطيع أن يتحكّم بذلك، فالإنسان مكرم بغضّ النظر عن كونه ابن فلان أو ابن فلان، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾^(١).

وقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يدعو لهم بالسلام بقوله: ﴿قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا الشعار كلّ رقة وتكريم للإنسان؛ لأنه دعاء له بالسلامة والأمن من المكاره والآفات، وهذه هي آداب الطريق التي رسمها الله تعالى للإنسان، فمن حيّاك بتحيّة فحيّه بأحسن منها^(٢).

المبحث الرابع: في إيجاب الله تعالى بعض الأمور على نفسه

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ و﴿كَتَبَ﴾ بمعنى أوجب، فكيف يوجب الله تعالى على نفسه الرحمة؟ يستدلّ علماء الكلام من هذا المقطع على أن الله لا يفعل القبيح؛ لأن القبيح ظلم، والظلم خلاف الرحمة. فهل من الممكن أن يكلف الله العبد بتكليف شاقّ يصعب عليه؟ كلا، فليس من التكاليف شيء إلا وهو ضمن حدود قدرة الإنسان ووسعه وطاقته، فإن صار التكليف خارج الطاقة والوسع نزل إلى البديل. فمن شقّت عليه الصلاة وهو واقف فله أن يستبدل الوقوف بالجلوس، وهكذا فيمن شقّ عليه الجلوس فله أن يصلي وهو مضطجع.

وفي الصدقة كذلك، فمن لم يستطع التصدق بالكثير يلجأ إلى البديل، ولو كان رغيف خبز، قال ﷺ: «اتقوا النار ولو بشقّ تمر»^(٣). فهذا القليل إذا كان بدافع رضا

(١) المرسلات: ٢٠.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ بِحَبِيبَةٍ فَحَبِّوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا﴾ النساء: ٨٦.

(٣) الفقيه ٤: ٣٨/٥٨١٧، مسند أحمد ٤: ٢٥٦.

الله فهو كثير عند الله. وكم ممن تجده يتصدق بالكثير، لكنه يفعل ذلك بدافع التفاخر أو الدعاية أو العلو، أو أن يشعر الناس أنه محسن، أما الدافع الحقيقي والواقعي وهو البرّ فقليل ما هو. كتب أحد الصحابة في وصيته أن عنده حظيرة فيها الكثير من التمر، وطلب أن يوزعها النبي ﷺ بعد موته، فلما جاء النبي ﷺ إلى حظيرة التمر وزعها حتى بقيت حشفة في زاوية من الزوايا، فأخذها النبي ﷺ بين أناملتين من أنامله الشريفة وقال: «والله لو تصدق بهذه في حياته لكانت أفضل له من جميع ما تصدّقنا به عنه بعد مماته».

فالله أوجب على نفسه الرحمة بالآل يكلف العباد ما يشقّ عليهم؛ لأن هذا ظلم، وذاك مظهر من مظاهر كتابة الله على نفسه الرحمة.

ومن مظاهر ذلك أنه لا يعاجلنا بالعقوبة، فهناك من يبارز الله صباح مساء بالمعصية ولكن الله يمهله ويعطيه الفرصة للتوبة، أما نحن في الدنيا فإننا نلاحظ أن هناك من يخالف غيره في الرأي فيحرمه من الحياة. جاء إلى أحد المسؤولين في إحدى الدول الإسلامية مسلم، وطلب منه أموالاً ممّا خصّصته الدولة للمساجد، فسأله بصراحة: ما مذهبك؟ فأجابه عن مذهبه، فقال: اخرج ليس عندي لك شيء. فهل تسمي هذا إسلاماً؟ متى كان الاختلاف في الفروع الفقهية يؤدي إلى هذا الحد؟ الله تعالى والرسول ﷺ والإسلام بريئون من هؤلاء، يقول النبي ﷺ: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله»^(١). فكيف يأتي المسلم إلى المسلم الذي يختلف معه في الرأي فيسعى إلى أن يحرمه من الحياة، أو يقطع عنه طعامه؟

فالآية تقول: إن الله أوجب على نفسه الرحمة فسبقت رحمته غضبه، فهو معدن الرحمة، وإنما يراقب العباد ويعاملهم انطلاقاً من أنهم جهلة. وتلك سمات الأنبياء

في التجاوز عن أمهم، فلا يدعون عليهم، فكان النبي ﷺ يقابل كل جرح بدعوة لهم بالرفق والرحمة^(١)، وقد صافح ﷺ من كان يرميه بالسهم، بل وقف ﷺ وعيناه الشريفتان تدمعان لمصرع رجل رثته أخته، وقال ﷺ: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله، ما قتلتها»^(٢).

ووقف الإمام الحسين عليه السلام وهو امتداد للنبي ﷺ يضرب مثلاً سامياً للرحمة، يقول له أحد الشعراء:

يَقُمْتُ يَوْمَكَ كَالظَّمَاءِ بِهَذِهِ	صَحْرَاءِ تَلْتَمِسُ الْغَدِيرَ وَرُودَا
فَرَأَيْتَكَ الْعِمْلَاقَ جَيِّدًا مُتَلَعًا	يَنْعَى عَلَى الْأَقْزَامِ تُهْطِعُ جَيِّدًا
وَرَأَيْتَكَ الْفِكَرَ الْخَصِيفَ يَشُقُّ أَسَدَ	سِتَارَ الْغُيُوبِ وَيَسْتَشْفِئُ بَعِيدَا
فَإِذَا أَرَاكَ الْيَوْمَ زَاكِيَةَ الدِّمَا	فَغَدَا سَتَرَفَعَهَا الشُّعُوبُ بُنُودَا
وَرَأَيْتَكَ النَّفْسَ الْكَبِيرَةَ لَمْ تَكُنْ	حَتَّى عَلَى مَنْ قَاتَلُوكَ خَقُودَا

وقف ينظر إلى الجيش وعيناه تدمعان.. أمطرهم بالرحمة وأمطروه بالحجارة والنبال والسهم.. قابلوه طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف حتى تقطعت تلك الأوصال، وتشظى ذلك الفم الذي طالما اتكأ عليه رسول الله ﷺ يشبعه لثماً وتقيلاً. ولذلك لما أدخل الرأس إلى مجلس يزيد وأخذ عوداً من الخيزران وأشبع بها ثنايا الإمام الحسين عليه السلام ضرباً قام إليه زيد بن أرقم فقال: يزيد، ارفع يدك عن هاتين الشفتين، والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقبلهما^(٣).

(١) كان ﷺ يقول في كل ذلك: «اللهم اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون». الخرائج والجرائح: ١٦٤/٢٥٢، تفسير القرآن العظيم ٣: ٥٧٥.

(٢) سبل الهدى والرشاد ٤: ٦٣، والمقتول هو النضر بن الحارث قتله أمير المؤمنين عليه السلام صبراً، واسم التي رثته قتيلة بنت الحارث أو النضر على اختلاف في كونها ابنته أو أخته.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٣٤٩، أسد الغابة ٢: ٢١.

ذلك الخد الذي يقول فيه الشاعر:

مسح النبي جبينه فله بريق في الخدود

أبواه من عليا قريب ش وجده خير الجدود^(١)

ذلك الخد الشريف تركوه في الصحراء، وذلك الجبين رموه بسهم أبي الحتوف الجعفي حتى سالت عليه الدماء، وذلك الثغر أشبعه يزيد ضرباً بعوده. ويبدو أن هذه الحادثة تركت هياجاً في المجلس لذا أمر يزيد بإخراج الرأس ووضعه في خربة. وفي رواية أنهم نصبوه بباب الفراديس، ومرّ رجل من أهل الشام فقال: ويحكم، لمن هذا الرأس؟ قالوا: هذا رأس الإمام الحسين عليه السلام. فصاح يا لله وللحمية، أسبط رسول الله ينصب رأسه؟ فامتشق الحسام وضاربهم ثم أخذ الرأس وهرب به فواراه^(٢).

ثم نقله بعد ذلك طلائع بن رزيق إلى القاهرة^(٣) على روايات مختلفة. فهذا الرأس الشريف أشبعه يزيد ضرباً ثم نصبه أمام أخته فراحت تطيل النظر إليه وتذرف دموعها:

ما توهمت يا شفيق فؤادي كان هذا مقدراً مكتوباً^(٤)

يشايل راس اخيي لا تلوحه وهبط عن بكاية الروس رحمه

أخاف يفوت ريع الهوه بجرحه



(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٠، المعجم الكبير ٣: ١٢١ - ١٢٢ / ٢٨٦٥ - ٢٨٦٦.

(٢) قريب منه في مثير الأحران: ٨٥.

(٣) لواعج الأشجان: ٢٤٩، ونسب نقله للفاطميين.

(٤) بحار الأنوار ٤٥: ١١٥.

بشارة الله للمؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ
الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا
تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: صفات أولياء الله

جمهور المفسرين متفقون على أن الموصوفين بهذه الآية الكريمة هم أولياء الله. ولعل من الأوصاف الوجيزة المعبرة عن الأولياء ما وصفهم به أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذ اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيمتركهم»^(٢).

وعندما تقرأ كلمات من (نهج البلاغة) فإنها تدلّ على صاحبها؛ لأن فيها روح

(١) يونس: ٦٣ - ٦٤.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٣٢، ونسبه في تاريخ مدينة دمشق ٤٧: ٤٦٦، الدر المنثور ٣: ٣٠٩، إلى النبي عيسى عليه السلام باختلاف.

صاحبها، وتحسّ كأن أمير المؤمنين عليه السلام يشافهك. وهذا مقياس استخدمه البلغاء والعلماء والأدباء للتعرف على الآثار، فالأديب المتمرس في الأدب يستطيع أن يميز الآثار الأدبية، وينسبها لأصحابها، فأنت مثلاً عندما تجد آية من القرآن بين مجموعة من النصوص الأدبية فبإمكانك أن تميزها؛ لأن كلام الله تعالى له سماته. وهذا المقطع الذي يصف فيه أمير المؤمنين عليه السلام الأولياء يدلّ تمام الدلالة على أنه له؛ لأن فيه نفّس علي عليه السلام وأخلاقه.

المبحث الثاني: المراد من ﴿البشرى﴾ في الآية

قالت الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فما هي البشرى؟ يتوزّع المفسرون في معنى البشرى بين ثلاثة آراء:
الرأي الأول: أنها الرؤيا الصالحة

ذلك لأن الحديث الشريف يقول: «لا يبقى بعد النبوة إلا المبشرات»^(١)، ويقول أيضاً: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٢).
ولدينا روايات كثيرة تنصّ على أن البشرى هي الرؤيا الصالحة^(٣)، يقول النبي ﷺ عن الرؤيا الصالحة: «يرأها المسلم أو تُرى له»^(٤)؛ فإما أن يراها هو أو أن يراها غيره فيه. فهل للرؤيا ضوابط علمية؟ وهل إن كلّ ما يراه الإنسان في منامه صحيح يعتمد عليه؟

معالجة الرؤيا الصحيحة

هناك طريقتان لمعالجة مثل هذه المسألة: الطريق الديني، والطريق العلمي.

(١) مسند أحمد ٦: ١٢٩، وقريب منه في ج ٥: ٤٥٤.

(٢) بحار الأنوار ٥٦: ٢١٥، مسند أحمد ٢: ٣٦٩.

(٣) التبيان ٥: ٤٠٢، مسند أحمد ٢: ٢١٩، وغيرهما.

(٤) بحار الأنوار ٥٨: ١٧٨، مسند أحمد ١: ٢١٩.

وهناك رواية يرويها عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ يقول فيها: «الرؤيا ثلاثة: بشرى من الله، وتحزين من الشيطان، ورؤيا يحدث بها الإنسان نفسه فيراها في النوم»^(١).

العلم الحديث يؤيد نظرة الدين إلى الرؤيا

والنظريات الحديثة تلتقي مع هذه النظرية. وقد تعجب أن نظرية في القرن العشرين تلتقي مع هذه التي مر عليها أربعة عشر قرناً! يقول فرويد: قسم من أقسام الرؤيا هو عملية تعويض، فالإنسان أحياناً يريد أن يعمل شيئاً في اليقظة لكنه يعجز عنه، كأن يكون له عدو يريد الانتقام منه في اليقظة فلا يستطيع ذلك لأن عدوه قوي. أو تكون عنده أمنية في الحياة لا يستطيع تحقيقها، فيكبت هذه الرغبة، وهذا الكبت يدمر النفس إذا بقي متراكماً في داخلها. فالله تعالى رحمةً بعباده لم يترك هذا الكبت داخل الإنسان، فعندما يأتي الليل يحقق الإنسان في المنام ما لا يستطيع تحقيقه في اليقظة. وهذه النظرية - كما قلنا - تلتقي مع رواية عبد الله بن مسعود قبل ألف وأربعمئة سنة.

وأما الجزء الثاني الذي تسميه الرواية «تحزين من الشيطان»، فالنظريات الحديثة تسميه «الأحلام غير المتناسقة»، أو ما يسميه القرآن: «أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ»^(٢). وأما الجزء الأول، فهو الرؤيا الصالحة، وهذه فيها مشاهدة، فالإنسان بالمشاهدة رأى الكثير من الأشياء في المنام قد تحققت في اليقظة، وهي إما بصورة مباشرة أو على شكل رمز. فقد يرى رؤيا تتحقق ذاتها في اليوم التالي، أو أنه يرى رمزاً فيتحقق.

(١) عوالي اللآلي ١: ٧٩/١٦٦، مسند أحمد ٢: ٣٩٥.

(٢) يوسف: ٤٤.

جانباں ھاڻاں في موضوع الرؤيا

والذي يعنينا من موضوع الرؤيا شيان:

الأول: تشخيص الرؤيا الصادقة

فالرؤيا التي يراها الإنسان هل يستطيع أن يتخذ منها رمزا معبراً عن واقع سيتحقق أو لا؟ فالنبي ﷺ كان يرى الرؤيا لكن رؤياه وحي، والصحابة كانوا يرون رؤيا تحقق الكثير منها. فهل يستطيع الإنسان أن يعول على هذا المقدار بحيث إنه إذا رأى رؤيا يجزم بتحققها أو عدم تحققها؟

الجواب: أن العلم إلى الآن لم يبت بهذا. فهو وإن سلم بتحقق قسم من أقسام الرؤيا لكنه لم يستطع أن يشخص ذلك القسم الذي يمكن أن يتحقق.

الثاني: ترتب الأثر الشرعي على الرؤيا

هل يترتب على الرؤيا حكم شرعي أو لا؟ فلو أن أحداً رأى في المنام أباه يخبره أن عليه عشر سنوات من الصلاة، وأمره بقضائها، أو أمره بالحج الواجب الذي فات، فهل يفعل ما أمره؟

الجواب: كلاً، فالأحكام التكليفية لا تتعلق بالأحلام؛ لأن الدين مبني على نصوص، فعندما نقول: إن الصلاة واجبة فإننا إنما استفدنا ذلك من القواعد اللفظية، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١). فالقاعدة اللفظية تقول: إنَّ ﴿أَقِيمُوا﴾ أمر، والأمر حقيقة في الوجوب، إلا إذا جاء دليل أو قرينة على الاستحباب. وكذلك عندما أقرأ: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾، فإنني أرجع إلى الروايات الواردة عن النبي ﷺ باعتباره الوسيط بيننا وبين السماء، فأخذ أحكامي منها.

غريب قصص الرؤيا

ومن الغريب أن فقهاء المسلمين من غير الإمامية يقولون: إن النبي ﷺ لما أراد أن يجمع الناس إلى الصلاة جمع أصحابه واستشارهم، فقال بعضهم: نضع ناقوساً كما يفعل النصارى، نضربه وقت الصلاة فيجتمع الناس. وقال البعض الآخر: نصنع كما يصنع العرب، بأن نشعل ناراً على رأس الجبل فيراها الناس فيجتمعون. وقال بعض: نبعث وقت الصلاة من ينبه الناس في بيوتهم بأن حان وقت الصلاة. وبقي النبي غير موافق لرأي من هذه الآراء، وتفرق الصحابة. حتى إذا باتوا ليلتهم وأصبح الصباح جاءه أحد الصحابة^(١) فقال: رأيت في الرؤيا من يقول لي: أذّنوا للصلاة بأن تأمروا أحدكم بالصعود على مرتفع، ويقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله... إلى آخره. فاستحسن النبي ﷺ ذلك، وأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن^(٢).

وهذا القول من المهازل، فصاحبه يدّعي أن المسلمين أخذوا الأذان من الحلم، وعلى ذلك سوف يُفتح الباب أمام ما لا تحمد عقباه، وقد يأتي من يقول لنا: إن دينكم هذا مبني على الأحلام. فالأذان مستحب، والاستحباب حكم من الأحكام الشرعية التكليفية^(٣).

والزيادة والنقيصة في الأذان لا تفسدان الصلاة، فقد مرّ الخليفة الثاني فسمع من يوقظ النائم للصلاة فيقول: الصلاة خير من النوم. فقال: ضعوا هذه في الأذان. فقالوا له: هذه بدعة. قال: نعمت البدعة^(٤). ولذا فإن وجود «أشهد أن علياً

(١) هو عبد الله بن زيد بن عبد ربّه. (٢) مسند أحمد ٤: ٤٣.

(٣) الخمسة وهي: الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢٨، وقوله: نعمت البدعة، روي في مورد آخر، انظر: الموطأ ١:

١١٤، صحيح البخاري ٣: ٢٥٢، وغيرهما.

ولي الله» في الأذان ليست واجبة، وإنما هي مستحبة بمعنى أنها شهادة لولي بالولاية أوجبها ظروف معينة.

فالأذان وإن كان مستحباً لكنه حكم شرعي والحكم الشرعي لا يؤخذ من طيف أو رؤيا. فهذا الكلام غير علمي وغير مبرر. ولو رجعنا إلى فقهاء المسلمين لوجدناهم يبذلون الجهود المضنية في تحصيل الحكم الشرعي، فهم يمحّصون الروايات سنداً ومتناً، ويجمعون بينها، ويتبعون القواعد الخاصة بهذا العلم في عملية معقدة لا يعرفها غيرهم. فالحكم الشرعي حكم الله، وهذا لا يؤخذ من الأحلام.

نموذج من الرؤيا الصالحة

فالرؤيا الصالحة هي التي تتحقق بالصورة المباشرة أو بالرمز، فمن أمثلة الرمز ما حدث قبيل واقعة بدر بأيام، حيث كانت قريش مجتمعة حول الكعبة حلقات حلقات، فجاء العباس بن عبد المطلب فقال للوليد بن عتبة: أخبرني أختي عاتكة أنها رأت كأن رجلاً صعد على جبل أبي قبيس وأمسك حجراً فقذف به في قلب الوادي، فلم يبق بيت من قريش إلا ودخله جزء من ذلك الحجر. فوصل الخبر إلى أبي جهل فقال: ما رضيتم يا بني هاشم أن تتنبأ علينا رجالكم حتى تنبأت علينا نساؤكم؟ فحمي العباس وقال: يا مصفر استه، ألمثلي يقال هذا؟ ولم تمر أيام حتى سمعوا صوتاً على جبل أبي قبيس، فقد جاء ضمضم بن عمرو مبعوثاً من أبي سفيان بأن محمداً وأصحابه اعترضوا قافلة قريش القادمة نحو مكة، وقد فرّ أبو سفيان ومن معه فنجوا بأنفسهم. عند ذاك أشفق القرشيون، وقالوا: إن رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أخذ باليد. وفعلاً خرجوا إلى واقعة بدر فلم يسلم بيت من بيوت قريش، فليس من بيت إلا وكان فيه فقيد، وصدقت رؤيا عاتكة^(١).

الرأي الثاني: أنها المحبة في قلوب الناس

وهو المروي عن أبي ذر رضي الله عنه، فالمؤمنون المتقون يمنحهم الله المحبة في قلوب الناس، فأنت لو بحثت حتى في قلب المجرم وسألته: ما هو الأفضل في رأيك: المنهج الذي تسير أنت عليه أو منهج الاستقامة؟ فسيقول: إن الأفضل منهج الاستقامة. فالمؤمن محبوب، والعلماء والصلحاء هم الملوك الحقيقيون الذين يحكمون القلوب، فلم يستطع هشام بن عبد الملك على الرغم مما لديه من أتباع ومريدين وما له من سلطان وسطوة أن يصل الحجر الأسود، لكن الإمام زين العابدين عليه السلام دخل وليس معه سوى درّاعة يلبسها، ولا يصحبه سوى تقوى الله والإيمان فانفرج له الناس سماطين، وشقّ طريقه إلى الحجر الأسود فالتمسّه، فسأل أحد الشاميين هشاماً: من هذا؟ فقال: لا أعرفه.

وكان هشام يعرفه، لكنه خشي أن عرّف به الفتنة وانقلاب الناس، فانبرى له الفرزدق قائلاً:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والجبل والخرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلاً	بجدّه أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره	الغرب تعرف من أنكرت والعجم ^(١)

ودخل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام على الرشيد في موسم الحج وإلى جانبه ابنه المأمون، فهب الرشيد واقفاً، والتفت إلى غلمانته قائلاً: سووا على الرجل ثيابه، وأمسكوا ركابه، وارفعوا له الستور. ثم استقبله أحسن استقبال، وأجلسه إلى جانبه، وأقبل عليه يحادثه إلى أن خرج، فسأل المأمون أباه: أولست أنت أمير

(١) ديوان الفرزدق: ١٧٨، وانظر الواقعة في تهذيب الكمال ٢٠: ٤٠٠ - ٤٠١، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٨.

المؤمنين؟ قال: بلى. قال: فما فعلك هذا مع هذا الرجل؟ قال: ويحك، أنا أمير الظاهر، وهذا هو الخليفة الحق. فقال: لم لا تتنازل وتعطيه حقّه؟ قال: إنه المُلْك، ولو نازعنا عليه صاحب هذا القبر فليس له عندنا إلا السيف.
فالمحبة للمؤمنين في النفوس هي أعظم بشرى لهم في الحياة الدنيا.

الرأي الثالث: أنها معرفة الإنسان عاقبته قبل خروجه من الدنيا
فهناك روايات كثيرة في أن المؤمن قبل أن يخرج من الدنيا يُعرّف موقعه في دار الخلود؛ أفي الجنة أم في النار. وهذا ليس من الألغاز أو الأسرار، فالإنسان يعرف نفسه كما يعرف أطراف المعادلة الرياضية، فهو يعرف ماذا عمل في الدنيا، ويعرف مقدار رحمة الله له، فإذا عرف المقدمات عرف النتيجة. لكن الإنسان من شدة حبه لنفسه يتصوّر أنه دائماً على حقّ وصالح.

أما البشري في الآخرة فهي إما أن الملائكة يستقبلونهم في الآخرة فيبشرونهم بما يؤول إليه أمرهم هناك وهو الجنة، أو أنهم يبشرونهم برضوان الله. فالبعض قد يجد قسماً من الناس في الدنيا لا همّ لهم سوى الأكل والشرب واللذائذ والمادّيات الأخرى، وقد يجد من يرى أن ذلك كلّ لا قيمة له إذا لم يحرز معه رضوان الله، يقول الشبلي البغدادي:

إِنْ بَسِيقاً أَنْتَ سَاكِنُهُ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى السُّرُجِ
وَجْهَكَ الْعَامُولُ حُجَّتُنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجَجِ^(١)

ويقول الحديث القدسي: «لن تسعني أرضي ولا سماواتي، ولكن يسعني قلب

(١) تاريخ بغداد ١٤: ٣٩٧، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٧٧، وهي آخر أبيات قالها، وقد أنشدها في الليلة التي توفي فيها.

عبدى المؤمن»^(١)، فالقلب الذي يشعر أن الله يعمره يعيش نعيماً لا حدود له، والنفس الخالية من النعيم لا تشعر بالنعيم ولو وضعتها في الجنة، يقول الأديب:

والذي نفسه بغير جمال لا يُعَدُّ الوجود شيئاً جميلاً^(٢)

فمع الرغبة البسيط قد يشعر الإنسان بنعيم لا حدود له. والمعروف عن بعض العلماء أنه كان يتناول كسرة خبز، ويشرب الماء عليها، ثم ينحني على كتابه، حتى إذا توصل إلى معرفة شيء أو نظرية ما غمره الفرح وراح يقول: أين أبناء الملوك عن هذه اللذات؟

فكل ما يسبب لذة جسدية فهو فانٍ، فالقصر إلى تراب، والجسم إلى تراب، والثوب إلى خرقه بالية لا قيمة لها وهكذا كل لذة. أما اللذة الروحية فهي التي لا تلبى ولا تفنى.

ولقد كان المتقون يتمكنون من التمتع بلذات الحياة المادية، لكنهم في شغل عن ذلك بما هم فيه من لذة أكبر، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والله لو شئت لا هتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القرز، ولكن هيهات أن يقودني هواي، أو يغلبني جشعي إلى تخير الأطعمة»^(٣).

(١) عوالي اللآلي ٤: ٦ / ٧، بحار الأنوار ٩٢: ٤٦٥.

(٢) فناقد الشيء لا يعطيه، وقد قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلال

الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف: ٢٢، بحار الأنوار ١٠٦: ١٥٤.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥، وهو عليه السلام الذي يقول عندما يأكل كسرة خبز: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله». الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

وكان عليه السلام يجلب إلى البيت قوصرة تمر ويرتجز:

«أفصح من كانت له قوصره يأكل منها كل يوم مرّه»

مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٧، الفائق في غريب الحديث ٣: ٨٦ - قرر، البداية والنهاية ٨: ٣.

فهو ﷺ يعرف ما هذه اللذائذ لكنه يأبى أن يقوده هواه إلى هذه الأمور، بل يريد أن يقوده عقله وفكره إلى ما هو أهم، وهو ساعة من الساعات التي إذا جن فيها عليه الليل تسمر طرفه في الكواكب ورفع بصره إلى السماء فيقول: «يا من قصده الضالون فأصابوه مرشداً، وأم إليه الخائفون فرأوه موثقاً، ولجأ إليه العائدون فرأوه معقلاً»^(١).

أخو الذكّر والمحراب إن جنّ ليلته وصنوّ القنا والسيف إن طلع الفجرُ
وفارس مضمار النيان بنهجه تلاقى البيان الجزل والفكر الغرُ
فالتعيم الذي لا حدود له هو الشعور برضا الله في القلب.

المبحث الثالث: أن الله لا يخلف وعده

ثم قالت الآية: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ﴾، ومعنى ذلك أن الله وعد بذلك ولا يمكن أن يتبدل وعده. فإذا كان من شيمة الإنسان أن يخلف وعده فالله لا يخلف وعده، دخل أحد الأعراب على النبي ﷺ فقال له: لي إليك حاجة. قال ﷺ: «قل». قال: من يحاسبنا غداً؟ قال: «الله». قال: فزنا إذن ورب الكعبة. قال: «كيف؟». قال: إنه وعدنا الرحمة، وهو كريم، والكريم إذا قدر عفا^(٢).

فالله هكذا، والنبي ﷺ هكذا، والأئمة عليهم السلام هكذا إذا قدروا عفواً، فالنبي ﷺ قدر على قاتل حمزة فعفا عنه، مع أن الأمر قد جاوز بحمزة حدّ القتل إلى المثلة اللثيمة. فقد أخرجت هند كبده فلا كتبها^(٣)، يقول أحد الأدباء:

أعملت ذنبه النساء بكبد الـ ليث ناباً لعل تشفي الغليلا
فأذريها للسود أطهر نفساً منك يا منذ وأتركي المأكولا

تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٠. والقوصرة: الوعاء الذي يكثر فيه التمر من البواري. الصحاح

٢: ٧٩٣ - قصر . . . (١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

(٢) كنز العمال ١٤: ٦٢٨ / ٣٩٧٤٩. (٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٨٧.

زوجك الذئب كان أتعس نفساً والخسيس الفردول يهوى الرذيلة
مُطرباً مَرُّ بالقتيل زهياً كالغريس السكير عبّ الشُمولا
يرهبُ الهرُّ زبدة الليث حياً ويُباهي بنهشه فقتولا
أوليس السرحانُ جد يزيد أورث الولد طبعه والهَيولن

ومع كل ذلك جاء وحشي قاتل حمزة إلى النبي ﷺ فأسلم، فقبل النبي ﷺ إسلامه وعفا عنه، ولكنه قال له: «لا تساكني في بلد أنا فيه»^(١).

كان الإمام علي عليه السلام على المنبر يخطب فدخل رجل، فلما رآه عليه السلام قال: «والله لبيعن الله أناساً يوم القيامة وإمامهم الضب». وكان هذا الرجل قد خرج يوماً فوجد ضباً، فأمسكه وقال له: إني أبايعك، أما والله إن بيعتك خير لنا من بيعه علي بن أبي طالب^(٢).

وهذا صحيح طبعاً، فإن أمير المؤمنين علياً عليه السلام لا يصلح لأمثال هؤلاء، فهو لا يسرق ليعطيهم، ولا يمكنهم من رقاب الناس. وقد كان علي عليه السلام يصعد المنبر فيقول: «أما إني أعلم الذي تريدون وقيم إودكم، ولكن لا أشتري صلاحكم بفساد نفسي»^(٣).

وكان عليه السلام أكبر من حجم زمانه، فلم يهضمه ذلك الزمان، يقول أحد الشعراء:

لا ألوم الزمان إن ضاق عفاً بمعانك من حجوم فساح
فمحال أن تلبس الشمس ثوباً أو تُصَبَّ البحار في أقداح

وقد استقبل علي عليه السلام في صفين عمرو بن العاص، ذلك الرجل الذي كاد للإسلام

(١) قريب منه ما في شرح الأخبار ١: ٢٦٩ / ٢٧٨، ٣: ٢٣١، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٨٣.

(٢) قريب منه ما في الخرائج والجرائح ١: ٢٢٦ / ٧٠، بحار الأنوار ٣٣: ٢٨٤ / ٦١٣.

(٣) الكافي ٨: ٢٦١ / ٥٥١.

منذ ظهوره، فقد هاجر المسلمون إلى الحبشة وتبعهم ليحرك النجاشي ضدهم^(١). وما ترك يوماً راية ضلال يمكن أن ترفع في وجه الإسلام إلا ورفعها، فلما أيقن في صفين أن الموت قريب منه بسيف علي عليه السلام اتقى الموت بعورته، ورحم الله أبا فراس حيث يقول:

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما رده يوماً بسوءته عمرو^(٢)
وفعلها بسر بن أرطاة لما خالطه السيف فهرب من علي عليه السلام واستقبل الموت بعورته، فقام النجاشي الشاعر - وكان مع العراقيين في جيش علي عليه السلام - فقال:
أفي كل يوم فارس تذبونه له عورة وسط العجاجة بادية
يكف بها عنه علي سلاخه ويضحك منها بالخلاء معاوية^(٣)
وتلك هي شيم الكريم إذا قدر عفا، والله تعالى كريم يعفو ويصفح، إلا في حقوق العباد بعضهم مع البعض، فهذا هو الذنب الذي لا يغفره الله.

المبحث الرابع: حول مسألة البداء

وقد يسأل سائل: إذا كان الله يقول: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ فكيف يقول الشيعة بالبداء؟ والبداء هو أن نقول مثلاً: إن الله قدر أن يكون عمر فلان عشرين سنة، فيبدو له أن يجعل عمره أربعين إذا وصل رحمه، أو إذا فعل الخير. وهذا الرأي

(١) المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٤٦٥، البداية والنهاية ٢: ١١.

(٢) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

(٣) وتامها:

بدت أمس من عمرو فقتع رأسه وعورة بسر مثلها حذو حاذية
فقولا لعمرو وابن أرطاة أبصرا سبيلكما لا تلقيا الليث ثانية
انظر: الفصول المهمة (ابن الصباغ المالكي): ٩٠، النصائح الكافية: ٩٣، وقد مر في ج ١ ص ٣٨٨ من كتابنا هذا.

تعييننا به بعض الفرق^(١)؛ فهماً منهم أننا نقول: إن الله كان جاهلاً ثم علم. وهذا كفر صريح.

والجواب: أن هذا ليس معنى البداء عندنا، بل إن معناه أن الله يُظهر ما أخفاه، لا أن يغير وعده. فالله تعالى منذ البداية كان قد قدر عمراً معيناً لكن هذا العمر المقدّر بهذا القدر مشروط بعمل ما كصلة الرحم؛ ولذا ورد في الحديث: «صلة الرحم تعمّر الديار وتزيد في الأعمار ولو كان أهلها غير أخيار»^(٢). فكيف تطيل صلة الرحم الأعمار إذا كان الله تعالى قدر لي ولك عمراً معيناً لا يتجاوز حده؟ فإذا لم يكن البداء موجوداً فلم يتصدّق الإنسان؟ أليس المتصدّق يطلب من الله أن يزيد في عمره ورزقه؟ فإن كان الرزق والعمر محدّدين فلم الصدقة؟ ولذلك يقول الإمام عليه السلام: «ما عبّد الله بشيء مثل البداء»^(٣).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «من قال: إن الله علم بعد جهل فقد كفر».

ثم قالت الآية: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فرضوان الله تعالى هو الفوز العظيم، وأي فوز أعظم من هذا الفوز؟ كانت امرأة^(٤) من الصحابة تحمل على جمل أخاها^(٥) وزوجها^(٦) وابنها لتدفنهم، وقد قتلوا في واقعة أحد، فلما رأت النبي ﷺ تركت خطام ناقتها وجاءت مهرولة نحوه، وقالت: وإني لحبي يا رسول الله؟ كلّ

(١) نقل الرازي والشهرستاني عن سليمان بن جرير أنه قال: إن أئمة الرافضة وضعوا مقالاتين لشيعتهم لا يظفر معهما أحد عليهما: البداء والتقية. المحصل ١٨٢٢، الملل والنحل ١: ١٦٠، وقد مرّ في ج ٢ ص ٢٢٢ من كتابنا هذا.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٤٨١ / ١٠٤٩، نزهة الخاطر (الحلواني): ٢٧ / ١٥.

(٣) الكافي ١: ١٤٦ / ١، التوحيد: ٣٢٢ / ١.

(٤) هي هند بنت عمرو بن حزام.

(٥) عبد الله.

(٦) عمرو بن الجموح.

مصيبة بعدك جَلَل^(١).

لقد استولى حبّ النبي ﷺ على قلب هذه المرأة، فما رأيك بحب الله لو استولى على القلب؟ ولهذا تستطيع أن تفسّر اللحظات الأخيرة التي مرّ بها الإمام الحسين عليه السلام، والتي يحدثنا عنها نافع بن هلال حيث يقول: مررت عليه فرأيت جبينه مشرقاً، وشفتيه تتحركان، فأصغيت إليه فإذا هو يقول: «صبراً على قضائك يارب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك، لك العتبى يارب»^(٢).

فهو عليه السلام يرمق السماء بطرفه ويطبق شفتيه على ذكر الله، لكنه يطبق عينيه على منظر من أشد المناظر إيلاماً ألا وهي نار تلتهب في المخيم. ففرّت بنات الزهراء رضي الله عنهن يتراكن من خباء إلى خباء ومن خيمة إلى خيمة:

كُلُّ تَلَوْذٍ بِأَخْرَى خَوْفَ أَسْرِهَا لَوْذُ الْقَطَا خَوْفَ بَأْسِ الْبَاشِقِ الضَّخْمِ
والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين. يقول حميد بن مسلم: نظرت إلى امرأة على باب خباء أوشكت النار أن تأخذها فدنوت منها، وقلت: أمة الله، النار قاربتك. فلم تجبني، قلت: أمة الله، النار علقّت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت: في الثالثة بأعلى صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليّ قائلة: يا ظالم، أنا أرى النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثم دخلت عليه فقالت: عمة ماذا نصنع؟ قال: «فروا على وجوهكم في البیداء». يقول السيد الحلبي:

مَشَى الدَّهْرُ يَوْمَ الطُّفِّ أَعْمَى فَلَمْ يَدْعُ عِمَاداً لَهَا إِلَّا وَفِيهِ تَغَثُرَا

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢١٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٦٢، مواهب الجليل ٥: ٢٩٢.
وفي رواية المعتزلي أنها تلت بعد ذلك: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ الأحزاب: ٢٥. ثم قال: «قلت: هكذا وردت الرواية، وعندني أنها لم تقل كل ذلك، ولعلها قالت: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ لا غير، وإلا فكيف يواطئ كلامها آية من كلام الله تعالى أنزلت بعد الخندق، والخندق بعد أحد؟ هذا من البعيد جداً».
(٢) ينابيع المودة ٣: ٨٢.

وَجَشَّعَهَا الْمَسْرَى بِبِيدَاءِ قَفْرَةٍ وَلَمْ تَدْرِ قَبْلَ الطُّفِّ مَا الْبَيْدُ وَالسُّرَى
وَلَمْ تَرَ حَتَّى عَيْنُهَا ظِلُّ شَخْصِهَا إِلَى أَنْ بَدَتْ فِي الْغَاضِرِيَّةِ حُسْرًا^(١)

يَا رَسُولَ الْبِدَارِ إِنْ أَنْتَ سَارِ عُجْ إِلَى طَيِّبَةٍ بِغَيْرِ اعْتِدَارِ
قِفْ وَنَادِ بِرَنَّةٍ وَانْكَسَارِ (قَوْضِي يَا خِيَامَ عَلِيَا نِزَارِ
فَلَقَدْ قَوْضَ الْعِمَادُ الرَّفِيعُ)



موقف الإسلام من الجور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة

إن معظم المفسرين يذكرون أن الآية الكريمة نزلت في أصحاب بدر؛ فهي تعلن أنهم سيتقاتلون يوم الجمل، فقد كان في معسكر البصرة جملة من الصحابة، وفي معسكر الإمام عليه السلام كذلك. فالآية نزلت في زمن النبي ﷺ مشيرة إلى هذا المعنى. وهي من الآيات التي أشار فيها القرآن الكريم إلى ما سيكون. وإلى هذا يذهب الفخر الرازي^(٢)، والطبرسي صاحب (مجمع البيان)^(٣) وغيرهم^(٤). والآية بهذا ترتبط بموضوعنا الذي سأبيته إن شاء الله.

(١) الأنفال: ٢٥. (٢) التفسير الكبير ١١٥: ١٢٠.

(٣) مجمع البيان ٤: ٤٥٢.

(٤) انظر جامع البيان، المجلد ٦، ج ٩: ٢٨٨ / ١٢٣٤٤، شواهد التنزيل ١: ٢٧٣ / ٢٧٣،

تفسير القرآن العظيم ٢: ٣١١.

ولم يكن الإخبار مقتصرًا على الآية الكريمة فقط، وإنما أخبرهم النبي ﷺ بذلك أيضاً ووضع هذه الصورة أمامهم، يقول الرازي: كان النبي ﷺ يوماً يمشي ومعه الزبير يسايره، وجاء علي بن أبي طالب، فتبسم له الزبير ورحب به، فقال له النبي ﷺ: «يا زبير، أتجبه؟». قال: نعم يا رسول الله، أحبه كحبّ ولدي أو أشدّ. قال ﷺ: «كيف بك إذا خرجت إليه تقاتله؟».

وبقيت الكلمة في وعي الزبير، فكان يقول: كنا نقرأ هذه الآية ولا نعلم أننا المعنيون بها^(١).

وهذا أحد مضامين الآية، وفيها مضامين أخرى سنتناولها تباعاً إن شاء الله.

المبحث الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾

الفتنة: هي الواقعة التي يفتن بها الناس؛ سواء كانت في المجال السلمي أو الحربي. فكل واقعة ينقسم حولها الناس ويفتنون بها، ويتقاتلون من أجلها هي فتنة. ففي الأحوال السلمية مثلاً يُعدُّ انتشار بعض المنكرات فتنة؛ لأن الناس ينقسمون حولها، فبعضهم يقول: إنها ظاهرة سليمة تخدم المجتمع، والآخر يراها ظاهرة سلبية تفسد المجتمع، فيحدث الصراع فيما بينهم حولها.

وفي مجتمعنا المعاصر مثلاً ينادي الكثير من الناس بضرورة اندماج المرأة في كلّ فعاليات الحياة وأنشطتها على اعتبار أنها تشكّل نصف المجتمع، وإذا كانت كذلك فلا يجوز الحجر عليها، بل لا بد من انطلاقها ودخولها المعمل والحقل والمجالات الحيوية العامة. ولو كان ذلك على حساب بيتها وأولادها^٢ مع أن هناك أعمالاً لا تناسب المرأة، فلا يناسبها مثلاً أن تكون تحت آلة ثقيلة وهي في فترة الحمل؛ لأن ذلك ينعكس على صحتها وصحة جنينها، ويعرضها إلى آلام كبيرة.

(١) التفسير الكبير ١٥: ١٢٠، وانظر شواهد التنزيل ١: ٢٧٣ / ٢٧٤.

والحمل بحدّ ذاته عمل مرهق، فهي مجاهدة في المجتمع لكونها تحمل له امتداده وهو الطفل، ولولا الحمل والولادة لانقرض المجتمع. فهي في ساحة جهاد وعمل فعلي، ولا داعي لتكليفها بعمل شاقّ إضافي.

فلاحظ إذن أن الناس انقسموا حول هذه النقطة، فمنهم من يقول بضرورة انطلاقها؛ لأنها نصف المجتمع، وقسم يقول: إن ذلك سيكون على حساب الأخلاق والأطفال والأسرة والمجتمع، حيث سيحرم الأطفال من العطف والرحمة والرعاية، فينتج من ذلك مشاكل اجتماعية وأخلاقية. فيجب ألا تخرج المرأة للعمل.

فهذا اللون من الصراع فتنة، ولا بد أن نحتكم فيه إلى الضوابط التي وضعها الشارع حول مدى حق المرأة في العمل، وما الذي يضرها، وما الذي ينفعها. وليس من المعقول أن يأتي بعد (١٤) قرناً من الزمان من يعلم الإسلام موقفه من المرأة؛ لأن الإسلام هو الوصفة الإلهية السماوية للإنسان، والله أرحم بعباده من الناس، وعندما خطّط للمجتمع جعل المرأة في مكانها، وأعطاه الحق في العمل في حالات معيّنة، ومنعها في حالات أخرى. والله تعالى لم يرد للمرأة أن يظلمها؛ إذ ليس له جلّ وعلا مصلحة في أن يظلمها بأن يعطي رفاة للذكر على حسابها، فهم كلّهم عباده، وهو ربهم. ومن غير الممكن أن تكون لدينا تعاليم من السماء تظلم نصف المجتمع لحساب النصف الآخر.

فالفتنة التي تكون في المجال السلمي يأمرنا الله بالابتعاد عنها، وأن ننظر جهة الحق فنميل إليها، وذلك بالرجوع إلى الطبيب الاجتماعي وهو الفقيه، فكما أن الطبيب البدني يتخرّج من كلية الطب، فإن الطبيب الاجتماعي يتخرّج من الأكاديمية العلمية الإسلامية. وإذا كان عنده قابلية ولياقة فعلينا أن نسأله عندما

تطراً مثل تلك الأمور.

ومن الأمثلة على الفتنة في المجال السلمي ما يرويه القرطبي حيث يقول: كان ابن وهب يقول: يجب الخروج من المجتمع الذي يصنع فيه المنكر علانية، اقتداءً بفعل أبي الدرداء^(١). فلو صار المنكر في بلاد ما معروفاً، وليس هناك من يستنكر فعلى المسلم أن يخرج منه إلى بلد يحافظ فيه على أهله وأسرته ونفسه؛ لأن المنكر إذا تفشى في المجتمع فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يخرج من نطاق المجتمع، فيجرفه الإطار الاجتماعي.

فمثلاً على صعيد التلفزيون هناك بعض القنوات المفيدة التي تعلم النظريات، أو التي تكون ذات فوائد عقلانية، أو حتى بعض التسلية البريئة، ولكن فيه قنوات تنتهي إلى المنكر، وتفسد الشخص وعائلته. فإن قلنا للبعض: حاول أن تمنع عائلتك عن المنكر، قال: لا أستطيع؛ ذلك أن التيار أصبح عند الناس هكذا. في حين أن هذا التيار نحن الذين نصنعه، ومن يرد أن يصلح فعليه أن يعاكس التيار، فإن لم يعاكسه أخذه السيل وأصبح مثل الآخرين.

فالقرآن يقول: اتقوا هذه الفتن؛ لأنك عندما تصاب بمرض في الجسم تذهب إلى الطبيب، لكن إن أصابك الوباء الأخلاقي والاجتماعي فعليك ألا تبقى متفرجاً، والمسؤولية هنا قد تكون أكبر. فعلى أن نحمي أنفسنا من الأمراض الاجتماعية التي يفتن بها الناس.

أما فعل أبي الدرداء المذكور في كلام القرطبي فهو أنه اختلف مع معاوية، والاثنان من الصحابة، والسبب أن معاوية كان يبيع الذهب المصنوع كالأواني الذهبية بثمن أكثر منه في الموزون، وهذا ربا بإجماع المسلمين؛ لأنه زيادة

على أحد المتساويين جنساً مما يكال أو يوزن، فلما قيل لمعاوية في ذلك قال: لا أرى بذلك بأساً^(١).

والناس عندما يرون الخليفة كذلك يكونون مثله؛ إذ هم على دين ملوكهم، كما نرى نحن الآن أن البنوك تتعامل بشكل علني بالربا، مع العلم أن للربا آثاراً ماحقة، ومن آثاره النقيصة من حيث تُطلب الزيادة؛ فيكون الأمر عكس ما أريد له، ومن يعمل بالربا فإنما يريد الزيادة. والواقع أن الحال يصبح عكس ذلك، فليس هناك من يعمل بالربا وتكون عنده زيادة أبداً: ﴿يَفْحَقُ اللَّهُ الزَّيَّا وَيُزَيِّي الصَّدَقَاتِ﴾^(٢). وهذا معلوم بالتجربة، وحتى في البلدان المتقدمة لم تستطع الأموال الربوية أن تحقق الرفاه الاجتماعي أبداً؛ لأن الله وعد بمحق الربا.

فكان معاوية يقول: لا أرى بذلك بأساً. فقال أبو الدرداء: لا أساكنك ببلد أنت فيه؛ لأن الله أمرني أن أتقي ما يفتن به الناس، حيث قال: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾. ثم خرج من الشام. فكان أبو وهب يقول: أقتدي بفعل أبي الدرداء. باعتبار أنه صحابي، وفعل الصحابي حجة عند مذاهب المسلمين.

وهنا مفارقة ألفت إليها النظر، وهي أن السنة ما هي إلا فعل النبي ﷺ أو قوله أو تقريره؛ فالفعل والقول من النبي ﷺ واضحان، أما التقرير فهو أن أحداً يفعل شيئاً أمام عين النبي ﷺ فيقره عليه، ولا يعترض على فعله. أما مذاهب المسلمين فيتوسعون في ذلك، ويعتبرون فعل الصحابي سنة أيضاً؛ مدعين أن الصحابي إذا فعل شيئاً فلا بد أن يكون قد رأى النبي ﷺ فعله، أو أمره به، أو أقره عليه. فإن كان رأي الصحابي سنة فالإمام الحسن والحسين ﷺ صحابيان، فلم لا نعتبر

(١) المصدر نفسه، الموطأ ٢: ٦٣٤، المستصفى: ١١٩.

(٢) البقرة: ٢٧٦.

فعلهما سنة؟

المبحث الثالث: إشكالية شمولية الفتنة

ثم انتقلت الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، وهنا يرد السؤال التالي: ما ذنب هؤلاء غير الظالمين الذين لم يشتركوا في الفتنة، حتى تصيبهم؟ إننا نقرأ في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١) ونقرأ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٢)؛ فإن كان الإنسان يؤخذ بعمله، فما ذنب هذا الذي تصيبه الفتنة وهو لم يصنع شيئاً؟ فالآية تقول: إن الفتنة لا تصيب الظالمين فقط، وإنما تتعدى لكل المجتمع.

جواب الفخر الرازي حول ذلك

يجيب الفخر الرازي على ذلك بجوابين، ولا يمكن أن نعتبرهما رأيين ناهضين كما سترى^(٣)؛

الرأي الأول: أن الله حق التصرف في ملكه

فالله خالق الإنسان ومالكة، وهو يتصرف فيه كيف يشاء، وليس لأحد أن يعترض عليه في التصرف في ملكه.

وهذا ليس جواباً؛ لأن الله وإن كان يتصرف بعباده ولا يُسأل عن ذلك، لكنه لا يتصرف بما هو خلاف العقل؛ لأنه تعبدنا بالعقل وأمرنا بأوامر لا تصطدم مع العقل العام، فليس من الممكن أن يظلم الناس؛ لأن الظلم خلاف العدل. فالله تعالى أمر بالعدل وعمل به، وأقام السماوات والأرض على أساسه، فلا نستطيع القول: إنه يتصرف بملكه كيف يشاء، فحاشا لله أن يعمل القبيح. إذن إصابة البريء بالفتنة

(١) الأنعام: ١٦٤، الاسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٢) التفسير الكبير ١٥: ١٢٠ - ١٢١.

(٣) المدثر: ٣٨.

ظلم قبيح، ولو أنك الآن رأيت من يعتدي على بريء ولو كان ملكاً له فإنك تستنكر ذلك في نفسك.

الثاني: إثابة من أصابته الفتنة

فإن في هذا لطفاً وثواباً لمن أصابتهم أضرار الفتنة وهم لم يشتركوا فيها. فالله بلطفه سيعطيهم العوض عن هذا الظلم الذي أصابهم. وهذا عبث كما ترى؛ إذ يمكن من البداية ألا يعرضه للعقاب، ولا يعطيه الثواب، والله منزّه تعالى عن العبث.

فالرأي الصحيح أن المجتمع إزاء الفتنة ينقسم قسمين: قسم يدخل في صلب الفتنة ويأتي المنكر الذي يضرّ المجتمع، والقسم الآخر يتوجّب عليه أن ينكر المنكر، ويأخذ على يد أهله، ويأمر بالمعروف. فترك الإنكار من هؤلاء ظلم، والظلم يعاقب عليه الإنسان. تقول الرواية عن النبي ﷺ في حديث حسن^(١): «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقابه»^(٢).

المبحث الرابع: الآراء في السلطان الجائر

ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن عقائد المسلمين حول هذه النقطة شطران: القسم الأول الشيعة والمعتزلة، والقسم الآخر المذاهب الإسلامية الأخرى.

رأي الأشاعرة في المسألة

فرأي المذاهب الإسلامية الأخرى أن من يحكم المسلمين حتى لو كان

(١) نقل القرطبي عن أبي عيسى أنه قال: هذا حديث حسن. الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، مسند أحمد ١: ٧، الجامع الصحيح ٣: ٣١٦ / ٢٢٥٧، كنز العمال ٣: ٧٧ /

فاسقاً ظالماً جاهلاً، فليس من حق أحد أن ينكر عليه أو يخرج؛ لأن الإنكار يؤدي إلى سفك الدم، والصراع والمشاكل. وهذه النظرية تجدها في كتاب (المواقف) ^(١) مثلاً، و(الأحكام السلطانية) للماوردي، و(مآثر الإنافة) للقلقشندي، و(المذاهب الإسلامية) لأبي زهرة، وغير هؤلاء ^(٢). بل إنهم يقولون:

(١) المواقف في علم الكلام ٨: ٣٥١ - ٣٥٣ (ط مصر ١٣٢٥ هـ).

(٢) روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس». قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: «تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع».

وروى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى من إمامه شيئاً يكرهه فليصبر؛ فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، مات ميتة جاهلية».

وروى: «ليس أحد خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية».

وروى عن ابن عمر أنه حين كان من أمر الحرية ما كان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم ٦: ٢٠ - ٢٢.

وقال النووي: «وأما الخروج عليهم - أي سلاطين الجور - وقتالهم، فحرام؛ بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينزل السلطان بالفسق».

ثم قال: «وقال جماهير أهل السنة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: لا ينزل - أي السلطان الجائر - بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك». صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٢٩، وانظر سنن البيهقي ٢: ١٥٨ - ١٥٩ / ٨.

وقال القاضي الباقلاني ما ملخصه: قال الجمهور من أهل الإثبات وأصحاب الحديث: لا ينخلع الإمام بنفسه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبدان وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه، بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في كل شيء مما يدعو إليه من معاصي الله. واحتجوا في ذلك بأخبار كثيرة متضافرة عن النبي ﷺ وعن الصحابة في وجوب طاعة الأئمة وإن جاروا واستأثروا بالأموال، وأنه قال ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجذع، ولو لعبد حبشي، وصلّوا وراء كل برّ وفاجر».

حتى لو وصل إلى الحكم جاهل أو ظالم، فيجب ألا تنام ليلة واحدة وليس في عنقك بيعة له^(١).

رأي الإمامية والمعتزلة

ويقابل هذا الفكر فكر أهل البيت عليهم السلام. قال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكِنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٢)، وقال النبي صلى الله عليه وآله على ما يرويه الإمام الحسين عليه السلام: «من رأى منكم سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرمات الله، ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بقول ولا فعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»^(٣).

وإنما حورب مذهب أهل البيت من قبل عبد الملك بن مروان ومن سبقه أو لحقه؛ لأنه يمثل فكراً خطراً عليهم، فحاربوه مثلاً بالروايات التي تنسب إليهم الكذب، وتفترى عليهم.

من مفتريات الشاطبي على الشيعة

وعندما ترجع إلى المصادر تجد أن هناك قضايا تنسب لهذا المذهب لا علاقة له بها لا من قريب ولا من بعيد. يقول الشاطبي صاحب كتاب (الاعتصام): إن الشيعة يجوزون أن يتزوج الإنسان (١٨) امرأة في وقت واحد. ففي أي مكان وجد الشاطبي هذا الافتراء؟ في حين أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «لا يحل لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»^(٤).

❦ وروي أنه قال: «أطعمهم وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك». التمهيد: ١٥٢ (ط القاهرة ١٣٦٦ هـ).
(١) انظر الهامش السابق.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) انظر: بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٠٤.

(٤) فقه القرآن ٢: ٩٩.

ويقول: إن الشيعة يفسرون قوله تعالى: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(١)، بأن المثنى اثنين مع اثنين، فيكون الناتج أربعة، ثم ثلاث مع ثلاث فيكون الناتج ستة، ورباع أي أربعة مع أربعة، فيكون الناتج ثمانية، ثم يكون المجموع (١٨) امرأة!^(٢) ومن يمرّ بهذه النظرية يقف موقفاً سلبياً من الشيعة بلا شك، لكنها افتراء لا واقع له. ومن المخجل أن نرى في تاريخ المسلمين مثل هذا التهافت؛ لأن المسلمين اليوم بأمس الحاجة إلى التماسك والتعاون، والدين اليوم يتعرض إلى إيادة، والمجتمع إلى تفكك وانحلال، ونحن بأمس الحاجة إلى الاتحاد والتلاحم والتراحم، ونحن نقف موقف المتفرّج من اليهودية وهي تفتك بنا، وتعبث بمقدساتنا. يقول الإمام الصادق عليه السلام لأحد أتباعه: «ابتلينا بثلاث: من نقلوا عنا ما لم نقل، ومن قالوا فينا ما لا نستحق، ومن نسبوا إلى أعدائنا ما ليس فيهم، وشتموهم حتى شتمونا»^(٣).

فلا بد أن نكون حذرين؛ لأن في التاريخ دسّاً وحسداً ومطامع وأهواء، والإمام كما ترى يحذّر من هذه الأصناف الثلاثة: فالصنف الأول ينقل عن الأئمة ما لم يقولوه، والأئمة يقولون: «ما أتاكم عنا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوا به، وما خالفه فاضربوا به عرض الجدار»^(٤). والصنف الثاني المغالون، والثالث من راحوا ينسبون إلى أعداء أهل البيت ما ليس فيهم، ثم سبوه، فكانت

(١) النساء: ٣.

(٢) مرّ مثل هذا الاتهام الباطل الشنيع وردّه في ج ٢ ص ٣١٩ من موسوعتنا هذه.

(٣) في الإرشاد ١: ٢٨٢، وفي شرح نهج البلاغة ٧: ٧١ عن أمير المؤمنين عليه السلام مانصّه: «يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء».

(٤) الاستبصار ٣: ١٥٨ / ٥٧٣، وفيه: فاطر حوه بدل: فاضربوا به عرض الحائط، مجمع البيان

النتيجة أن أعادوا السب عليهم عليه السلام.

فالأية تريد أن تقول: لا بد أن تتكروا المنكر، ولا يقولن أحد: لا شأن لي بذلك، فإن الفتنة ستصيبه أيضاً. يقول الحديث: «ثلاثة من الذنوب تُعَجِّلُ عقوبتها ولا تؤخر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»^(١). لأن عقوق الوالدين تخريب للمجتمع، فلا يمكن أن يكون في المجتمع انسجام أو تماسك إذا لم يكن الابن منسجماً مع الوالدين. فالمجتمع نسيج، فإذا بقيت فيه ثغرة غير متلازمة صار ذلك عيباً فيه. والبغي على الناس أن يعتدي أحد على الناس، والباقون ينظرون إليه، فهم بهذا اشتركوا معه في الجريمة بسكوتهم عن الظلم، والسكوت عن الظلم ظلم. وغريزة عدم السكوت عن الظلم أودعت حتى في الحيوانات.

وبالعكس، هناك روايات تقول إن التظالم إذا ارتفع من الناس عنهم الخير والرخاء، وهذا ما نلاحظه الآن في البلدان الكافرة، فهم وإن كانوا يمارسون المنكر علناً، لكن الله لا يعجل لهم العقوبة في الدنيا، إنما يصدق عليهم بالخير، وذلك أنهم لم يتظالموا، فرحمهم الله. وبالعكس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

وأما كفر الإحسان فإنك عندما تحسن لإنسان لا تتوقع منه أن يتحول إلى عدو لك على الأقل، فهناك نفوس مريضة لئيمة، تحسن إليها العمر كله، لكنها تُعاقبك في النهاية أشد المعاقبة.

(١) الأماي (المفيد): ٢٣٧ / ١، الأماي (الطوسي): ١٤ / ١٧.

(٢) الرعد: ١١.

ومن هنا تدرك معنى الكلمة المشهورة: «اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ»^(١). فمن الناس من يوَلِّدُ عنده الإحسان شعوراً بالنقص، ويجعله ينتقم. يقول الطبرسي في (مجمع البيان) نقلاً عن الثعلبي: قال النبي ﷺ لعمار بن ياسر: «يا عمار ستكون من بعدي هنات، حتى يختلف السيف فيما بينهم، فإذا رأيت ذلك فالزم هذا الأصلع الجالس على يميني فإنه لا يدعوك إلى ردى ولا يصدك عن هدى. يا عمار، إذا سلك الناس وادياً، وسلك علي وادياً، فاسلك وادي علي. يا عمار، طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله»^(٢).

وكان ﷺ وعد عماراً أن يكون آخر شرابه من الدنيا ضياعاً من لبن، وتقتله الفئة الباغية^(٣).

والغريب أنني رأيت أحد الحفاظ عندما يستعرض واقعة صفين يقول: وعندما قتل عمار مع علي اتضح أن الحق مع علي^(٤). أي أن الحق لم يتضح إلا عندما قتل

(١) قال الفتني: «في المقاصد: اتق شرَّ من أحسنت إليه، ولا أعرفه، ويشبه أن يكون كلام بعض السلف، وهو محمول على اللثام». تذكرة الموضوعات: ٦٨ - ٦٩.

وقال العجلوني: «اتق شرَّ من أحسنت إليه، وفي لفظ: من تحسن إليه. قال في (الأصل): لا أعرفه، ويشبه أن يكون من كلام بعض السلف، قال: وليس على إطلاقه بل هو محمول على اللثام دون الكرام؛ ويشهد له ما في (المجالسة) للدينوري عن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه): الكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا لطف». كشف الخفاء ١: ٤٣ - ٤٤ / ٨٦. (٢) مجمع البيان ٤: ٤٥٣.

(٣) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٢: ٢٦٣ - ٢٦٤، وغيرها كثير.

(٤) قريب منه مقولة الشهاب الخفاجي: «وفي الحديث عنه ﷺ: «إذا اختلف الناس كان ابن سمية مع الحق». وابن سمية هو عمار، كان مع علي (كرم الله وجهه)، وهذا هو الذي ندين الله به، وهو أن علياً (كرم الله وجهه) على الحق، ومجتهد مصيب في عدم تسليم قتلة عثمان»، وإن كان - حسب الظاهر - في دلالة الحديث أمر آخر.

عمار، ولولا ذلك لما عرفنا أن علياً عليه السلام على الحق. وهذا من الإجحاف بعلي عليه السلام، ونهجه القويم، فعلي عليه السلام لا يحتاج إلى مثل هذه التزكية.

المبحث الخامس: العقاب في الدنيا والآخرة

ثم قالت الآية: ﴿وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، والعقاب يكون في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فكما ذكرنا؛ لأن الإنسان إذا ساهم في الباطل فإنه يساهم في بناء إطار اجتماعي يؤدي إلى الظلم وإلحاق الأذى بعباد الله. فالجريمة فيها إيحائية، وتشجيع على الجريمة، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١)؛ لأن المعتدي يسهل الاعتداء على الدماء، وتصبح الدماء شيئاً فشيئاً لا حرمة لها، ويصبح المجتمع غابة يأكل فيها القوي الضعيف. ومن يأكل الحرام يشجع على أكله، وذلك أشبه بمن أصيب بوباء جسدي معد، فإذا نشرت البواء الخلقي خلقت إطاراً اجتماعياً لذلك، والفرد بعد ذلك لا يستطيع التمرّد على هذا الإطار.

ومن ينشأ في مجتمع ملوث فإنه يتعلّم التلوث، وبالعكس؛ لذا أمرنا الله ألا نصاحب إلا من نثق به؛ لأن الصحبة تُعدي. فلا بد إذن من إنكار الظلم والمنكر.

تقول الرواية: «لتأمرن بالمعروف ولتنهعن عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٢).

إننا نصنع الكثير من المجرمين الظالمين، ثم ندعو الله أن يخلصنا منهم، فهذه

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) الكافي ٥: ٥٦ / ٣، تهذيب الأحكام ٦: ١٧٦ / ٣٥٢، وقد روي عن أبي الحسن عليه السلام، ورواه عن رسول الله ﷺ في مجمع الزوائد ٧: ٢٦٦.

الآفة نحن ربيناها في المجتمع، ولا بدّ أن تأكلنا في النهاية؛ وذلك بتركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما عقاب الآخرة فالنار، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَغْتَدْنَا بِلُطْغَلِيمَ نَاراً أَخَاطَ بِهِمْ سُرَادِقَهَا﴾^(١).

ومن هنا يشير البعض هذا التساؤل: هل كان تحرّك الإمام الحسين عليه السلام ضد هؤلاء صحيحاً؟ ألم يكن بوسعهم أن يبقى في مكانه ولا يعرض نفسه للذين غدروا به أو الذين قتلوه؟ وهذا السؤال لا بد أن يطرح على الأنبياء أيضاً، فنقول لهم: لم خرجتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ ولم جئتم بشرائع تغاير النظام الاجتماعي الذي كان سائداً في زمانكم؟

إن الأنبياء جاؤوا لإصلاح المجتمع، وهو يصلح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذان إن أمكن أن تفعلهما بالقلب كفى، وإلا فباللسان، فإن لم ينفع فباليد والسيف. وهذا هو نظام الحياة، وكلّ الأنبياء تعرضوا للأذى، وضخّوا من أجل رسالاتهم، وأي نبي لم يتعرّض للأذى أو الرمي بالحجارة أو القتل؟ فهل ننكر عليهم كما يُنكر ذلك على الإمام الحسين عليه السلام؟

ثم إن الإمام الحسين عليه السلام أحد سيدي شباب أهل الجنة^(٢)، وهو إمام إن قام وإن

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وألفاظ مختلفة عند إخواننا أهل السنة، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجه ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرک علی الصحيحین ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٢٨١، شرح النووي علی صحيح مسلم ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

قعد^(١)، ومن البلاهة أن نعلمه تكليفه الشرعي، إنه وليد منبع الرسالة، وربى في حضن رسول الله ﷺ، يتلقى القرآن وفعل النبي ﷺ صباح مساء. فهو ضمه ﷺ إذن ضمن القرآن والسنة؛ لأنه رأى فتنة ستعم المجتمع، ولا بد من إنكار المنكر. وللمجتمع مقدسات هي الأعراض ثم الأموال ثم الدماء ثم الكرامة، وكلها عرّضها الأمويون للهدر، وقد خرج الإمام الحسين ﷺ؛ لأن الناس خرجوا عن المعروف، ونظروا إلى المنكر فأقروه؛ وأقروا من تربى على الفهود والقرود، وراح يجلس على كرسي الخلافة ويقول:

أقول لصحب ضقت الكأس شملهم وداعي صبايات الهوى يترنم
خذوا بنصيب من نعيم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم^(٢)

فلما وصل الأمر إلى هذا الحد تهيأ الإمام الحسين ﷺ للعلاج، وكان العلاج يتطلب التضحية:

وما رأى السبط للدين الحنيف شفاً إلا إذا دمه في كربلا سفا
وما سمعنا عليلاً لا علاج له إلا بنفس مداويه إذا هلكا

واستعد الإمام الحسين ﷺ للتضحية، وخرج من مسجد النبي ﷺ في المدينة يرفع شعار:

لا ذعرت السوام في فلق الصب ح مغيراً ولا دُعيت يزيدا
يوم أعطي من المهانة ضيماً والمنايا يرصدتني أن احيدا^(٣)

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، كفاية الأثر: ٣٨.

(٢) جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١.

(٣) البيتان لابن مفرغ الحميري، وقد تمثل بهما ﷺ. شرح الأخبار ١٤٤: ١٤٤، مشير الأحزان:

وأعدّ للأمر عدّته، وكان تخطيطه من المدينة، وكان يعرف أن المعركة تريد وقوداً، وناهيك به من وقود، أفلاذ كبد رسول الله ﷺ. وأبناء أمير المؤمنين وفاطمة عليها السلام. وخيرة أبناء الأمصار من أصحابه المتجهّدين بالأسحار، العباد الأتقياء، بل كان الوقود يحتاج إلى التضحية حتى بالعيال، فهياً عياله ونفسه لمقارعة الباطل.

نعم، وضع خدّه الشريف على قبر النبي ﷺ مودعاً ولسان حاله يقول: «يا رسول الله، أنا فرحك وابن فرختك»^(١).

فكان لسان حاله: إني خارج لأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر تجسيداً لأوامرك. وشكا إليه من أمته ثم ودّعه وخرج فمرّ على بعض بيوت الهاشميين يودّعهم، وأخرج عياله بذلك الشكل الشجي، وقابلته إحدى بناته وهي فاطمة التي أراد أن يبقّيها لأنها كانت مريضة لا قابلية لها على الحركة، فأتى بها إلى بيت أم سلمة (رض)، فألحّت عليه فاطمة، ثم راحت تطوف على المحامل واحداً بعد واحد، تودّع أهلها، ثم جاءت إلى الإمام الحسين عليه السلام فتعلّقت بركابه، وقالت: أبه خذني معكم، والله لا طاقة لي على فراقكم. قال: بنية، إنك مريضة لا طاقة لك على الحركة، ومن الممكن أن أرسل إليك فيما بعد من يصحبك إلينا إذا تغيرت الظروف.

ثم تركها في بيت أم سلمة (رض)، وبقيت تنتظر الأخبار حتى رجع الناعي ينعي الإمام الحسين عليه السلام، يقول المؤرّخون: خرجت تقوم ويقعدها الألم، وهي تقول: أيهذا الناعي، قف لي قليلاً حتى أسألك. فوقف بشر، فقالت: ما وراءك؟

٢٧. تاريخ الطبري ٤: ٢٥٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٤٨، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٠٤.

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٧، الفتوح ٥: ١٩، مقتل الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ١: ١٨٦.

أخبرني عن الإمام الحسين عليه السلام. فقال لها: الخبر هناك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، وسوف أخبر الناس بذلك. فقالت له: أنا عليّة لا طاقة لي على الانتظار. فقال لها: بنية، عظم الله لك الأجر بأبي عبد الله:

يناعي ريش بهونك أنشدك وجاوبني

ما به ألح بممشاك عليّة والمرض ذبني
عسندك علم باخباري يو ماعندك انتّه اخبار

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا



مشروعية الجوار في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ مَنْ مِّنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ
يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُشْحَرُونَ ^(١) .

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: معنى الملكوت

يذكر بعض المفسرين رأيين في معنى الملكوت الوارد في الآية الكريمة:

الأول: أنه تمكّن المالك ممّا يملك

فالآية الكريمة في معرض التقرير، ومعنى التقرير هنا أنها تريد أن تلفت نظر الناس إلى أن هذا الكون بيد قوة مدبرة متمكنة من أصول الأشياء؛ لأن الملكوت صيغة مبالغة في الملك، أي أنه أكثر المالكين تمكناً ممّا يملك. وللتوضيح أكثر نقول: إن الملكية هي إضافة اعتبارية، ونعبر عنها بأنها تمكين من الانتفاع، فعندما أقول: إن هذا البيت ملكي، فمعنى هذا أنني أتمكن من الانتفاع به، وإلا فإن الملكية الحقيقية ليست موجودة عندنا؛ لأننا في الدنيا لا نملك الأشياء إلى الأبد، وإنما

تزول عنا بمجرد الموت. فملكيتنا للأشياء هي إضافة اعتبارية.

التمكين خارجي وذاتي

وإذا لم يُمكنّا الله تعالى من الانتفاع بها فلن ننتفع بها أبداً. فهناك تمكين خارجي، وتمكين ذاتي، فالتمكين الخارجي أن تكون عندي مثلاً حديقة جميلة مثمرة، ولكن فائدة هذه الحديقة لا تظهر لي إذا كنت أعمى لا أرى ما فيها، أو لا تتحقق لي إذا كنت مريضاً لا أستطيع أن آكل منها^(١)؛ فهذا هو التمكن الخارجي. أما التمكن الذاتي فهو أن يكون الإنسان متمكناً من شيء لكنه بخيل مثلاً، فليس لديه الاستعداد الذاتي للانتفاع بما يملك، فيبقى كالحِمَال الذي يحمل لغيره ولا يستفيد هو مما يحمل^(٢). فإذا لم يُمكنّا الله تعالى من الانتفاع بالأشياء فلن ننتفع بها أبداً.

فالملكية الواقعية هي لله عز وجل، فهو تعالى في غنى عما يملك، أما نحن فنحتاج لما في أيدينا. ثم إن ملكية الله لا تزول في حال من الأحوال، فالمُلك لله الواحد القهار.

فعندما يعبر عن الملك بـ (ملكوت) فإنه إنما يشير إلى أرقى أنواع الملكية، وهي الملكية الحقيقية، فالله بيده ملكوت كل شيء.

الثاني: أنه خزائن كل شيء

فهو تعالى يعطي كل الأشياء المدد؛ فلو ألقينا نظرة على نسبة الأوكسجين البالغة ٢١ ٪ من نسبة الهواء، وعرفنا أن سكان الكرة الأرضية يبلغون حوالي

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كم من أكلة منعت أكلات» نهج البلاغة / الحكمة : ١٧١.

(٢) وكذلك هم اليهود، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾. الجمعة: ٥.

خَمسة مليارات، وهم يستهلكون الأوكسجين باستمرار دون أن تنقص نسبته في الهواء، لعرفنا أنه تعالى بيده ملكوت كل شيء، وهكذا قل في الشمس التي يعطيها القدرة على أن تمدنا بالشعاع، والكواكب التي يعطيها القدرة على التأثير في المجموعة التي تنتمي إليها، والبحار التي يعطيها القابلية على التبخير وتصعيد كمية من الماء وإرجاع الباقي ضمن دورة منتظمة للماء، وهكذا. فأصول الأشياء بيد الله تعالى.

فالباري تعالى يريد أن يقرّرنا بنعمته، فيقول: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مَنْ يستطيع أن يدّعي أن بيده ملكوت كل شيء غير الله تعالى؟ هل يستطيع الإنسان أن يدّعي ذلك؟ انظر إلى الإنسان كيف يعرف حجمه حين يأتيه الأجل، وكيف تتسلسل أمامه الخواطر من أنه سيترك بيوته وأمواله وأولاده وكل شيء، ثم يخرج والحسرة تملأ قلبه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اجتمعت عليه سكرة الموت وحسرة الفوت»^(١).

فالقرآن الكريم يريد أن يلفت أنظارنا إلى أن كل ما في أيدينا سوف يؤخذ منا، ويُتزع من أيدينا شئنا أم أبينا، ويبقى الملك الحقيقي بيد الله تعالى.

المبحث الثاني: العقود المعاطاتية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فما معنى ذلك؟ نحن نفهم من الإجارة العقد الاجتماعي العملي، فهناك نوع من العقود نسميها «المعاطاتية»، وهي العقود الدارجة في المجتمع، كمن يركب في سيارة وهو يعرف أن أجرتها من هذا المكان إلى ذاك المكان دينار واحد، فهذا لا يحتاج إلى عقد شرعي بأن يقول له: استأجرتك من هذا المكان إلى ذاك بمبلغ كذا.

وكذا من يشتري من صاحب الدكان شيئاً يعرف قيمته، فهذا وأمثاله من العقود المعاطاتية لا تحتاج إلى عقد شرعي لفظي، وهذه العقود نسميها أيضاً العقود الاجتماعية.

وهناك نوع من العقود المعاطاتية الاجتماعية وهي أن يأتي شخص فيشتري بيتاً مجاوراً لبيت شخص آخر، فتترتب حقوق الجوار تلقائياً دون أن يقول له: صرت جارك، ولي الحقّ الفلاني والفلاني. أما حقوق الجوار، وحدودها وأحكامها، فهي ممّا نصّت عليه كتب الفقه^(١)، وليست هي موضوع الحديث بشكل مفصل هنا.

المبحث الثالث: معنى الإجارة عند المفسرين

إن موضوع حديثنا هو الاستجارة، أي طلب الإجارة، بأن يطلب أحد ما حماية الآخر ويستجير به. وللمفسرين في الإجارة الواردة في الآية الكريمة آراء:

الأول: أنها تكون يوم القيامة

فالله تعالى يُمكن أن يجير من يشاء يوم القيامة بأن يخلّصه من العذاب والملاحقة في الحقوق الخاصّة به تعالى، أما الحقوق التي تخصّ العباد فالله تعالى يحقق العدل من خلال أخذ الحقوق لأصحابها. وليس لأحد أن يطلب من الله أن يعفو عن أحد إلاّ من أذن لهم ونصّبهم لذلك: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢). وهؤلاء هم الأنبياء أو الأولياء، أما أن يُعَلّي أحد على الله فيقول مثلاً: «حقّ على الله أن يعفو عن فلان»، فهذا غير ممكن أبداً في حقّه تعالى.

(١) انظر: تذكرة الفقهاء ٩: ٣٤٤، مسالك الأفهام ٣: ٩٩، وانظر محاضرة (الجوار في الإسلام) في ج ١ ص ٢٤١ - ص ٢٥٩ من كتابنا هذا، والمبحث الخامس من محاضرة (المنافقون) في ج ١ ص ٣٢٣ - ٣٢٦.
(٢) البقرة: ٢٥٥.

ونحن في كثير من الأحيان نتجراً على الله تعالى فنقول: لماذا لا يرفع الله تعالى هذا الظلم الذي يتعرض له الشعب الفلاني أو الشخص الفلاني؟ ونحن لا ندري ما هي المصلحة، والله تعالى أرحم بعباده، ولا يمكن أن أكون أرحم منه، وهو أعلم بدقائق الأمور. وليس من الصحيح أن أقترح أنا على الله تعالى؛ ولذلك كان يقال لأبي ذر: ما تشتهي؟ فيقول: رحمة ربي^(١).

الثاني: أنه تعالى يجبر ولا يمكن لأحد أن يجبر عليه
فمعنى ﴿يُجْبَرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أنه يجبر ولا يستطيع أحد أن يجبر عليه تعالى، على العكس من الإنسان، فالإنسان قد يجبر إنساناً، ولكن يأتي من ينتزع منه المستجير انتزاعاً، وقد حدث ذلك في تاريخنا كثيراً، ولكن من يستطيع أن ينازع الله فينتزع المستجير منه؟ نعم، لا يقوى أحد على أن يجبر عليه ليتغلى عن إجارته، فالأمور بيده، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٢).

الثالث: الإجارة التشريعية
أي الإجارة لمن حكم الله بإجارته، فهناك من يجار شرعاً، وهناك من لا يجار شرعاً. فلو أن أحداً سفك دماً، ثم لجأ إلى بيت الله مستجيراً به، فهل يجوز للحاكم الشرعي المستكمل للشرائط الشرعية أن يأخذ هذا القاتل من البيت قسراً ليقيم عليه الحد؟ الجواب: كلاً، لا يجوز أخذه ما دام في الكعبة؛ لأنه مستجير بالله. وعند العقلاء أن من يستجير بأحد فيحميه، فذلك من الأفعال المحمودة. وليس معنى ذلك أننا نغفل أخذ الحق، فالحكم الشرعي أن هذا القاتل لا يؤخذ قسراً من بيت الله تعالى، وإنما يترك فيحبس عنه الطعام والشراب حتى يضطر إلى الخروج، ثم

(١) تفسير القمي ١: ٢٩٥، بحار الأنوار ٢٢: ٤٣٠.

(٢) الأنعام: ١٨.

يؤخذ فيقام عليه الحد. وهذا المعنى من المعاني الحضارية قبل أن يكون من المعاني الشرعية.

أحمى من مجير الجراد

كان مُدَلِّج بن سويد الطائي من رؤساء العرب، وكان يلقب بـ«مجير الجراد»، والسبب في ذلك أن هذا الرجل كان أيام الربيع يخرج إلى الصحراء، فيضرب له خباء، فجاء الجراد يوماً فتجمع حول خيمته، فرفع طرف خبائه فرأى نفرأ من طيئ يحملون أوانيهم ليأخذوا الجراد من حول الخباء، فسألهم: ما الخبر؟ قالوا: هذا رجل من الجراد هبط إلى جانبك، ونريد أخذه - وكان العرب يسمون مجموعة الجراد رجلاً^(١) - فقال: إن هذا الجراد استجار بي، وليس لكم أن تأخذوه وهو حول الخباء، ثم نشر كنانته وهدد من يأخذ شيئاً من الجراد بالقتل، فحماء إلى أن اشتدت الشمس، فطار الجراد، فسُمِّي «مجير الجراد»، وقيل: أحمى من مجير الجراد^(٢).

وهذه المسألة من المسائل الحضارية التي قد نستغربها نحن اليوم، مع أنها ذات علاقة بمبدأ. ومن ذلك كانت العرب تستجير لا بالحي فقط، إنما تستجير حتى بالميت، فكانوا يستجيرون بقبر الكريم فيجارون. فكانت العرب تستجير بقبر حاتم بن عبد الله الطائي، فيأتي القاتل مثلاً إلى قبر حاتم فيربط ناقته إلى جنب القبر، فيأتي ابن حاتم فيجيده، ويقوم بحُمالته^(٣). وكان هذا المعنى متركزاً في

(١) ترتيب إصلاح المنطق: ١٧٢ - الرجل، الصحاح ٤: ١٧٠٤ - رجل.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ١٥٢.

(٣) انظر الإصابة ٧: ٩٥ - ٩٦ / ٩٨٥٩، ومن ذلك ما روى ابن خلكان أن الفرزدق كان كثير التعظيم لقبر أبيه، فلم يستجر به أحد إلا أجاره، فمن ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفي لما ولّى تيمناً القيني حرب بلاد السند، دخل البصرة فجعل يخرج من أهلها من شاء، فجاءت

حضارتهم، وكانوا يعتزون به.

فهذا الرأي يعني أن الله في حالات معينة يحكم بأن البعض يجار، وليس من حق أحد أن يُشرّع فيقول: هذا يجار وهذا لا يجار. فالله تعالى يقول: إن هذا التشريع ليس من حق أحد سوى الله.

نعم لقد كان معنى الإجارة متأصلاً في نفوس العرب إلى حدّ الإفراط، وكان الرئيس أو البيت الذي لا يُجير أحداً يُعَيَّر بذلك. تقول العرب في أمثالها: «جار كجار أبي دؤاد»، فقد كان أبو دؤاد إذا مات جاره أعطى الدية لأهله^(٨٨)، وقد كان للعرب نوع من الإيجابيات ومكارم الأخلاق في حضارتهم لا تجدها في حضارات أخرى.

نرجع الآن إلى تأريخنا، فالحضارة الإسلامية لم تنسخ كل ما كان في الجاهلية،

عجوز إلى الفرزدق فقالت له: إني استجرت بقبر أبيك. وأنت منه بخصيات، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن تميم بن زيد القيني خرج بابن لي معه، ولا قرّة لعيني ولا كاسب لي غيره. فقال لها: وما اسم ابنك؟ قالت: خنيس. فكتب إلي تميم مع بعض من شخص إليه:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي	بظهر فلا يعيا عليّ جوابها
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منّة	لقبرة أم لايسوغ شرابها
أنتني فعاذت يا تميم بغالب	وبالحفرة السافي عليه ثرابها
وقد علم الأقوام أنك ماجد	وليث إذا ما الحرب شت شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم شكك في الاسم فلم يعرف أخنيس هو، أم حبيش؛ وذلك أن الحروف آنذاك غير منقوطة، فقال: انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا. فأصابوا ستة ما بين خنيس وحبيش، فوجه بهم إليه. وفيات الأعيان ٦: ٨٨.

(١) تصحيقات المحدثين (العسكري): ٨٣٩.

وفيه قال قيس بن زهير:

أحاول ما أحاول ثم آوي إلى جار كجار أبي دؤاد

المصدر نفسه، وانظر مجمع الأمثال ١: ١٠٩، ١٢٣.

وإنما أقرت الكثير من الأشياء، كقطع يد السارق، والدية وهما أمران كانا موجودين قبل الإسلام؛ لأن الإسلام أقر القضايا التي تتماشى مع العقل الإنساني. ومن جملة هذه القضايا قضية الجوار التي لعبت دوراً كبيراً في تأريخ الجاهلية وتاريخ الإسلام على حد سواء.

الرشيد يأمر بتشييد قبر أمير المؤمنين عليه السلام

كان هرون الرشيد يقصد البقعة الواقعة بين النجف والكوفة ليصطاد فيها، وقد كان البحر إلى جانب النجف، فالخليج يمتد إلى النجف، وكانت السفن تأتي من الصين لترسو إلى جانبها، وكانت النجف تسمى «ميناء الشرق إلى الغرب»، وكانت العرب تسمي هذه المنطقة «خَدَّ العذراء»^(١). فكان الرشيد يضرب أخيبته هناك، جالِباً معه الخيول وأدوات الصيد وغير ذلك، ولم يكن قبر أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك الزمان معروفاً، فكان يُخاف على قبره من الأمويين أن ينشوه، وهذه من أبسط الأمور عند الأمويين، فقد نبشوا قبر زيد بن علي بن الحسين عليه السلام فأخرجوه، ثم صلبوه أربع سنين منكوساً على رأسه، حتى عشتشت الفاختة في جوفه^(٢)، ولذلك قابلهم العباسيون بالمثل، فنبشوا قبورهم وأحرقوهم. وكلا العاملين غير صحيح؛ لأنه مُثَلَّة، والمُثَلَّة حرام، وبعيدة عن روح الإسلام^(٣).

نعم، كان قبر أمير المؤمنين عليه السلام غير معروف لهذا السبب، فلو عثر عليه الأمويون لنشروا عظامه نثراً، وليس ذلك بغريب، فنحن في هذا العصر أيضاً نشاهد أقلاماً وكتاباً إذا مرّوا بعلي عليه السلام تحولوا إلى نار تريد أن تُحرق هذا الرجل الذي كانت

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ٨٩، معجم البلدان ٢: ٢٤٨ - خدد، ٤: ٤٩ - الكوفة، فتوح البلدان ٢: ٢٤١ / ٧٠٢.

(٢) قريب منه ما في البداية والنهاية ٩: ٣٦٢.

(٣) قال الرسول ﷺ: «إياكم والمثلة ولو في الكلب العقور». انظر نهج البلاغة / الوصية: ٤٧.

حياته للإسلام.

أما العباسيون فكانوا أشدَّ وطأة وقسوة مع علي عليه السلام، حتى بلغ من شدّتهم أن أحد الفقهاء كان قد عرضت عليه مسألة فأفتى بها برأي علي عليه السلام، فبعث وراءه الرشيد وقال له: نحن نهينا أن يُفتى برأي علي بن أبي طالب، فإما أن تنتهي، وإلا قطع رأسك. يقول أحد الشعراء:

تالله إن كانت أمية قد أثت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أقامه بنو أبيه بمثله هذا لعمر ك قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا في قتله فقتبعوه رميما^(١)

وإلى يومك هذا يبقى قبر علي عليه السلام هدفاً لحقدهم، وإلا فما ذنب القبر حتى تسلط عليه المدافع؟ هل هذه رجولة وبطولة؟ إن هؤلاء يتصورون أن القبر إذا انهدم، فسوف ينهدم الكيان، وهذا من سخافاتهم، فإن تهاوت الأحجار فإن صرح المجد لا يتهاوى أبداً.

على أية حال، خرج الرشيد فرأى لمة من الأطباء، فأرسل عليها الكلاب والصقور، فكانت هذه الأطباء تهرب فتصل إلى أكمة مرتفعة قليلاً، فتلوذ بها، فترجع عنها الصقور والكلاب. وتكرر ذلك ثلاث مرّات، فاستغرب الرشيد وطلب من يسأله عن هذه الحال، فأتوه بأعرابي كان في ذلك المكان، فسأله عن هذه الأكمة، فسكت، فقال الرشيد: أراك سكت؟ فقال: أتكلم ولي الأمان؟ قال: نعم، فقال الأعرابي: هذا قبر علي بن أبي طالب عليه السلام، وإن أولاده يأتون في كلّ سنة لزيارته، وهذه صخرات موضوعة هنا، وقد أخفوه عن الأعين لئلا يتعرّض للنبس. فقام

(١) الأبيات للبسامي أبي الحسين علي بن محمد بن نصر. سير أعلام النبلاء ١٢: ٣٥، وقد نقل البيت الثالث فقط، البداية والنهاية ١١: ١٤٣.

الرشيد فتوضاً وصلى ركعتين، ثم وضع رأسه على القبر وقال: يا بن العم، أنا أعتذر إليك من موقفني مع ولدك، فهم يخرجون عليّ يقاتلونني، فأضطر أن أدفعهم عن نفسي. ثم أمر أن يُبنى على القبر بناية لها قُبّة، وأن يوضع عليها جَرّة خضراء على رأس القبة^(١).

المبحث الرابع: موارد عدم إجارة المشرك

إذن يتلخص عندنا أن الإجارة يقرّها الإسلام للجميع، بل وحتى للمشركين: ﴿وَإِنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتِجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾^(٢). ولهذا يقول الفقهاء: لو أن أحداً من المشركين استجار بأحد من المسلمين في دار الحرب، فمن حقّه أن يجيره. ويدخله مأمّنه، إلّا في حالتين: أن يكون جاسوساً، وأن يعرقل الجهاد.

ولهذا لما فتح النبي ﷺ مكة وهرب المشركون، كان لفاخته أخت أمير المؤمنين عليه السلام والمعروفة بأمّ هاني حموان، هما أخوا زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكانا ضمن من هرب عند الفتح، فدخل بيت أمّ هاني واستجارا بها، فأجارتهما.

تقول فاختة: بينا أنا كذلك إذ دخل عليّ رجل مدجج بالسلاح، ملثم لا يرى منه إلّا حدقتا عينيه، فرفع لثامه فإذا هو أخي علي عليه السلام، فاعتنقته وقبّلته، فقال: «إني أسمع موتاً في بيتك». فقلت: إنهما حمواي استجارا بي. فقال: «وتجيرين علي رسول الله ﷺ؟». ثم وضع يده على قائم سيفه، ودنا منهما، فجعللا يذرقان منه كما تذرق الحبارى - كما يقول السيد ابن طاوس - تقول أم هاني: فوضعت عليهما

(١) الغارات ٢: ٨٦٢-٨٦٣، ٨٨٤، جواهر المطالب ٢: ١١٤.

(٢) التوبة: ٦، وقد مرّت مفارقة الخوارج في تصرفاتهم تجاه هذه الآية في ج ١ ص ٢٥٣ من كتابنا هذا.

ثوباً، وقلت له: والله لا تصل إليهما.

فخرج ولم يكّد، فقلت: لأشكونه إلى رسول الله ﷺ. فجثت خباء النبي ﷺ بالبطحاء فوجدته خالياً إلا من فاطمة رضي الله عنها، فقلت: أين أبوك؟ قالت: «خرج». قلت: هل رأيت ما صنع بي أخي؟ قالت: «وماذا صنع؟». قلت: تفلّت على جوارى وأراد قتلها.

تقول أمّ هاني: فكانت فاطمة رضي الله عنها أشد عليّ من زوجها، وبيننا نحن كذلك إذ دخل النبي ﷺ وعلى وجهه الغبار، فألقى ما عليه من الثياب وقال: «كيف حالك يا فاختة؟». قلت: بخير يا رسول الله، هل رأيت ما صنع بي أخي؟ قال: «وماذا صنع؟». قلت: تفلّت على جوارى. قال: «ما كان له ذلك، قد أجرنا من أجرت يا أمّ هاني».

فخرجت وأنا فرحة، فدخلت عليهما وأخبرتتهما، وخيّرتهما بين الذهاب أو البقاء عندي، فبقيا عندي مدة يومين ثم ذهبا^(١).

فهذا المعنى من الإجارة متأصل أولاً في تراثنا كجزء من الحضارة، ثم جاء الإسلام فأقرّه، وفيه أحكام إسلامية مفصلة. فالله تعالى يجبر ولا يجار عليه.

ومن هذا المنطلق انتقل مسلم بن عقيل من دار المختار إلى دار هاني بن عروة؛ لأن مسلماً لما دخل الكوفة نزل دار المختار بن أبي عبيدة رضي الله عنه، وكان هناك لون من التنسيق بين مسلم والمختار بأن يخرج المختار ليكون بعيداً عن العيون، فيجمع السلاح والأنصار، وتواعدا على الخروج والنهضة في يوم معيّن، فخرج المختار إلى الحطوانية، وهي قرية في بابل. فلما دخل عبيد الله بن زياد الكوفة بعد قدومه

(١) لم تتوفر لدينا كتب السيد. انظر: الموطأ ١: ١٥٢، مسند أحمد ٦: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢، ١٥٤٣، ١٥٤٤، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٥٠، ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣، ١٥٥٤، ١٥٥٥، ١٥٥٦، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣، ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٥٧٩، ١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦، ١٥٨٧، ١٥٨٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣، ١٥٩٤، ١٥٩٥، ١٥٩٦، ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ١٦٠٥، ١٦٠٦، ١٦٠٧، ١٦٠٨، ١٦٠٩، ١٦١٠، ١٦١١، ١٦١٢، ١٦١٣، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦١٧، ١٦١٨، ١٦١٩، ١٦٢٠، ١٦٢١، ١٦٢٢، ١٦٢٣، ١٦٢٤، ١٦٢٥، ١٦٢٦، ١٦٢٧، ١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣١، ١٦٣٢، ١٦٣٣، ١٦٣٤،

من البصرة ونزل قصر الإمارة، أحسّ مسلم أن البقاء في هذه الدار ذو خطورة شديدة، ولا بد من الانتقال إلى مكان أكثر أمناً، فاستجار بهاني بن عروة فأجاره. كان هاني شيخ مراد، ويصفه المؤرخون بأنه كان يركب في أربعة آلاف دارع، وثمانية آلاف راجل، فيكون بين يديه عند خروجه اثنا عشر ألف مقاتل، فكان غاية في العزة والمنعة، وكان فشل النهضة أنهم فوجئوا بأخذ هاني، ولم تكن مسألة خذلان أبداً، إنما كان خروج مسلم قبل الموعد المحدد للخروج؛ لأن الظروف اضطرت له لذلك.

عبيد الله يزور شريكاً في دار هاني

ومما يذكر أن عبيد الله بن زياد لما دخل الكوفة لم يكن يسعه أن يتأخر عن زيارة هاني لأنه شيخ المصر، والوجه البارز في الكوفة، فقبل له: إن شريك بن الحارث مريض، وقد نزل في دار هاني. فعزم على عيادة شريك لأنه كان أثيراً عندهم، وفي الوقت ذاته أراد أن يجدد العهد مع هاني، وكان مسلم حينئذٍ في دار هاني.

وهنا يتساءل بعض الكتاب: لماذا لم يستغل مسلم الفرصة فيقتل عبيد الله وينهي الأمر، وهو لا زال في مهده؟

إن أمثال هؤلاء الكتاب ينطلق في كتابته من منطلقه الخاص، فكأنه يكتب بلسان القرن العشرين، والحال أن هناك أسباباً حالت دون ذلك، وإلا فإن يد مسلم كانت على قائم سيفه، وهاني يقرأ هذه الآيات:

كأس العنية بالتعجيل تسقيها

وإن تلفت وكانت ميّتي فيها

ما الانتظار بسلمى أن تحيىها

هل شربة عذبة أسقى على ظمأ

فإن أحسنت سليمان منك داهيةً فلست تأمن يوماً من دوامها^(١)

المبحث الخامس: أسباب عدم قتل مسلم عبید الله في دار هانيئ

فما هي الأسباب التي حالت دون خروج مسلم في تلك اللحظات يا ترى؟
السبب الأول: أن مسلماً كان يرى أن الخروج والفتك بعبید الله في تلك اللحظة عارٌ، وأن ذلك ليس من شيم أهل البيت عليهم السلام. وهناك الأمثلة الكثيرة في تأريخهم، ففي واقعة الجمل التي ذهب فيها عشرات الآلاف من القتلى، كان المتسبب بها بضعة أشخاص لعبوا دوراً غير مشرف، وهم مروان وأتباعه. فلما انتهت المعركة، جاء الإمام عليه السلام يزور عائشة ويتفقد الدار التي نزلت فيها، وهل هي دار ملائمة أو لا. وهذا هو شأن علي عليه السلام الذي يملك غضبه في هذه اللحظات المليئة بالتوتر، يقول أحد شعراء تلك الواقعة:

حتى إذا دارت رَحَى بغيهم	عليهم وسبق السيف العذل
عاذوا بمجد ماجد معود	للصفح حمالٍ لهم على العذل
أطت بهم أرحامهم فلم يُطع	ثائرة الغيظ ولم يشف الغل ^(٢)

نعم، دخل علي عليه السلام الدار لقيادة عائشة، وكانت في مدخل الدار حجرة فيها عبد الله بن الزبير، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، ومروان بن الحكم، وأمثالهم من هذه النماذج، فتلقته واحدة من النساء وهي تقول: يا قاتل الأحبة، أيتمت ولدنا، أيتم الله ولدك. فقال: «لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة»^(٣).

(١) نور العين (الاسفراييني): ٢٤، باختلاف في البيت الثاني.

(٢) الأبيات لمهيار. شرح نهج البلاغة ١: ٥٢، وأطت: من (الأطيط)، وهو صوت الابل. الصحاح ٣: ١١١٥ - أطط.

(٣) هي صفية بنت الحرث الثقفية امرأة عبد الله بن خلف الخزاعي. دعائم الإسلام ١: ٣٩٤. مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٨، الجمل (ضامر بن شدقم): ١٤٧، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٣، شرح

أما كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم بما سوف يكون من ابن الزبير الذي جمع ولد علي عليه السلام في شِعْب، ووضع الحطب حولهم وهم بحرقهم لولا أن يتداركهم المختار^(١)؟ أما يدري بما سوف يكون من مروان الذي كان يضرب ثنايا الإمام الحسين عليه السلام بالعود ويقول: لقد كنت حسن الثغري يا حسين^(٢)؟ كل ذلك كان يدري به، ولكنه كان يرى من الجبن أن يقتل أحداً هرب من القتل، والتجأ إلى حجرة يرتجف فيها.

وهناك مثل آخر على ترفع أهل البيت عن الفتك خصوصاً بمن جبن أو هرب، فقد خرج إبراهيم «أحمر العينين» بن عبد الله بن الحسن المثنى أيام المنصور، وهجم بجيشه قاصداً الكوفة حتى وصل قريباً منها، فأحاط بها، وكان فيها جيش المنصور بأجمعه، فجاء قواد جيش إبراهيم وقالوا له: إن الكوفة بين أيدينا، وما هي إلا هجمة سريعة حتى نتمكن منها ونستولي على كل ما للعباسيين فيها. فرفض إبراهيم ذلك وقال لهم: لا آذن لكم بالهجمة على الكوفة؛ لأن فيها الطفل والمرأة والأعزل والعاجز، وليس من النبيل أن يتضرر هؤلاء ويداسوا بحوافر خيولكم. قالوا له: إذن نخسر المعركة. قال: وإن. أي أنه يقول: لكننا سنربح المبدأ والموقف. فهذه هي أخلاق أهل البيت عليه السلام، وقد أعترف أن هذا الخلق قد لا ينفع مع بعض المستنقعات والنماذج القذرة من الناس، ولكن هذا هو خلقهم عليه السلام.

وكان مسلم كذلك، بوسعه أن يمتشق حسامه ويضرب عنق عبيد الله، فلم يكن خائفاً خوَّاراً، ففي معركة الكوفة كان يأخذ الرجل فيقذف به إلى السطح ثم يستقبله بالسيف.

نهج البلاغة ١٥: ١٠٥. وقد مر في ج ٢ ص ٢٠ من كتابنا هذا.

(١) سر السلسلة العلوية (أبو نصر البخاري): ٨٢، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٢٢.

(٢) مثير الأحزان: ٧٢، سبل الهدى والرشاد ٢: ٣٠.

السبب الثاني: هو أن امرأة هاني وقفت لمسلم وقالت له: أنشدك الله أن تقتل ابن زياد في بيتنا.

السبب الثالث: أن مسلماً كان يرى أن المعركة قريبة، وأن عبيد الله لن يفلت من يد الثوار حتماً.

وعلى كل حال فقد شاء الله غير هذا.

ثم إن هناك شيئاً مهماً غير المعادلة، وهو تنبؤ مهرا، هذا الشخص الذي كان مع عبيد الله بن زياد حين عيادته لشريك في بيت هاني، فقد أحس مهرا عند سماعه أبيات هاني بأن القوم يأتمرون بعبيد الله ويريدون قتله، فحذر عبيد الله، ثم حثه على الخروج من البيت.

فلما وصل عبيد الله إلى القصر بعث خلف هاني، وأحضره إلى القصر، ودارت بينهما مناقشة طويلة قال فيها عبيد الله لهاني: والله لن تبرح حتى تأتيني بمسلم. قال هاني: آتيك بجاري، ورسول ابن رسول الله؟ إن في ذلك الخزي والعار علي وعلى أهلي، والله لو كانت رجلي على طفل من أطفال آل محمد ﷺ ما رفعتها ولو قطعت. قال عبيد الله: إذن تُقتل. قال هاني: والله إذن تكثر البارقة حول دارك. قال عبيد الله: وألهفاه عليك، أبا البارقة تخوفني؟ ثم أخذ سوطاً وأخذ يضرب وجه هاني حتى تناثر لحم خديه، وانكسر أنفه، فمدَّ يده إلى شرطي كان واقفاً فنازعه السيف، فلم يستطع، ثم تكاثر عليه الحرس فأخذوه إلى الحبس، فوصل الخبر إلى مسلم، فتعجل الخروج. ولهذا لم يتمكن من جاء في الوقت المحدد من إدراك التحرك، فقد جاء المختار، وعبد الله بن الحارث، وغيرهما، وكان بعضهم يحمل الأولوية الخضراء أو الحمراء، ولكن الثورة سبقت وقتها.

يقول المؤرخون: خرج مسلم من المسجد وكان وراءه ثلاثون، فلما بلغ أحد الأزقة لم يبق معه من يده على الطريق، فرأى امرأة واقفة في باب دارها فقال لها:

أمة الله، اسقيني ماء. فدخلت الدار وأتته بالماء، فشرب منه ورجعت هي إلى الدار، ثم خرجت فرأته جالساً، فقالت: ألم تشرب الماء؟ قال: بلى. قالت: فما وقوفك على باب داري؟ إني لا أحلّ لك ذلك. فكررت ذلك عليه وهو ساكت، ثم قال لها: هل لك في معروف تصنعينه معي ولعلي مكافئك بعد هذا اليوم؟ قالت: وما ذاك؟ قال: أنا مسلم بن عقيل. قالت: أنت مسلم؟ قال: نعم. قالت: على الرحب والسعة. ثم أدخلته الدار، وعرضت عليه الطعام والشراب فأبى، ثم توضأ ولم يزل قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، حتى انبلج عمود الفجر، فأقبلت إليه وقالت: سيدي، ما رأيته رقدت منذ البارحة، قال: بل رقدت فرأيت عمي أمير المؤمنين عليه السلام وهو يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب، وأظن أن هذا آخر أيامي من الدنيا. وبينما هي كذلك إذ دخل ابنها فرآها تكثر الدخول والخروج إلى تلك الدار، فألح عليها فأخبرته بأمرها بعد أن أخذت عليه المواثيق، فذهب إلى ابن زياد فأخبره، ولم يلبث أن جاء معه ثلاثمئة فارس، فاقتحموا عليه الدار، فأخذ مسلم سيفه وذادهم عن الدار وهو يرتجز:

أقسمت لا أقتل إلا حراً وإن رأيته الموت شيناً نُكروا

رُدّ شعاع النفس فاستقروا أخاف أن أخدع أو أغرّوا

وكانت طوعة واقفة إلى جنب الدار وهو يقاتل قتال الأبطال، حتى أرسل محمد بن الأشعث إلى عبيد الله أن مُدّني بالخيـل والرجال. فقال: ويحك أرسلتك إلى واحد فقتل منكم هذه المقتلة؟ فكيف لو أرسلتك إلى من هو أشد منه بأساً؟ قال ابن الأشعث: لعلك أرسلتني إلى جرمقان من جرامقة الكوفة، إن هذا سيف من سيوف بني هاشم. فتكاثر عليه القوم، ورموه بأطنان القصب يشعلون به النار، ورموه بالحجارة، ورشقوه بالسهم، وطعنوه بالرماح حتى ضعف عن القتال،

فاستند إلى الحائط ودمعت عيناه، فدنا منه محمد بن الأشعث وقال له: إن الذي يطلب ما تطلب لا يبكي إذا نزل به مثل ما نزل بك. قال مسلم: أوتظنّ أنني لنفسي بكيت؟ لا والله وإن كنت لا أحبّ لها تلفاً طرفة عين أبداً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين، أبكي لحسين وآل حسين.

ثم أدخل على عبيد الله ودار بينهما ذلك الحوار، ثم صاح عبيد الله: أين الذي ضرب مسلم رأسه بالسيف؟ فجيء إليه بيكر بن حمران، فقال له: خذه وتولّ قتله بيدك. فصعد به إلى أعلى القصر وهو يسبح الله ويقدّسه، ثم صلى ركعتين، وأدار وجهه إلى جهة الإمام الحسين عليه السلام وصاح: السلام عليك أبا عبد الله، إن ابن عمك أسير بين أيدي القوم، ولا يدري أيبيت أم لا. فضربه بكر فقطع رأسه، ورمى بجسده من أعلى القصر إلى الأرض:

المكدر غضه وشاعت اخباره رموه الكوم من كصر الإمارة

كان الإمام الحسين عليه السلام في زرود، فقام من مكانه وهو يقول: «وعليك السلام يا غريب كوفان». ثم قام من فوره إلى خيمة النساء، وأحضر حميدة ابنة مسلم، وأجلسها في حجره، وجعل يمسح على رأسها، فقالت: ياعمّ، أراك تصنع بي ما يُصنع باليتامى؟ قال: «بنية عظم الله لك الأجر بأبيك»^(١).

تكله يعمي ابوي وينه



مواقف مشرفة في حياة العباس عليه السلام

بِطْلُ تَوَرَّثَ مِنْ أَبِيهِ شَجَاعَةً فِيهَا أَنْوَفُ بَنِي الضَّلَالَةِ تُرْغَمُ
عَبَسَتْ وَجْوهُ الْقَوْمِ خَوْفَ الْمَوْتِ وَالْـ عَبَّاسٌ فِيهِمْ ضَاحِكٌ مُتَبَسِّمٌ

ورد عن الإمام السجاد في عمه العباس عليه السلام قوله: «رحم الله العباس، لقد أثر وفدي وواسي أخاه بنفسه، فأعطاه الله جناحين عوض يديه، كما صنع لجعفر بن أبي طالب»^(١).

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: بعض الجوانب البطولية عند العباس عليه السلام

قبل الدخول في صلب الموضوع لا بد من مقدمة وجيزة، فحوَرَّخو الطف يؤكدون في توار يخهم على بعض الجوانب البطولية في ترجمة العباس أو في ترجمة الإمام الحسين عليه السلام. وبعض الناس قد يتصوّر أن هذا نوع من الفكر الأسطوري، وهذا تصور خاطئ؛ لأن عند الأمم كافة غراماً بالبطولة، فأنت مثلاً تجد الملاحم البطولية في تأريخ اليونان^(٢)، والرومان^(٣)، والفرس^(٤)، والعرب^(٥).

(١) الخصال: ٦٨ / ١٠١، بحار الأنوار ٢٢: ٢٧٤ / ٢١.

(٢) كملحمتي الإلياذة والاولديسة وملحمة طروادة وملحمة الانبياء.

(٣) كملحمة جلاديتيور. (٤) كملحمة آنا تفرافيا.

(٥) كيرة عنترة والوزير سالم وأبي زيد الهلالي وغيرهم.

وغيرهم^(١) من الأمم.

فما هو الهدف من الثناء على بطل من الأبطال كعترة مثلاً عاش يوماً من الأيام ثم مات؟ إن المقصود ليس الثناء على البطل الذي عاش ومات، بل المقصود من ذلك هو خلق المثل الأعلى للأمة، وإيجاد الأنموذج البطولي الذي تقتدي به. وهذا عامل تربوي هام يُستهدف منه حمل النفوس على سلوك طريق الأبطال لتكون كبيرة.

فليس المقصود من ذكر شجاعة أهل البيت عليهم السلام أننا نرضي نزعة دينية في نفوسنا، أو نستعمل لوناً من الفكر الأسطوري، بل المقصود من ذلك هو أن يُخلق المثل والنموذج الصالح ليكون قدوة.

نعود الآن إلى مضامين حديث الإمام السجاد في عمه العباس عليه السلام العالية والتي تشكل جزءاً من مباحث موضوعنا، فلقد دققنا النظر في هذا الحديث لوجدنا أنه يشتمل على مجموعة من المعاني السامية:

المبحث الثاني: قوله عليه السلام: «رحم الله»

فما معنى «رحم» هنا؟ وهل إن المقصود بها الدعاء، أو الإخبار؟ فإذا قلنا: إنها للدعاء، فإنه يرد هذا السؤال: هل هي لطلب المزيد من الرحمة، أو لتحقيق أصل الرحمة؟

نحن مثلاً نقول كل يوم: «اللهم صل على محمد وآل محمد»، والصلاة هنا هي الدعاء برفع المنزلة، وإلا فلا يمكن أن يقال: إن الصلاة هنا هي الدعاء بإعطاء المنزلة للنبي عليه السلام؛ لأنها موجودة أصلاً.

(١) كملاحم الهند مثل المهابهاراتا وكاماسوترا وراماياتا، وملحمة جلجامش البابلية، وملحمة حياة الملك جيسار المعروفة بـ (الإلياذة الشرقية).

إذن معنى الدعاء بالرحمة للشهداء هو أن يزيد الله في عطائهم، وإلا فإن أصل الرحمة موجود. يقول الحديث النبوي الشريف: «فوق كلِّ برٍّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله»^(١).

فالمجاهد لا يطلب له الرحمة؛ لأنها موجودة؛ فتكون الصيغة في كلام الإمام السجاد عليه السلام صيغة إخبار لا صيغة دعاء، فما هي الرحمة التي رحم الله بها العباس عليه السلام؟

أقسام الرحمة

لدينا أنواع من الرحمة، منها:

١ - فالرحمة الابتدائية، وهي أننا قبل أن نُخلق كنّا في عالم التراب، فأفاض الله تعالى علينا رحمته وأخرجنا إلى عالم الوجود. فهذه الرحمة ابتدائية، فليس لنا عمل سابق نستحقّها به.

٢ - الرحمة بعوض، وهي أن يعمل أحدٌ عملاً فيستحقّ عليه الرحمة، يقول الحديث القدسي: «إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»^(٢). فمثل هذه الرحمة تكون معاوضة في مقابل عمل.

٣ - الرحمة التي تدرك بعطف، وهذه الرحمة هي التي تكون في مثل ما لو وقع أحدٌ في محنة، فإن الله تعالى يفيض عليه رحمته وإن أساء إلى الله، وكلّ منّا يسيء إلى الله تعالى، إما بعدم شكر النعمة، أو بالاعتراض على أحكامه تعالى، أو أن نسيء أحياناً إساءة بالغة فنقول: إن هذه الرسالة السماوية أصبحت غير صالحة للمجتمع، ولا بد أن نستبدل بها قانوناً أحدث. ومع كلّ ذلك فإن الله تعالى لا يقطع

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٤٢. وقريب منه في الجامع لأحكام القرآن ٨: ٢٦٧.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

عنا رحمته. يقول علماء الكلام: إن الله تعالى وعد العباد بالخير، وتوعدهم بالشر، فهل أوجب على نفسه الوفاء بهما؟ وهنا يجيبون بأنه تعالى أوجب على نفسه الوفاء بالوعد دون الوعيد؛ لأن رحمته تسبق غضبه، وما أوسع رحمة الله (١)!

جاء أحد الصحابة يوماً إلى النبي ﷺ فوجد في الطريق إمامة عندها فرخان، فمدّ يده إلى فرخيها فأخذها - وكان ينوي جلبها للحسن والحسين عليه السلام - فأخذت الإمامة تحوم حوله وتتبع فراخها، فلما وصل إلى النبي ﷺ أخبره أنه جلب للحسن والحسين عليه السلام طيرين يلعبان بهما، فقال النبي ﷺ: «ما أحسنت صنعاً؛ لأنك آلمت هذه الأم». ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم: «هل رأيتم هذه الإمامة؟». قالوا نعم. قال ﷺ: «هل رأيتم حديها وشفقتها؟». قالوا: نعم. قال ﷺ: «إن الله أرحم بكم من هذه الإمامة بفرخيها» (٢).

إن الوجود بأسره وثبة من وثبات الرحمة، ولهذا اعتقد البعض أن العذاب مُستبعد؛ لأنه يرى أن كل شيء خلقه الله خِلقة رحمة (٣). ولكن هذه مغالطة أيضاً؛

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وعبر عن ذلك في الثاني بأنها قاعدة عقلية مسلمة، ثم قال: لأن الذي تعلق به الوعد حق للموعد له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم. وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعد على التخلف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه، بل له أن يستوفي وله أن يترك.

(٢) هناك قصة شبيهة لهذه رواها القرطبي في تفسيره قال: قال ابن عباس: رأى رسول الله ﷺ يوم أوطاس امرأة تعدو وتصيح ولا تستقر، فسأل عنها فقيل: فقدت نبياً لها. ثم رآها وقد وجدت ابنها وهي تقبله وتدنيه، فدعاها وقال لأصحابه: «أطارحة هذه ولدها في النار؟». قالوا: لا. قال ﷺ: «لم؟». قالوا: لشفقتها. قال: «الله أرحم بكم منها». الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٠٣.

(٣) كما مر من شعر الخيام، حيث يقول:

قيل أن قد وعدت بالنار يوماً
بمكان ما أنت فيه ولا يو
فتمجبتُ أين هذا يقال
جد أم حيث أنت وهو محال

انظر ج ١ ص ١٠٦ من كتابنا هذا.

لأن من الرحمة أحياناً أن يؤدّب الإنسان.

فالعبرة التي يذكرها الإمام السجاد عليه السلام في حق العباس عليه السلام هي إخبار كما قلنا، فما هي رحمة الله للعباس عليه السلام؟ لقد رحمه في الدنيا بالثناء الجميل، فقد أولاه أهل البيت عناية كبيرة، وهو الآن في عداد الأبطال، أما الرحمة عند الله فهي ما أعد للشهداء من الرحمة والعطاء، وهذه الرحمة من النوع المقابل للعطاء؛ لأن العباس عليه السلام صنع ما يستحق به ذلك.

المبحث الثالث: قوله عليه السلام: «عمي العباس»

ثم يقول الإمام عليه السلام: «عمي العباس»، فهذا الاسم (علم) هل هو من الأسماء الجامدة أو المشتقة؟ فالأسماء كما نعرف منها جامد ومنها مشتق، والعباس من الأسماء المشتقة. وبما أننا مررنا بهذا الجانب فيحسن أن نذكر هنا بأننا يجب أن نحسن أسماء أبنائنا؛ لأن من الأساليب التربوية التي وضعها الإسلام أن نحسن تسمية الولد وأن نحسن تربيته، قال عليه السلام: «من حق الولد على الوالد أن يحسن تربيته، وأن يحسن تسميته»^(١).

ثم إن الاسم يجب أن يأخذ خواص البيئة، فالأسماء التي فيها الطابع الديني كأسماء الأنبياء والأئمة مندوب إليها، يقول عليه السلام: «أحب الأسماء إلى الله ما حمّد

والقائل:

لذنبوي العقاب والنيرانُ	ربي أوعدتني بأن جزائي
وأنا باكتناهه حيرانُ	فتعجبت من وعيدك هذا
دلّني أين أين هذا المكانُ	أعذابي بموطن منك يخلو
حيثما أنت رحمة وحنانُ	أم مكان تحله ومحال

انظر الجزء ١: ٣٠٦.

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٥ / الأصل: ٤٠٧.

أو عُبد^(١). والبيوت التي فيها هذه الأسماء تكون من مظان الرحمة الإلهية. هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا عندما نسمي أبناءنا بهذه الأسماء فإن ذلك ينم عن اعتزازنا بالذي لأجله أسمينا بهذا الاسم، فلو أسمينا محمداً فهذا يدل على اعتزازنا بشخص الرسول ﷺ وتمسكنا به، كما ينم عن أصالتنا نحن. وليس معنى ذلك أن الأسماء الأخرى محرمة، ولكن الذي أريد قوله: إن هناك أسماء تدل على الانتماء والأصالة، فالاسم يدل على هوية معينة، فهناك أسماء تدل على بطولة، أو على دين، أو هوية أخرى.

وقد يسمي البعض أسماء ليقال عنه: إنه ممن يواكب العصر والزمان (مودرن). خصوصاً أن المودرن هذه لا تكلف الشخص عندنا سوى ربطة عنق معينة، أو لباس معين، أو اسم معين، وإلا لو رجعنا إلى تفكيره لوجدنا أنه رجعي لمئة ألف سنة. وهذا هو المسمى عند علماء الاجتماع بنظرية التخلف الاجتماعي، وهي أن المجتمع يعيش التطور في الجانب المادي، فترى الفرد يملك أحدث الأجهزة، ويستخدم أحدث الوسائل، ولكنه في الجانب الفكري يعيش أفكاراً بالية. وهكذا فقد تجد الآن في بلداننا من يقتني السيارة الفاخرة، ويستخدم الوسائل المتطورة، ولكنه إذا قلع سنه رماه إلى الشمس لتأخذه.

فالمسألة مسألة مسميات لا مسألة أسماء، فمن الأمور التربوية الإسلامية إذن أن نحسن الأسماء.

نعم، لقد سمي أمير المؤمنين عليه السلام ولده العباس عليه السلام بهذا الاسم تفوقاً له؛ لأن من سير البطولة وتقاليدها أن البطل إذا نزل إلى ساحة القتال يعبس، ولذلك لما أراد الإمام أن يتزوج فاطمة بنت حزام استعان بأخيه عليل. وكان عليل من أصحاب

(١) العهد المحمدية: ٣٤٢. ورواه مرفوعاً عن أحمد وأبي داود والترمذي وابن ماجه.

الطنافس الأربعة، وهم متخصصون في معرفة الأنساب وخواص القبائل، فكان عقيل يجلس في مسجد النبي ﷺ للاستشارة في الأنساب، فكان من يريد الزواج يأتي إلى هؤلاء ليُعينوه على معرفة نسب القبيلة التي يريد أن يتزوج منها، والخواص المميّزة لها من شجاعة أو جبن أو كرم أو بخل إلى غير ذلك. وهذا المعنى يوجد الآن في أوروبا، فهناك مكاتب مختصة يأتي إليها الشاب فيعطي معلومات مفصلة عن عمره وثقافته وشؤونه الأخرى، وكذلك تفعل الفتاة، ثم تُدرّس حالات هؤلاء من قبل المختصين للمساعدة على الزواج بأفضل السبل.

نعم، قال الامام عليه السلام لعقيل: «انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأنزوجه فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء»^(١).

إذن كان هناك قصد مسبق لأمر المؤمنين عليه السلام في أن يُعَدَّ هؤلاء الأولاد ليوم منتظر، وهذا المعنى ليس غريباً عن حضارتنا، فالأم التي تطلب النار تُعد ابنها لأخذ النار، فتغلغل عنده نزع الأخذ بالنار منذ الطفولة.

وقد يرد إشكال أن الإمام لماذا يسأل عقيلاً ويستعين به في حين أنه إمام، وإذا أراد أن يعلم فإنه يعلم؟ وبالمناسبة فإن بعض الشباب قد يستغرب من مسألة أن الإمام يعلم، والحال أن منجزات العلم الحديث تثبت أن بعض الناس عنده ما يسمى بالحاسة السادسة، وهذه الحاسة تتعدى زمنها وإطارها أحياناً، وتتنبأ بحوادث تقع في المستقبل.

أما على النطاق الديني فهذا الأمر مفروغ منه، وإن بعض الناس يُعتبرون من

(١) عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧.

المحدثين. يروي أبو داود أن عمران بن حصين كانت تحدّثه الملائكة^(١)، ويروي ابن حجر في (تهذيب التهذيب) أن عمر بن عبد العزيز كان يحدّثه الخضر، وكان يراه ولا يراه الناس^(٢). ومع ذلك فإننا لم نسمع من يقول لهؤلاء: إنكم مغالون، أما إذا ذكر شيء من ذلك لأهل البيت عليهم السلام فيأتي من يقول: إن هذا غلو. وهذا من الكلام الفارغ؛ لأن حكم الأمثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد، فإما أن يكون العلم ببعض الغيبات خرافة فهو في الحالين كذلك، وإما أن يكون حقيقة فهو في الحالين كذلك أيضاً.

إذن العلم بالغيب موجود على المستوى الديني، وفي آراء المسلمين موجود، وفي القرآن على قراءة ابن عباس موجود. وفي البخاري^(٣) وغيره^(٤) من الكتب التي تروي أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قد كان في الأمم السابقة قبلكم محدّثون، فإن يكن في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب». فإن كان عمر محدّثاً فنحن لا نعطي الإمام المعصوم أكثر من هذا.

إذن لماذا يستعين الإمام عليه السلام، وهو المحدث بأخيه عقيل في خطبة امرأة؟ وما مقدار علم عقيل إزاء علم علي عليه السلام؟ الجواب: هو أن الإمام لم يرد الاستفادة من علم أخيه عقيل، وإنما أراد أن يجري الأمور على قواعدها من حسن الاستشارة، وأن يعطينا درساً في الاستعانة بأهل الخبرة. وهذا من الدروس المهمة لنا، فنحن ملزمون باللجوء لذوي الخبرة والاختصاص في كلّ مجالات الحياة، وألا نكون متخبّطين ندخل فيما ليس من شأننا واختصاصنا.

(١) سنن أبي داود ٢: ٢٢١ / ٣٨٦٥. (٢) تهذيب التهذيب ٧: ٤١٩ / ٧٩١.

(٣) صحيح البخاري ٤: ١٤٩.

(٤) صحيح مسلم ٧: ١١٥، مسند الحميدي ١: ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٣١٧.

لقد تأمل عقيل طويلاً ثم قال: عليك بفاطمة بنت حزام، فليس في العرب أشجع من قومها. ثم أخذ يبين مواطن الشجاعة في قومها، فقال: إن من قومها مُلاعب الأسنة، ومهلهلاً، وعامراً الذي يقال عنه: لو سقط نجم من السماء لالتقطه برمحه. ثم ذكر له جمعاً من فرسانهم، ثم قال: وفي قومها افتخر لبيد الشاعر في مجلس النعمان بن المنذر عندما قال:

نحن بنو أم البنين الأربعة ونحن خير عامر بن صعصعة
الضاربون الهام وسط الخيضة والمطعمون الجفنة المدعدة^(١)

فلم يرد عليه أحد إذعائاً بصحة ما يقول، فهؤلاء يتوارثون الشجاعة والبطولة جيلاً بعد جيل، وكانت هذه المرأة حقاً مثلاً للخلق الطيب.

المبحث الرابع: إيثار العباس عليه السلام

ثم يقول الإمام السجاد عليه السلام «لقد أثر»، فما هو نوع الإيثار؟ ينبغي علينا أن نلتفت إلى تعبيرات الأئمة عليهم السلام؛ فهي دقيقة جداً. القرآن الكريم يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢)، فالإمام لم يذكر نوع الإيثار هنا، وهل هو بالنفس أو على النفس؛ لأن الإيثار قد يكون على النفس بأن يقدم أحداً غيره على نفسه بالطعام أو الشراب أو المال أو المنزل أو غير ذلك. ونحن نقرأ في تاريخنا أن أبا جهم بن حذيفة قال: سقط ابن عمي في واقعة اليرموك، فأدركته عند النزع، وأردت أن أسقيه ماء، فلما دنوت منه، أشار إلى جريح آخر كان إلى جنبه وقال لي: هذا أحوج مني. فذهبت إلى هذا فقال لي: إن هذا الجريح الثالث أحوج

(١) مرّ تخريج القصة قبل قليل عن: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، غير أنهما لم يذكرنا كلام عقيل هذا ولم يذكرنا شعر لبيد، وهو مذكور في ديوانه المطبوع ضمن ديوان الغروسيّة: ١٦٨. (٢) الحشر: ٩.

مني . فذهبت إلى الثالث فوجدته قد مات، فرجعت إلى الذي قبله فوجدته قد مات أيضاً، فرجعت إلى ابن عمي فوجدته مات أيضاً^(١). فهؤلاء آثروا على أنفسهم في آخر لحظة من حياتهم. فهذا نوع من الإيثار وهو الإيثار على النفس، وقد يموت هذا المؤثر أو يبقى.

وهناك نوع من الإيثار هو الإيثار بالنفس وليس على النفس، بمعنى أن يعطي المؤثر نفسه فداء لغيره، وهذا المعنى لم يأخذه العباس عليه السلام عن كلاله، فأبوه أمير المؤمنين عليه السلام لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَفْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾^(٢) وأمره الله تعالى بالهجرة من مكة إلى المدينة أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يهاجر ويوهم قريشاً أنه لم يهاجر، فطلب من الإمام علي عليه السلام أن ينام في فراشه، فقال علي عليه السلام: «أو تسلم إذا نمت في فراشك يا رسول الله؟». قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم». قال عليه السلام: «روحي لروحك الفداء، ونفسي لنفسك الوفا يا رسول الله». ثم أخذ يُرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتلقّع به، واضطجع في مكان النبي، يقول الكعبي:

ومواقف لك دون أحمد جاوزت	بمقامك التعدد والتحديد
فعلى الفراش مبيت ليك والعدا	تُهدي إليك بوارقاً ورعودا
فسرقت مثلوج الفؤاد كأنما	يهدي القراع لسمعك التغريدا
ووقيت ليلته وبت معارضاً	بالنفس لا فثيلاً ولا رعيديدا
رصدوا الصباح لينفقوا كنز الهدى	أوما دروا كنز الهدى مرصودا

بات علي عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى الصباح، وقريش محيطة بالبيت، فأقبلوا نحو البيت وإذا علي عليه السلام ينهض في وجوههم، فقالوا: أنت علي؟! أين محمد؟ قال:

(١) نصب الراية ٢: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٨٠.

(٢) الأنفال: ٣٠.

«أو تركتموني حارساً عليه». فتقدم إليه عبد لعكرمة بن أبي جهل، فضربه علي (عليه السلام) بسيفه فقتله^(١).

فهذا الموقف الذي وقفه علي (عليه السلام) بالإيثار دون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هو عين الموقف الذي وقفه العباس (عليه السلام) دون الإمام الحسين (عليه السلام) يوم كربلاء.

المبحث الخامس: العباس يُعَوِّضُ بجناحين في الجنة

ثم قال الإمام السجاد (عليه السلام) «فأبدله الله بجناحين»، وهذه النقطة تستحق التوقف قليلاً؛ إذ ما معنى أن يعطي الله تعالى العبد جناحين في الجنة؟ ألا يمكنه أن يتمشى في الجنة؟ أم أن هذا الخبر من الأساطير التي نضع أمامها علامة استفهام، أم أن هناك هدفاً آخر؟ في الواقع إن في هذا الأمر هدفاً سوف أبينه، فالإنسان فيه القابلية على أن يصل بمستواه إلى مستوى حشرة، أو أن يكون بمستوى الملك، والملائكة هم حملة الأجنحة، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحَةٍ مَقْشُوفَاتٍ فِئَ ثَلَاثٍ وَرُبَاعٍ﴾^(٢) فالجناح هنا يعني السمو، يقول الشاعر:

أخاك أخاك إن من لا أخاه كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح
وإن ابن عمّ المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازي بغير جناح^(٣)

فالجناح في هذا البيت يعني المناصر، وكذلك في هذه الآية عبر عن الطيران والسمو بلازمه وهو الجناح^(٤). وكذلك أعطى الله جعفرأ الذي ذهبت يده يوم مؤتة^(٥) جناحين ليضعه في مصاف الملائكة في هذا اللون من السمو، وكذلك أعطى

(١) مسند أحمد ١: ٣٤٨، فتح الباري ٧: ١٨٤، ولم يذكر عكرمة، والأبيات للكعبي وقد مرّت في ج ١ ص ٧٨، ج ٢ ص ٢٦٥-٢٦٦ من كتابنا هذا.

(٢) فاطر: ١.

(٣) البيتان لمسكين الدارمي. شرح نهج البلاغة ١٨: ١١٣.

(٤) وهو ما يسمّى بالاستعارة المكنية. (٥) المستدرک علی الصحیحین ٣: ٤٠.

العباس درجة من السموات كما أعطى جعفرًا؛ فألحقه بالملائكة في هذه الدرجة. وإلا فإن فكرة الجناحين إذا لم تُحمل على هذا المعنى فهي فكرة بلهاء.

دعونا الآن ننظر إلى ما قدّم هذا الرجل الذي لم يكن قتاله يوم الطف عن عصبية، ومن الأدلة على أن قتاله لم يكن عن عصبية أنه جاء بأخوته الثلاثة يوم الطف - وكان أكبرهم بل أكبر الهاشميين يوم الطف، وعمره ثلاثون عاماً، وكان متزوجاً بأم الفضل بنت علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وله منها ولدان: عبيد الله والفضل، وكانت ذريته فيما بعد من عبيد الله - وقال لهم: تقدّموا حتى أُرزا بكم، أي أريد أن أحسبكم عند الله فأموت وأنا مطمئن أنكم وقّتم كموقي. ولكن الخسة وصلت بأحد المؤرخين أن يقول: قال العباس عليه السلام لأخوته: تقدّموا حتى أرثكم^(١)! فهل يبقى العباس عليه السلام بعدهم حتى يرثهم؟

نعم، قدم أخوته الثلاثة، ثم جاءت ساعته فنزل إلى المعركة، يقول الشيخ المفيد: «أقبل العباس عليه السلام إلى أخيه الإمام الحسين عليه السلام وقال له: أبا عبد الله، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»^(٢). يقول السيد جعفر الحلبي:

أوتشتكي العطش الفواطم عنده	وبصدر سعده الفرات المفعم ^(٣)
فلو استقى نهر المجرة لارتقى	وطويل ذابله إليها سلّم
بطل تورث من أبيه شجاعة	فيها أنوف بني الضلالة تُرغم

(١) انظر تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدّموا حتى

أراكم قتلى فأحسبكم. مقاتل الطالبين: ٨٢، مقتل الحسين عليه السلام (أبو محنف): ١٨٤.

(٢) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

(٣) الصعدة: الرمح أو القناة تثبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف. المعجم الوجيز: ٥١٤ - صعد.

فقال له الإمام الحسين (عليه السلام): «يا أخي أنت صاحب لوائي، فإذا ذهبت تفرّق عسكري». «فقال له: لا طاقة لي أن أسمع هؤلاء الأطفال ينادون: العطش العطش. فقال الإمام الحسين (عليه السلام): وإذن أطلب لهم قليلاً من الماء». فأخذ حسامه ونزل إلى المعركة، فزاد الخيل يميناً وشمالاً وهو يرتجز:

لا أرهب الموت إذا الموت رقي حتى أوارى بالمصاليق لقا
نفسى لنفس الطاهر الطهر وقا إني أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أهاب الشرّ عند الملتقى»

يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «كان قلب عمّي العباس (عليه السلام) كصالية الجمر من الظمأ»^(١).

فلما وصل إلى الماء وملاً قربته، أخذ شيئاً من الماء وأدناه إلى فمه، ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان. حمل الماء، وكان جلّ همّه أن يوصله إلى الخيمة، فصاح ابن سعد: اعصوبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح، وكمن له رجل من وراء نخلة، فضربه على يمينه فبراها، فقال:

والله إن قطعتم يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين

ثم اعصوبوا عليه فقطعوا شماله فقال:

يا نفس لا تخشي من الكفار وأبشري برحمة الجبار
مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا ببغيهم يساري
فأصلبهم يا رب حراً النار

ثمّ انحنى على السقاء، وكان كلّ همّة أن يوصله إلى القلوب العطشى، ولكن
ضرب بعمود من حديد على رأسه، فسقط إلى الأرض منادياً: أدركني أبا عبد الله،
فأقبل له الإمام الحسين عليه السلام فأخذ رأسه ووضع في حجره»^(١).

خويه العلم علي وين اوديه ينور العين دربي بيش اجد بيه

أراد الإمام الحسين عليه السلام حمله إلى الخيمة، فقال له العباس عليه السلام: أخي ماذا تريد
أن تصنع؟ فقال: «أحملك إلى الخيمة». فقال: يا أخي لا تحملني. قال: «لماذا؟»
فأجابه بأن الموت نزل به فلن يصل معه إلى الخيمة، كما أنه قد وعد سكينته بالماء
وهو مستح منها:

يغله أيتست سكنه من الماي نجي يقي ذليله وتوجب احذاي



دور الأدب في كشف أسرار النهضة الحسينية

إن تُسمِس منكسر اللوا مُلقئ على وجه الرُمولِ
فلقد قُستلت مُبرأ عن كل عيب بالقتيلِ
يُهدى لك الذُكرُ الجميد لعل على الزمان بمستطيلِ

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: الأدب العربي يعمق مفاهيم واقعة الطف

من أبرز الظواهر في واقعة الطف أن الأدب العربي لعب فيها دوراً كبيراً في تعميق المفاهيم التي كانت هدفاً من أهداف هذه الواقعة. ولتوضيح الفكرة نقول: لا شك أن الأحداث التي وقعت في الطف فيها مادعا الأيعة عليه السلام إلى تسجيلها بالشعر، والشعر تأريخ ثانٍ، وهو ديوان العرب كما يقال. وهذا المنهج في التعبير لعب دوراً كبيراً في واقعة الطف على مختلف الأبعاد، وقد حاول الأيعة؛ بكل صورة تغذية هذا الجانب - أي استخدام الشعر كوسيلة للتعبير عن أحداث الطف - فلماذا كان هذا المنهج؟

نحن نعرف أن الشعر طاقة، وهذه الطاقة كانت وما تزال فعالة، فأنت عندما تأتي إلى تأريخ العرب تجد أن الشعر لعب دوراً كبيراً في حضارتهم. وقد نقول: إن الشعر عندهم منتزع من يثتهم التي تقوم على القتل والقتال والتفاخر، وهذه البيئة تحتاج إلى ألسنة معبرة، والشعر والأدب وسيلة تعبير سريعة تتلقنها

الجماهير. ولكن الشعر لم يلعب هذا الدور عند العرب فقط، إنما لعبه عند الأمم الأخرى، فهو يلعب دوره في الحضارة الأوربية حتى الآن.

لقد استطاع الكثير من الشعراء في أوروبا بقسميها الشرقي والغربي تخليد ثورات بكاملها، والشاعر يعتبر مؤشراً من مؤشرات الثقافة العالية، وللشعر دوره ودويته وآثاره على الجماهير في مختلف الأبعاد، وعلى امتداد التاريخ. فليست المسألة إذن أن البيئة العربية أفرزت هذه الظاهرة كما يقول البعض.

ويبدو أن الشعر سجل يضغط الفكرة ضغطاً كافياً، ويقدمها نموذجاً مصغراً فيسهل على الذهن التهامها والاحتفاظ بها، ويلعب دوراً بارزاً في الدعاية لترسيخ المفاهيم والعقائد، لذلك وجدنا أهل البيت عليه السلام يستهدفون شعراء الشيعة، ويجتمعون بهم، ويوعزون لهم بتسجيل واقعة الطف، وباستعراض ما جرى لأهل البيت عليه السلام؛ لأن الشعر وسيلة من الوسائل الفعالة، ولذلك وقف الإسلام من الشعراء الذين استخدموا هذه الطاقة الكبيرة ضد الإسلام موقفاً سلبياً، وبالعكس وقف موقفاً إيجابياً من الشعراء الذين سخرُوا فكرهم لخدمة أهدافه.

المبحث الثاني: أبعاد الشعر

لقد استخدم الشعر بادی الأمر كوسيلة من وسائل الترفيه عن النفس، وهو أشبه بالترانيم التي يعبر بها الإنسان أحياناً عن أحاسيسه عندما يكون مرتاح البال، ثم تطور ليأخذ أبعاداً مختلفة؛

الأول: أنه وسيلة للارتزاق

ومن هذه الأبعاد أنه أصبح وسيلة للارتزاق، فنحن نعرف أن عدداً من الشعراء على امتداد التاريخ اتخذوا الشعر وسيلة للارتزاق، وأخذوا في سبيل ذلك يقلبون الحق باطلاً، والباطل حقاً، ويعتدون على الكرامات والأعراض. يقف أحد هؤلاء

لسيف الدولة فيقول:

لو كان علمك بالإله مقسماً بالخلق ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهم ما أنزل الله ستورا والفرقان والإنجيلا

هذا الشاعر لا نستطيع أن نقيسه بابن هاني الأندلسي الذي مدح الخليفة
الفاطمي بقوله:

وعلى أمير المؤمنين غمامة رفعت تُظلل تاجه تظليلا
نهضت بثقل الدر ضوعف نسجه وجرت عليه عسجداً مطلقا
أمديزها من حيث دار نشدما زاحمت عند ركابه جبريلا
زحمت مناكب الجبال فأعلنت شرفاتها التكبير والتهليلا^(١)

فهذا اللون من الحرارة والأداء العاطفي المتقن لا أستطيع أن أتهمه بالارتزاق؛
لأنه كان يعتقد أن هؤلاء أيمة، فهذا الرجل يقول الصدق من منطلق مفاهيمه
وعقيدته هو حتى لو بالغ، لكنه صادق في قوله وفق ما يعتقد. وبمعنى آخر أن
الباعث لهذا القول هو المبدأ وليس الارتزاق، ولكن عندما أسمع أحدهم يقف
للرشيد فيقول:

خليفة الله إنَّ الجود أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
إن أخلف الغيث لم تخلف مخائله أو ضاق شيء ذكرناه فينسغ
من لم يكن ببني العباس مُعتصماً فليس بالصلوات الخمس ينقغ^(٢)

هذا النمط تبدو عليه نبرة الارتزاق واضحة، ويبدو عليه الفناء في الحطام

(١) أر هو ابن هاني المغربي، مناقب آل أبي طالب ٢: ١٥٠.

(٢) الأبيات لمصور النعمري. تاريخ بغداد ٤: ٢٧٢، ١٣: ٦٩، باختلاف في ترتيبها.

الزائل المؤقت، فهذا لون من الفكر المرتزق الرخيص الذي يمشي في ركاب الجبابة.

وإلى هذا يشير السيد الحميري من شعراء الشيعة، حيث رأى من يمدح طلباً للحطام بقوله:

أيها المادح العباد ليُعطى	إن لله ما بأيدي العباد
اسأل الله ما طلبت إليهم	وارج نفع المُتَزَلِّ العَوَّاد
لا تقل في الجواب ما ليس فيه	وتسَمِّي البخيل باسم الجواب ^(١)

فهذا النمط من الشعر مال إلى الارتزاق، وهو نمط من الفكر نزل بالشعر إلى حضيض الاستجداء.

الثاني: أنه وسيلة للانتقام

وهناك لون من الفكر تُحرَّكه غريزة الانتقام، فبعض الشعراء لديه شعر تكمن وراءه دوافع الانتقام والحقْد، فهو يريد أن يشتم، بغض النظر عن كون هذا الذي يريد أن يشتمه يستحق الشتم أو لا، وإلا فماذا يرجو مروان بن أبي حفصة في شعره عندما يشتم الزهراء رضي الله عنها وأمير المؤمنين رضي الله عنه؟ وهل دفعه إلا الحقْد والحسد؟ يقول مروان في شعره: إن أمير المؤمنين رضي الله عنه خطب بنت أبي جهل، فلما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: إذا كان علي بن أبي طالب يريد الزواج من بنت أبي جهل فليطلق ابنتي فإنه لا تجتمع ابنة نبي الله وابنة عدو الله. وكانت الزهراء رضي الله عنها خرجت ويدها الحسن والحسين وهي غضبي^(٢). كل هذا المعنى يصوره مروان

(١) الغدير ٢: ٢٣٨ - ٢٣٩، ونسبه في تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٤٩٣، وابن حجر في الإصابة

٥: ٢٣٢ لمروان بن حطان.

(٢) السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٤٧ / ٨٥١٨، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٢، الجامع

ابن أبي حفصة بقوله:

عليّ أبوكم كان أفضل منكم أباؤه^(١) ذوو الشورى وكانوا ذوي فضل
وساء رسول الله إذ ساء بقتة بخطبته بنت السعين أبي جهل^(٢)
فتصدى له شعراء الشيعة، فقال أحدهم:

عليّ أبونا كان كالطهر جدنا له ما له إلا النبوة من فضل
لئن كانت الشورى أبته وقبلها صحتهم ذات المفسد والجهل
فقد كان أهل الرحلتين وندوة أبوا قبلها من جهلهم سيد الرسل^(٣)

فهذا النمط حاول أن ينزل برسالة الشعر من جوّها التنظيف إلى جوّ الحقد.

الثالث: أنه وسيلة لقلب الحقائق

وهناك نمط ثالث من الشعر يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حقاً، فمثلاً يقول أحدهم:

أنتى يكون وليس ذاك بكائن لبني البغاة وراثة الأعمام^(٤)

ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن المعتز العباسي الذي يريد أن يقلب الحقّ باطلاً والباطل حقاً، فيقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام ابن عم، وهو لا يرث مع وجود العم؛ لأن العم يحجب بناءً على نظرية التعصيب، يقول ابن المعتز:

■ لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٧.

(١) أي رفضوه.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٥، الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

(٣) والمتصدّي هو السيد الحمري عليه السلام. الفوائد الرجالية ١: ٨٩.

(٤) البيت لمران بن حفصة. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١٨٩، تاريخ بغداد ١٣: ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق ٥٧: ٢٩٢.

لكم رحمٌ يا بني بفته
ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أمةً في غابها
فنحن أحقُّ بأسلايها
ونحن ورثنا ثياب النبي
فكم تجذبون بأهدابها^(١)

المبحث الثالث: معنى التعصيب

وهذه النظرية في التعصيب ليست صحيحة؛ لأنها تقوم على أساس حرمان البنت من نصيبها، وهذا خلاف رأي الإمامية، فإذا مات الميت، وخلف ولداً، ذكراً كان أو أنثى، فهو الذي يأخذ الميراث ولو وجد العم. وقد تصدّى شعراء الشيعة لهذا المعنى، وممن تصدّى له الصفي الحلي حيث قال:

ألا قل لشَرِّ غبيد الإله
وطاغي قريش وكذابها
وباغي العباد وباغي العناد
وهاجي الكرام ومسفتابها
أنت تُسفاخر آل النسبي
وتجدها فضل أحسابها
بكم باهل المصطفى أم بهم
فرد العداة بأوصابها
اعتكم نُفي الرجس أم عنهم
لطهر النفوس وألبابها
أما اللهو والشرب من دابكم
وفرط العبادة من دابها
وقلت ورثنا ثياب النبي
فكم تسجدون بأهدابها
وعسندك لا تورث الأنبياء
فكيف حظيتم بأثوابها
فناقضت نفسك بالحالين
ولم تعرف الشهد من صابها^(٢)

(١) ديوان ابن المعتز: ٢٩، الغدير: ٦، ٥٢.

(٢) الصاب: شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة، إذا أصابت العين أتلغها. المعجم الوجيز: ٥٢٧ - صاب.

أجذك يرضى بما قلته	وما كان يوماً بمرتابها
وكان بصفين من حزبهم	لحرب الطفافة وأحزابها
وأقبل يدعو إلى حيدر	بإرهابها وبإرغابها
وقد شمر الموت عن ساقه	وكشّرت الحرب عن تابها
فهلّا تقصصها جذك	إذا كان إذاك أولى بها
وإن جعل الأمر شوري لهم	فهل كان من بعض أربابها
أخامسهم كان أم سادساً	وقد جليت بين خطابها
وقلت بأنكم القاتلون	أسود أمية في غابها
كذبت وأسرفت في ما ادعيت	ولم تنه نفسك عن عابها
فكم حاولتها شراً لكم	فرذت على نكص أعقابها
ولولا سيوف أبي مسلم	لعزّت على جهد طلابها
وذلك عيباً لهم لا لكم	رأى فيكم قرب أحسابها
وكنتم أسارى ببطن الخبوس	وقد شفقكم لثم أعتابها
فاخرجكم وحباكم بها	وقصصكم فضل جلبابها
فجازيتموه بشرّ الجزاء	لطغوى النفوس وإعجابها
فدع ذكر قوم رضوا بالكفاف	وجاؤوا الخلافة من بابها
همّ العابدون همّ الحامدون	همّ الساجدون بمحرابها
عليك بلهوك بالغانيات	وخلّ المعالي لأربابها
ووصف العذار ونعت العقار	وذاث الخمار بالقسابها
فذلك دأبك لا دأبهم	وجزّي الجياد بأحسابها ^(١)

هذا نوع من الشعر الذي يتصدى لمن يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً. ومن أمثله أيضاً ما حدث مع الإمام السجاد عليه السلام وهشام الذي تجاهله، فتصدى له الفرزدق بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطائته والبيت يعرفه والجمل والخرم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا^(١)

ولقد لعبت قصيدة واحدة في أوروبا دوراً كبيراً في تحرير العبيد، وهي من شاعر وقف في وجه الرق.

فالشعر إذن يلعب دوراً مهماً جداً في الميادين الإيجابية.

فالأئمة عليهم السلام يريدون من الشعر أن يُعرّف بأهل البيت، فأنت تجد في شعر الكميت ودعبل بن علي الخزاعي ومن سبقهما من أمثال الوليد بن ظالم الطائي وعدي بن حاتم الطائي تعريفاً بأهل البيت عليهم السلام أنفسهم. وقد تستغرب من أن المسلمين يجهلون أهل البيت عليهم السلام، وهذا ليس غريباً، فنحن في هذا العصر نرى المسلمين يجهلون أهل البيت عليهم السلام. وقد قرأت كتاباً صدر العام الماضي للدكتور أحمد عطية الله اسمه «القاموس الإسلامي»، فرأيت أنه كتب (١٢٦) سطرًا في الإمام الشافعي، ولكنه عندما يمرّ بالإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول عنه: «هو جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، السادس من أئمة الشيعة، ويقال إنه سمي الصادق لصدقه».

ويمرّ الدكتور أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» بريبعة الرأي الذي لا يمكن أن نعتبره من الفقهاء، غاية ما في الأمر أنه من أساتذة الإمام مالك، وهو من الموالي طبعاً، فيكتب فيه صفحات كثيرة، ولكنه عندما يمرّ بالإمام الصادق عليه السلام

يقول: «يقال إنه كان يجلس بالمسجد في المدينة ويتدارس العلم». فكيف يمكن لأبنائنا أن يعرفوا أهل البيت عليهم السلام، وهم وسط هذا اللون من التعمية؟ إذن من الأولى للشعر أن يُندب لهذه المهمة، وهو الأداة الفعالة في هذا الميدان. وليس المقصود من الشعر أنه يرفع من قدر أهل البيت عليهم السلام، وإنما يجلو الضباب لتتضح الحقيقة، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين عليه السلام:

وما مدحتي تُوليك فخراً وإنما أردت بإطرائي عليك الطَّوَارِيا
إذا المَلَأَ الأعلى تحدَّراً بالثَّنَا عليك فما شأني وشأن ثنائيا^(١)

يقول عصام بن المصطلق: دخلت إلى المدينة، فمررت بالحسن عليه السلام فأعجبني رواؤه وسمته وهديه وما عليه من الوقار، وأثار في نفسي وصدري حسداً كان كامناً لأبيه، فدنوت منه وقلت: أنت ابن أبي تراب؟ قال: نعم، فأبلغت في شتم علي بن أبي طالب عليه السلام، فنظر إلي نظرة عاطف، ثم قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ * وَأَمَّا يَفْرِغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا...^(٢) ثم قال لي: «يا هذا، استغفر الله مما أنت فيه؛ فلو استعطفنا لعطفنا عليك، ولو استرشدتنا لأرشدناك، ولو طلبت منا لأعطيناك، فانبسط إلينا بحوائجك، فسوف تجدنا على أفضل ما تروم إنشاء الله». ثم قال هذا الراوي: فلمح في الندم على ما بدر مني فقرأ: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ

(١) وقد عوتب المتنبي في ترك ذكر المناقب فقال:

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً
وإذا استطال الشيء قام بذاته وكذا صفات الشمس تذهب باطلاً

نهج الإيمان: ٦٦٩.

(٢) الأعراف: ١٩٩ - ٢٠١.

الْيَوْمَ يَفْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ^(١) ثم أخذ بيدي ومال بي إلى الدار، ثم سألتني: أنت من أهل الشام؟ قلت: نعم، قال: «سُئِلْتُ عَنْهَا مِنْ أَهْلِ خَزَمٍ». والله لقد خرجت من المدينة وليس على وجه الأرض أحد أحب إليّ منه ومن أبيه^(٢).

انظر إلى هذا النموذج من التجهيل والتضليل الذي مارسه الأمويون بحق أهل البيت عليه السلام، يقول أحدهم: مررت بمسجد حمص، فسمعت أحداً يسأل رفيقه: من هو علي بن أبي طالب؟ قال: لا أعرفه، ولكن يبدو أنه لصّ من لصوص الفتن^(٣).

المبحث الرابع: أهداف زج الأئمة عليه السلام الشعراء في ميدان الشعر

لقد كانت هناك تربية ملتزمة في الشام لطمس حقوق أهل البيت عليه السلام وتشويه صورتهم، فكانت لدى الأئمة عليه السلام أهداف سقوا إلى تحقيقها من خلال حثّ الشعراء وندبهم إلى ولوج هذا الميدان، ومن هذه الأهداف:

الهدف الأول: التعريف بأهل البيت عليه السلام

فعلى الشعراء أن يعرفوا الناس أن نهضة أهل البيت عليه السلام إنما كانت دفعا للباطل، ووقفاً بوجهه، ودعماً للحق.

الهدف الثاني: رفع المثل الأعلى

فإذا نشر الشاعر الفكرة الخيرة ركز لواءً يخفق، فالفكرة الخيرة لواء على طريق النهضات. فأهل البيت عليه السلام يطلبون من الشعراء أن يرفعوا أهداف الإمام الحسين عليه السلام ليأخذوا منها لواءً؛ لكي ينظر إليه الناس ويسيروا على هديه، يقول أحمد شوقي:

(١) يوسف: ٩٢.

(٢) الأنساب ٣: ٤٧، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٧٨.

(٣) مروج الذهب ٣: ٤٢.

نشروا دماءك في المسعبد لواء يستنفض الوادي صباح مساء
جرخ يضح على المدى وضحية تستنفض الحرية الحمراء

فإذا أخذ الشاعر أسرار النهضة، ورفعها لواء، فإن الأحرار سوف يهتدون به.
وكان لشعراء الطف موقف مشرف في هذا الميدان، فقد جلّوا الواقعة تجلية
تناسب مع أهميتها، يقول أحد المعاصرين:

يُمُتُّ يومك استجلي روائعة قاشبعت ناظري مؤارة صور
ما رمت رائعة إلا وجدت به كأن كل سمو فيه منحصر
هو المدى ميّز الشوط البعيد به أعة الركب من جدوا ومن قصر

فهذا الشاعر ينشر موقفاً من مواقف الإمام الحسين عليه السلام يتخذ منه لواءً تتملأه
الجماهير، وتهتز لعظمته. ولم يكن شعراء أهل البيت عليهم السلام يمدحونهم لأجل الأموال
أو الجاه، وإلا فكان لهم أن يمدحوا الأحياء، وأهل الحكم والسلطان، لأن
يمدحوا المقتولين، ومن وقفت الدنيا ضدهم، فهم ينشرون الحق لواءً، ولا ينشدون
سوى الحق ^(١).

الهدف الثالث: عرض جانب الظلامه وأسرار النهضة

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى ما يكتبه بعض الكتاب في الماضي والحاضر من أن
الإمام الحسين عليه السلام هل كان عنده تخطيط في نهضته أم لا؟ وهو ألم يكن يدري أن
يزيد يمتلك الدنيا، فالجيوش تحت إمرته، والطاقات من الأموال والجاه والقوة

(١) بل إنهم كانوا يرجعون الأموال التي يعطيها إياهم الأئمة عليهم السلام جرّاء مدحهم لهم كما فعل
الفرزدق وغيره مع الإمام السجاد عليه السلام، انظر شرح الأخبار ٣: ٢٦٤ - ٢٦٥، وكما فعل دعبل
مع الإمام الرضا عليه السلام، انظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٣٣، وكما فعل الكمي
مع الباقر عليه السلام، انظر دلائل الإمامة: ٢٢٤ - ٢٢٥.

كلها بيده؟ ألم يكن الإمام الحسين عليه السلام يعرف أن سبعين مقاتلاً لا يستطيعون مواجهة هذه القوة؟ ولماذا لم يُصالح ويستسلم ويُقرّ كما فعل غيره؟ وهؤلاء لا يفهمون أسرار نهضة الإمام الحسين عليه السلام، فهو لم يكن يخرج ليفتح بلداً، ففي رسالته عليه السلام لبني هاشم بُعيد نزوله في كربلاء يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلف لم يبلغ الفتح»^(١). فما هو الفتح الذي يعنيه هنا؟ الفتح هو ما نراه اليوم من آثار لهذه الثورة، فالإمام الحسين عليه السلام حول الموت إلى فتوح:

وتسامت بالموت حتى أحالت	— فتوحاً سخيّة الأراج
لم تفجر لظاك يهدر بالحد	— ق لتروي قرائح الفداح
بل لنحيا صغيرةً مارداً يب	— عث للموت سلفاً من أضاح

فهو عليه السلام لم يستهدف أن تُستدرّ عبرة، فهو جذوة، ولم يكن يريد أن يحتلّ بلداً فيفتحه، وإنما أراد أن يريق الدم الطاهر لينتصر على المدى البعيد، ويأخذ طريقه في الدنيا. وهو عليه السلام امتداد للنبوّة، والنبوّة جذوة في وجه الظالمين، ولكن هذه الجذوة تعمّ عليها وسائل الإعلام فتتسخ أهدافها ودوافعها، وتصوّرها بصور أخرى. والشعر له القابلية على أن ينهض بمهمة كبرى في هذا المجال، وأن يلعب دوراً كبيراً:

الشعرُ أخرج ألف نارٍ وانجری	يلوي أنوف الظالمين ويجدعُ
لو شاء ردّ الليل في أسماهِ	واحات نور تستشف فتلمعُ
أو شاء قاد من الشعوب كتاباً	يعنوها من كل أفق مطلعُ

فالشعرُ إذن يكشف أسرار النهضة، ويدافع عنها في وجه من يقول: إن الإمام الحسين عليه السلام «قتل بسيف جدّه»^(١)، أو لم يكن عنده تخطيط، أو ما استطاع أن يصل إلى النصر.

إن الحياة بمعناها الكريم وسموها أكبر من أن تلج أمثال هذه الأدمغة المنحطّة التي تتصوّر أن النصر هو أن يعيش يزيد بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام بضعة أيّام، وتحت يديه جارية تسقيه الخمر، أو إلى جانبه مخنث يُحيل ليله إلى غناء^(٢).

ولكن، قد يسأل سائل فيقول: هل للعاطفة دور في هذا المكان أو لا؟ وهل أراد الأيّمة عليهم السلام من الشعراء أن يُحرّكوا العواطف ويُدّكروا بالفاجعة؟ لا شك أن واقعة الطف أحدثت تأزّماً كبيراً في تأريخ الشيعة منذ وقوعها وحتى الآن، فإذا مرّت هذه الأيّام العشرة أحدثت تأزّماً في كيان الفرد الذي ينتمي إلى هذه الطاقة، وهذا يستلّ «الميراث التاريخي» أو «التأريخ الاجتماعي». وقد اهتمّت الدراسات الحديثة بهذا الجانب أيّما اهتمام، وحسبت له ألف حساب. ولذلك تجد الأدب الشيعي حارّاً؛ لأنّه تربّى على النكبات والجرم:

والدهر لا يُنْشِي الرجال صوارماً إلا إذا احترقوا على جمراته

يقول أحد الشعراء:

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ - ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

(٢) حيث يروى أن معاوية سمع شخصاً يغني عند ابنه يزيد، فقال: من هذا؟ فقال: هذا سائب خاثر - أحد المغنين، رسمي كذلك لأنّه غنى صوتاً ثقيلاً، فقال من سمعه هذا غناء خاثر، انظر: تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، الأعلام ٣: ٦٨ - فقال له: فاختر له بني من برك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. انظر في هذا وغيره: تاريخ الطبري ٤: ٢٤٩، الأغاني ٨: ٣٢٤، تاريخ مدينة دمشق ٢٠: ١٢٢، ٦٩: ٢٩٣.

أرق من دمة شيعية تبكي علي بن أبي طالب

ذلك لأن دمتها رقيقة صادقة حارة؛ لأنها تستشعر بحراة الألم الذي وقع على أهل البيت عليه السلام. وعلى مرّ السنين والأيام يتحوّل إلى خزين متراكم لا بدّ له من لون من ألوان التفريغ عن النفس.

كما أن الكثير من الناس يقولون: إن الإمام الحسين عليه السلام عملاق مصنوع من طاقة هائلة، مبني من الدم، فلماذا تصنعونه من دموع؟ كلا إنه يبقى مصنوعاً من دم، ويبقى عملاقاً، ولكن الدموع شيء قسري لا طاقة لنا على رده، ولذلك يقول جعفر بن عقیان: دخلت على الإمام الصادق عليه السلام أول المحرم، فرفع رأسه إليّ وقال: «بلغني أنك تقول الشعر وتجيده». قلت: نعم، قال: «أنشدني في جدي الحسين عليه السلام». فقلت: سيدي إني أهابك. قال: «لا، أنشدني». فقلت:

افزّر على جدّ الحسيد	من وقل لأعظمه الزكينة
يا أعظماً رضتك قو	م بالجياذ الأصحبية
وإذا مسررت بسقبره	فأطل به وقف المطبنة
وابك المطهر للمطهر	سر والمطهرة النقبنة

فرايت الإمام أخذ ينشج ويهتز، ثم قال لي: «أنشدني»، فقلت:

يا مريم قومي اندبي مولاك وعلى الحسين فأسعدني ببكاك

يقول: فقال الإمام عليه السلام: «هكذا أنشدني كما تشدون بالرقّة». وتعالى النحيب من وراء الستار^(١).

(١) انظر كامل الزيارات: ٢١١ / ٣٠١، مشير الأحران: ٦٤، القدير ٢: ٢٣٦، والأبيات الأول للسيد الحميري.

ودخل الكميّ على الإمام الصادق عليه السلام في مكة المكرمة أيام التشريق فقال:
سيدي، أريد أن أنشدك. قال الامام عليه السلام: «إنها ليالٍ عظيمة». فقال: إنها فيكم أهل
البيت. قال: «هات». فوقف الكميّ ينشد ميمّته العصماء:

مَنْ لَقِبَ مُنْتِمٍ مَسْتَهَامٍ غَيْرَ مَا ضَبُوءَ وَلَا أَحْلَامٍ
أَخْلَصَ اللَّهُ لِي هَوَايَ فَمَا أَغَى رَقَى نَزْعًا وَلَا تَطْيِشَ سَهَامِي

يقول الكميّ: فأنشدت إلي أن وصلت إلي قولي:

وَقَتِيلٌ بِالطَّفِّ غَوْدَرِ مِنْهُمْ بَيْنَ غَوْغَاءِ أُمّةٍ وَطِفَامٍ

يقول الكميّ: فسمعت النشيج من وراء الستر، وخرجت من وراء الستار
جارية تحمل على يديها طفلاً رضيعاً وضعت بين يدي الإمام عليه السلام، ويبدو أنها
أرادت أن تُذكر بمشهد من مشاهد الطف المتحرّكة فأخرجت هذا الرضيع، وما كاد
الإمام يقع بصره عليه حتى انفجر بالبكاء، وأخذت دموعه تَكِفُّ على كريمة^(١).

أقول: سيدي كيف بك لو رأيت جدّك يوم رجع يحمل رضيعه وهو مذبوح من
الوريد إلى الوريد:

وَلَوْ تَرَاهُ حَامِلاً طِفْلَهُ رَأَيْتَ بَدْرًا يَحْمِلُ الْفَرْقَدَا
مُخَضَّبًا مِنْ فَيْضِ أَوْدَاجِهِ أَلْبَسَهُ سَهْمُ الرُّودَى مَجْسَدًا^(٢)

ويقول دعل بن علي الخزاعي: كنت أنشد عند الإمام الرضا عليه السلام:

تَجَاوَبْنَ يَا إِرْنَانِ وَالزَّفَرَاتِ نَوَاحِجُ أَجْمِ اللَّفْظِ وَالنَّطَقَاتِ

(١) الفدير ٢: ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط:

حتى وصلت إلى قولِي:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات ظمآنً بشطّ فراءِ
إذن للطمع الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجفاتِ

يا به ما بعيني دمع واسجيك بنفسي يسبو السجّاد اداويك



كتب التفسير والأساطير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا
أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا
جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: رأي المفسرين والإساءة إلى آدم عليه السلام

للمفسرين في هاتين الآيتين رأيان:

الأول أنها عامة نزلت في الناس كافة.

والرأي الثاني أنها نزلت في آدم عليه السلام، وأن القصة تتلخص كما يرويها بعض

المفسرين^(٢) بأن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض، وحملت حواء، مرّ به إبليس فقال

(٢) التفسير الكبير ١٥: ٧٠.

(١) الأعراف: ١٨٩ - ١٩٠.

له: ماذا تظن في بطن حواء؟ قال: «الله أعلم». قال: ما يدريك أن يكون في بطنها حيوان؟ فأنذر إن ولد لها ولد أن تسميه عبد الحارث، وهو اسم إبليس. فأنذر آدم ذلك، ولما ولدت ولداً سماه عبد الحارث. والآية تشير إلى أن هذا اللون من التسمية لا يصح؛ لأن فيه عبودية، وهي لا تصح إلا لله تعالى.

هذا هو التفسير الآيدولوجي كما يمكن أن نسميه، والقصة كلها محبوكة ومرتبطة لهدف واحد كما سيمر بنا.

والغريب أنك تجد هذا اللون من الإسرائيليات عند كبار المفسرين، كالفخر الرازي وغيره الذين يروون هذه الرواية. فكيف يمكن أن نتصور آدم عليه السلام - وهو نبي - ينخدع بإبليس الذي أخرجه من الجنة، ثم يأتيه مرة أخرى فيخدعه؟ وكيف يمكن لنبي الله آدم أن يسمي تسمية فيها شرك؟ وكيف أنه يحتمل من زوجته أن تحمل حيواناً؟ وهل يمكن لنبي أن يتصور أن امرأة تحمل حيواناً خارجاً عن جنس البشر؟ ولم لا تنظف كتب التفسير من هذه الخزعبلات؟ إن الطابع اليهودي واضح على مثل هذه الأمور، وقد لعبت الإسرائيليات وغيرها لعباً مروعاً في التفسير.

المبحث الثاني: معنى «نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»

هذا هو التفسير الخاص بآدم عليه السلام، أما التفسير العام للآيتين، والذي يبين المضامين العامة للنص الشريف فهو أنهما نزلتا في كل أم وأب، وإليك مضامينهما: تقول الآية الكريمة: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» والنفس الواحدة التي نرجع إليها جميعاً باعتبارها المصدر الأول لنا هي آدم عليه السلام أبو البشر جميعاً، فهو الأساس الذي تحدّر منه الناس. ولكن أي آدم هو؟ لو رجعنا إلى النظرية الكلاسيكية في كتب التفسير لوجدناها لا تلتئم أو تتفق مع النظرية العلمية؛ لأن النظرية

الكلاسيّة تقول: إن بيننا وبين آدم فترة قصيرة (حوالي أربعة عشر ألف سنة)، فإذا اعتبرنا آدم أصل النوع فإن هذه المدة قصيرة جداً، وقد دلت الاكتشافات على وجود أجساد مطمورة تحت الأرض، باقية بفعل عوامل جيولوجية، ولما درس العلماء هيكلها العظمي وخواصّها وجدوا أنها لا تختلف عن خواصّ الإنسان المعاصر، علماً أن تاريخها يرجع إلى مئات الآلاف من السنين (نصف مليون سنة مثلاً، وهو الرأي الذي يسمى رأياً علمياً إلى حد ما)، وهناك نظريات تقول: إن هذه الأجسام ترجع إلى مليوني سنة، أو ثلاثة ملايين، أو أكثر. ولذلك ضربت هذه الاكتشافات نظرية دارون ضربة قوية، وأخرجتها عن الحقل العلمي.

فنظرية أن بيننا وبين آدم ﷺ عشرة آلاف سنة لا تسمع لنا أن نعتبره الإنسان الأول؛ لأن هناك إنساناً قبل هذا التاريخ. فأدم ﷺ هذا ليس هو الإنسان الأول، فمن الذي تريده الآية يا ترى؟

إن الآية تريد آدم الأول وهو الأساس، لا هذا الذي تحدد لنا كتب التوراة أو الإنجيل أو التاريخ المدة التي بيننا وبينه بأربعة عشر ألف سنة. فهذا لا يتفق مع النظرية العلمية إطلاقاً، ولا يمكن أن يحمل القرآن نظرية فيها مخالفة للحقائق أبداً. فلا بد أن يكون آدم المعني غير آدم الذي بيننا وبينه هذه المدة المذكورة.

لماذا يركّز القرآن الكريم على ظاهرة النفس الواحدة؟

ثم نسأل هذا السؤال: لم يركّز القرآن الكريم في هذه الآية على ظاهرة النفس الواحدة؟ الجواب: أنه يريد أن يطرد نظرية التمايز في أصل المنشأ والخلق. فهناك إحدى النظريات مثلاً تعلل الحضارة بتفاوت الجنس، فيقسمون الناس إلى الجنس الأسود والأشقر والأصفر والأسمر وغيرها، ويقولون: إن الحضارة مدينة للجنس الأشقر. وهكذا يعللون الحضارات كلّها بنظريات الجنس، وأن بعض الأجناس

متميزة عن غيرها، وأن الحضارة مدينة للجنس المعروف عندهم بـ«السوبرمان»، وهو الرجل الأشقر. فهذا الجنس وحده الذي يمكن في نظرهم أن يسمى آدمياً، أما الآخرون فيطلق عليهم هذا الاسم من باب التجوُّز، وإلا فإنهم ليسوا كذلك. فالقرآن يريد أن يطرد هذا اللون من التفكير غير العلمي وغير الواقعي عن أذهان البشر، ويبين لهم أن الناس في أصل المنشأ والخلقة سواء، وليس هناك إنسان مميز.

وإذا رجعنا إلى المنح، وافترضنا أنه هو منبع الفكر والعقل، فانتا نجد أن خلاياه عند كل إنسان (١٤٠٠) مليون خلية، ولا يوجد تفاوت بين البشر من هذه الناحية، والمنح هو المنح عند الجميع. فمن أين جاء هذا التفاوت؟ إنه آتٍ من التربية والمحيط والرعاية والمواريث الاجتماعية. فلم يخلق الله تعالى بشراً ناقصاً وآخر كاملاً، إنما خلقهم جميعاً كاملين، ولكن القدر ألقى بصنف في أفريقيا فصار لونهم أسود، وألقى بصنف آخر في أوروبا فصار لونه أشقر، وسط بيئة العلم والمعرفة. فلا هذا له فضل، ولا ذاك له ذنب. فكلّ منهما ربي في محيط، ونحن لا دخل لنا في الاختيار، فالإنسان يولد في مكان لا اختيار له فيه، والقدر هو الذي رسم له مصيره في الأب والأم والمكان. والناس في أصل المنشأ والخلقة سواء، وهذا المعنى يسجله أمير المؤمنين بقوله:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهُم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء^(١)

ف«كلّكم لآدم وآدم من تراب»^(٢) حسب التعبير النبوي في الحديث الشريف.

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام : ١٥ .

(٢) تحف العنول : ٣٤، شرح نهج البلاغة : ١ : ١٢٨ .

وهذه النظريات التي تقوم على أساس الأجناس المميزة إنما هي نظريات فيها أهداف أيديولوجية معينة. وقد استغلت في هذا الباب، فاستغلّتها إيطاليا أو ألمانيا يوماً من الأيام، كما استغلّها الإنكليز وغيرهم ممن يرى أن جنسه هو الأفضل، والأجناس الأخرى خاملة ليس فيها الخواص المميزة نفسها. والإسلام يرى أن هذه النظرية كافرة خطيرة، ترفع الناس بعضهم على بعض دون سبب، فإن وُجد هناك تفاوت ففي الكسبيات، كأن يُقدم العالم على غير العالم، أما في أصل المنشأ والخلق فالتناس متساوون.

وهذا الموضوع طويل ودقيق، وفيه تساؤلات كثيرة، فمثلاً: هل إن الذكاء من الله أو من طبيعة المحل؟ دعنا نأخذ هذا التوضيح: لو كان لدينا كوز للماء وقدرح، فبطبيعة الحال إن الكوز يأخذ كمية من الماء أكثر من القدرح. فلا يمكن أن يقال: إن الله ظلم القدرح ووسع على الكوز بهذا اللحاظ. فهذا ليس من الله إنما هو من قابلية المحل، والله خلق الناس من مادة لها قابلية، وهو الفاعل، والمادة قابلة منفصلة تأخذ بقدر استعدادها، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾^(١).

وخذ هذا التوضيح الآخر: قد يقول قائل: لم خلق الله الخنفساء هكذا ولم يخلقها إنساناً، وهما من الخلية نفسها؟ فهل هذا ظلم أو لا؟ كلا، إن الله لم يظلم، إنما المادة نفسها فيها قابلية محل، وعلّة غائية من وراء قابلية المحل. والعلّة الغائية أن الدنيا تحتاج خنفساء وضفدعاً وإنساناً وبقرة وحماراً ونعجة، وهكذا، وذلك لإدارة شؤون الوجود. فهذا ليس ظلماً إنما هو تنويع وتصنيف، مع استعداد للمحل. فالقرآن يريد في هذه الآية أن يطرد احتمال التمايز والتفاوت، فلا يشعر أحد أنه مخلوق من ذهب، والآخر من تراب، إنما الناس لآدم وآدم من تراب. كل هذا

كيلا يأتي من يتكبر ويتجبر ويصغر خذّه على أنه من جنس أفضل، أو أنه يمتلك مميزات أكثر من غيره.

المبحث الثالث: الجعل بسيط ومركب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ويقسم الفلاسفة الجعل قسمين: بسيط ومركب. فالجعل البسيط هو التكوين، كجعل الارض. أما الجعل المركب المزدوج فهو كجعل الطين إبريقاً؛ لأننا أولاً صنعنا الطين، ثم صيرناه إبريقاً، فهو تحويل المادة إلى شكل معين. وفي الآية الكريمة يقول: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلقه، وهذا جعل بسيط.

وكلمة ﴿من﴾ هنا هل هي لبيان الجنس أو للتبويض؟ لأنها تأتي في اللغة لمعانٍ مختلفة، فهل هي هنا للتبويض؟ وذلك بناء على النظرية التي تقول: إن الله عز وجل لما أراد خلق حواء، ترك آدم حتى نام، فاستلب أحد أضلاعه - وهو أعوج - فخلق منه حواء. لذا فإن المرأة دائماً غير مستقيمة.

وهذا طبعاً من الإسرائيليات المعروفة في كتب التفسير^(١) والحديث^(٢)، وإلا فما الداعي لهذه العملية الجراحية المعقدة في أخذ الضلع، وخلق حواء منه؟ وهل إن الله عاجز عن خلق حواء من تراب؟ إن الذي خلق آدم ﷺ من تراب يستطيع أن يخلق حواء من ذلك التراب، والتراب كثير. فلا يمكن أن نطمئن لهذا اللون من الكلام الفاسد، ولا يمكن إذن أن نحمل ﴿من﴾ على معنى التبويض؛ لأن هناك

(١) مجمع البيان ٨: ٢٨٦، ونسبه إلى التضعيف بقوله: «وقيل»، جامع البيان، المجلد ٣، ج ٤:

٢٩٧، المجلد ٦، ج ٩: ١٩١، المجلد ١٢، ج ٢٣: ٢٣١، ولم يرد أنه أعوج، الجامع لأحكام

القرآن ١: ٣٠١، وفيه أنها عوجاء؛ لأنها خلقت من ضلع أعوج، تفسير الثعالبي ٢: ١٥٩ مثله.

(٢) المعجم الأوسط ١: ٩٣، بغية الباحث: ١٦٠، فتح الباري ٢: ٢٦٢.

وانظر أيضاً سبل السلام ٣: ١٣٩، المغني ٨: ١٢٦.

لوازم فاسدة تترتب على ذلك، ويتدخل الفكر اليهودي في رواية قضايا لا مجال للاعتراف بها أبداً. فالله خلق حواء من تراب كما خلق آدم من ذلك. أما أنها خلقت من ضلع حي فسميت حواء فهذا هراء؛ لأن اسم حواء يمكن أن يكون مشتقاً من حياة أو حيّ أو غير ذلك.

فهذه الكلمة ﴿من﴾ لبيان الجنس، أي أن الله خلق له زوجة من جنسه؛ لأن آدم هو الجنس الوحيد الأول، فخلق الله له زوجاً من جنسه؛ ليستأنس به؛ فالإنسان لا يستأنس إلا بجنسه. لاحظ مثلاً أولئك الذين يعيشون في محيط من لغة واحدة، هذا المجتمع لو لاحظته لرأيت أن له خواصّ وتماسكاً، ويأنس بعضهم ببعض؛ فالعربي يأنس للعربي، فإن ذهب إلى أوروبا راح يبحث عن العربي مثله يتحادث معه؛ لأن الإشباع النفسي لا يحصل له ما لم يجد من يتكلم معه بلغته ليتفاعل معه، فاللغة تنقل المشاعر والأفكار. والله خلق لآدم زوجاً من جنسه ليأنس به. فـ ﴿من﴾ هذه للجنس لا للتبويض.

المبحث الرابع: الغاية الحقيقية من الزواج

ثم بين بعد ذلك العلة الغائية من وراء ذلك فقال: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فأراد أن يشعرنا أن الغاية من الزواج ليس الإشباع الجنسي فقط كما يفهم البعض، بل الغريزة ما هي إلا وسيلة لتحقيق غاية أفضل. فلم يخلق الله هذا الإنسان العبقري الذي سخر عقله السماوات والأرض، ليضع عنده غريزة حيوانية يشترك معه فيها أبسط الحيوانات، فيشبعها فقط. فهذا هدف حقير جداً، وهناك هدف سام، وأثر كبير هو السكن، فالمرأة سكن للرجل، وهو سكن لها؛ لأن مهمة كل منهما بناء العش الذي تدور فيه وحوله مجموعة القيم والاخلاق في الدنيا. وهذا العش هو الأسرة التي تتكوّن من أم وأب.

فالإنسان يتزوج بدافع السكن والاطمئنان، فيتبادل مع زوجته الرأي، ويستعين بها وتستعين به على حل مشاكل الحياة، وتربية الولد. فالمرأة كيان يسهم في بناء الأسرة؛ لذا لا بد من أن يتوفر فيها الاستعداد لأن تتفجر عطاء، بأن تسهم في بناء المجتمع. وإذا فقدت المرأة بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في الزواج، فلا يمكن أن تسهم إسهاماً سليماً في بناء الأسرة. ومن هذه الشروط ألا تجبر على الزواج، ولا يجبر الزوج على ذلك، كما يحدث عند بعض الأسر، كأن يُجبر الطرفان أو أحدهما على الزواج بدافع ألا يذهب ثراء الأسرة مثلاً للأجنبي.

إن مشاعر المرأة والرجل أكبر من أن تكون عرضة لدافع حفظ الثروة، والإجبار يشلّ عند الإنسان الإبداع، ولا يجعله ينطلق. والزواج وراءه آفاق نفسية، وهذه الآفاق سوف تُشلّ ولا تنطلق إذا كان الزواج بالجبّر. إننا ننتظر من هذا الزواج أن يبني إنساناً، والغلطة في بناء الإنسان لا يمكن إصلاحها، كتلك التي تكون في بناء شيء آخر، فمن يصنع جهازاً ويخطئ فيه يمكن أن يصلحه أو يعوّضه، أما إذا بُني الإنسان بناءً فاسداً فلا يمكن إصلاحه أبداً.

والأسرة هي التي تبني الإنسان، فإن بُنِيَ كذاباً أو فاسداً فسيكون خطراً في المجتمع، لا يعدل شيئاً، والمفروض أن الإنسان يعدل عند الله السماوات والأرض. ولذا يجب أن تتوفر الشروط الموضوعية من الزواج؛ كي يترك بصماته فيما بعد على الأسرة.

فالمرأة إذن سكن، وهي تساهم في بناء المجتمع. والتاريخ يذكر الكثير من النماذج والشواهد على ذلك، منها أن الحرث بن عوف قال لخارجة بن سنان: أريد أن أخطب، فهل تعتقد أن أحداً من العرب لا يزوّجني؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لأم الطائي. فقال: لنطرقه ونزّر. فذهبوا إلى الحارث

ليخطبوا إليه، فلما دخلوا عليه رحّب بهم، ثم قال: ما وراءكم؟ قالوا: جئنا خاطبين.
قال: لمن؟ قال الحرث: لي. قال: لست هناك.

فقام غاضباً. فلما خرج، دخل أوس على زوجته متأثراً، فسأله، فقال لها: إن هذا الرجل استهجنني، وخطب إليّ إحدى بناتي. فقالت: إذا لم تزوج سيد العرب، فمن تزوج؟ قال: فما أصنع؟ قالت: اتبعه. قال: لا، أسأل بناتي أولاً، وأعرف وجهة نظرن.

فأقبل إلى الكبرى وقال: بنية، هذا سيّد العرب جاء يخطبك مني فماذا تقولين؟ (لاحظ هذه الروح الطيبة عند هذا الرجل)، فقالت: أبه، إن في طبعي حدة، وفي خلقي رداءة، ولست بابنة عم له فيراعيني، ولا أنت جازّ له في البلد فيستحي منك، وأخشى أن يطلقني فأكون سبّة عليك. فسأل الثانية، فأجابته مثلها، وأشعرته أنها لا تصلح. فجاء إلى الصغرى وكان اسمها «هثية» فقال: ما رأيك؟ قالت: إني لجميلة وجهاً، حسنة خلقاً، صائبة رأياً، فإن طلقني فلا أنعم الله عليه. فخرج منها، وزوّجه، فأفرد خباء له ودخل عليها.

يقول نديمه: فلما أصبح عليه الصباح سأله: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا. قلت: لم؟ قال: لما دنوت إليها قالت: مه، أتصنع بي كما يصنع بالسبية؟ لا بد أن تجد فرصة ملائمة أخرى غير هذه.

يقول: فقطعنا الطريق عائدتين، وبتنا ليلة في منتصف الطريق، وقد أفرد خباء له بعيداً عن خبائي، فلما أصبح الصباح سأله: هل فرغت من حاجتك؟ قال: لا، إني لما دنوت منها قالت: مه، فلست عابرة سبيل، انتظر حتى تصل إلى أهلِكَ فتنحر الجزر، وتوسع على الفقراء، وتطعم الضعفاء. فقلت: إني لأرى عقلاً، وسأرى خيراً. فلما وصل إلى أهله نحر الجزر وأطعم الطعام، فلما أصبح الصباح سأله، فقال:

لما دنوت منها قالت: أنت تعرس بأهلك. والعرب تتقاتل فيما بينها؟ وكانت هناك حرب بين عبس وذبيان، ثم قالت له: اذهب وأصلح بين القبائل، وتحمل حمالات الدم، وارجع إلى أهلك.

يقول: فخرجنا صباحاً، وأخذنا ثلاثة آلاف من الإبل وأطفأنا النائرة، وأصلحنا بين القيلتين، وأوقفنا إراقة الدماء. فلما عدنا، ودخل عليها سألته، فقال: نعم، قضيت حاجتي^(١). وقد سعدت معه هذه المرأة، وولدت له أولاداً.

فالمرأة سكن، تشعر الرجل بالغبطة، وتشاركه في بناء الإنسان، وكم هو جميل لو أن عندنا امرأة مثلها اليوم.

المبحث الخامس: من أدب القرآن

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ لاحظ هذا التعبير اللطيف للقرآن، فهو عندما يمر بالقضية الجنسية، فإنه من باب التهذيب يكتفي عن اللفظة الصريحة؛ لأنه يريد منا ألا نتعود على اللفظة النابية المكشوفة، أما في باب التشريع فيستخدم اللفظة نفسها؛ فهو يقول مثلاً من باب التهذيب ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَن يَفْقَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾^(٢) والمقصود به الزنا؛ لأن الرجل عادة يكون بين يديها ورجليها ساعة اللقاء.

وفي هذه الآية يعبر عن العملية الجنسية بقوله: ﴿تَغَشَّاهَا﴾ ليعود السنتنا على التعبير الهادف النظيف، ويجنبها الكلمة الداعرة؛ لأن مثل هذه الكلمة ينعكس أثرها على النفس. ولا تمكن أن يُحكم على تربية أمة وأخلاقها إلا من تعابرها.

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) الممتحنة: ١٢.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء مخبوء تحت طي لسانه»^(١)، لا تحت طيلسانه. فالكلمة هي التي تحدد أخلاق الإنسان وقيمه وعلمه.

ثم قالت: ﴿حَمَلْتُ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ والحمل - بالفتح - ما كان في البطن، أما الحمل - بالكسر - فما كان على الظهر. والحمل هو الجنين، وذلك في بدء الحمل. أما بعد ذلك فلا يكون خفيفاً، فلذا قال تعالى بعد: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلْتُ﴾، وذلك إذا كبر الحمل. والقرآن يريد أن يشعرنا بقيمة الأم التي تتحمل آلام الحمل والولادة. وينبغي للإنسان أن يعطيها حقها إذا كبر وترعرع، فقد قاست ما قاست في أدوار الحمل والولادة والحضانة، وهذا هو السبب الذي جعل الجنة تحت أقدام الأمهات^(٢). وقد دعا الباري إلى برّ الأم^(٣)، كي يحافظ على ترابط الأسرة، وعلى القيم الخلقية، فمن يعيش بخلق عالٍ وتربية طيبة وبرّ لأبويه، فإن ذلك سوف يتناسل معه، فمن يكن باراً أمكن أن يهيئ الله له أولاداً بارين، وبالعكس. ولا أريد أن أقول: إن هذه قاعدة لا تنخرم، لكن العادة أن البار بأبويه يهيئ له الله الأولاد البارين، وبالعكس.

ثم قالت الآية: ﴿ادْعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَاهُمَا صَالِحًا لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ * فلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ، والقضية هي أن الإنسان عندما يرزقه الله يتصور أن السبب الطبيعي هو العلة في الخلق، ووجه الشراكة مع الله هنا أن الأم والأب يتصوران أن تعبيهما هو العلة التامة في الإيجاد والخلق، فلقاؤهما واجتماعهما هو الموجد للولد؛ وبهذا يتخذ الأب من نفسه شريكاً لله. لكن الإنسان الواعي يعرف

(١) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٤٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ٢٠١، ١٨.

(٢) مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

(٣) كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف: ١٥).

أن اللقاء ليس هو العلة التامة، فقد يجتمع الأب والأم، وليس عندهما مانع، ولكن لا يتكوّن الولد، فالله تعالى هو الخالق: ﴿يَهْبُ لِعَنْ يَشَاءُ إِنَآثَا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ ۝ أَوْ يَزُوْجَهُمْ ذَكَرَانَا وَإِنَاثَا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا﴾^(١).

أما من يروي أن هذه الآية نزلت في آدم عندما حملت حواء وجاءه إبليس وقال له: عِدني أنها إن ولدت ولدت ولداً أن تسميه عبد الحارث، فسماه عبد الحارث، فهذا شرك؛ لأنه سماه بهذا الاسم^(٢)، فهذه القصة لها هدف وأساس سوف تعرفه. وأنا أستغرب من ابن قيم الجوزية - وهو عملاق من عمالقة الفكر والفقهاء عند المسلمين، وهو تلميذ ابن تيمية، وكتبه جيدة ومفيدة - أن يميل إلى ذلك^(٣)، مع أنه في كتابه (تحفة المودود في أحكام المولود) يذهب إلى أن مثل هذه الأسماء شرك، وهي محرمة، وذلك مثل عبد الحسين أو عبد النبي أو عبد علي وما شابه، بل الأكثر من ذلك أنه يحرم الاسم إذا كان فيه صفة من صفات الله، مثل رزاق ورؤوف وغيرهما^(٤).

الرد على تهمة الشرك في بعض الأسماء

لكن هل إن هذه الأسماء كذلك؟ أو أن الأعمال بالنيات؟ فإن سميت باسم عبد علي، فهل إنتي حقاً أعتقد العبودية لعلي، وأن علياً شارك في خلقه؟ إن علياً والحسين والنبي ﷺ ما هم إلا عبيد من عبيد الله، والله وحده الذي يُعبد.

ثم إننا نعيش في بيئة عربية، والشاعر العربي يقول:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً وما شيمة لي بعدها تشبه العبد^(٥)

(١) الشورى: ٤٩ - ٥٠.

(٢) تاريخ الطبري ١: ١٠١، تفسير القرآن العظيم ٢: ٢٨٦، تفسير الجلالين: ٢٢٣.

(٣) روضة المحبين ١: ٢٨٩. (٤) تحفة المودود ١: ١١٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣٣٩.

فنحن نقول للضيف: أنا خادمك، أنا عبدك، فهل صحيح أنني كذلك؟ أم أن هذا من الاحترام والتقدير والتأدب؟ وكذا إذا قلت: عبد الحسين، فهو من باب الاحترام والتأدب، وإلا فإن الحسين ليس إلا عبداً من عبيد الله. ومن اعتقد أن الحسين عليه السلام يشترك في الخلق مع الله فهو مشرك. أما أن يوزع الشرك على الناس اعتباراً، فهذا ما لا يقرّه عقل ولا منطق ولا أدب إسلامي، ولا يمكن أن أحكم على أحد بما في نفسي أنا، بل بما في نفسه هو.

وجد المسلمون يوماً - وهم في سرية ومعهم أسامة بن زيد - رجلاً على رأس جبل ومعه أغنام، فلما رأهم نزل وقال: «أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله». وفرح بالمسلمين، فقالوا له: إنك لم تسلم، إنما رأيتنا فخفت منا، واستعذت بهذه الكلمة. ثم جرد أسامة سيفه وقتله، فلما رجعوا وأخبروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم حزن حزناً شديداً، فقال أسامة: إنه استعاذ، وأراد أن يتستر بالإسلام، ولم يسلم صادقاً. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «هل شققت عن قلبه؟»^(١).

ولدينا الآن أناس مثل هذا، يوزعون الإيمان والشرك كما شاؤوا على من شاؤوا. في حين أن «الأعمال بالنيات»^(٢)، والأدلة التي يتعرضون لها في هذا المجال أدلة غير ناهضة.

المبحث السادس: دليل كون الآية عامة

والدليل على أن الآية نزلت في العموم لا في آدم عليه السلام أن الله تعالى ختمها بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهو تعبير بصيغة الجمع، ولو كانت في آدم وحواء

(١) مسند أحمد ٥: ٢٠٧، صحيح مسلم ١: ٦٧، ومثله في مسند أحمد ٤: ١٢٩، غير أنه لم يسم أسامة.

(٢) فتح الباري / المقدمة: ٤٧٤، ١: ٨، ٩، ١٠، ٤١، ١٩٧.

لكان التعبير بالمشنى (يشركان) ^(١).

وقد ولد لآدم أولاد، وحدثت في زمانه الجريمة الأولى التي حدثت على الأرض، يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿رَبِّسْنَا أَرْضَنَا الَّذِينَ اضْطَلَّنا مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ ^(٢): إن من الجن إبليس، ومن الإنس ابن آدم الذي قتل أخاه. وهو أول دم أريق على الأرض ^(٣). وهناك أساطير تقول: إن آدم وقف ونظم شعراً على أوزان الخليل بن أحمد ^(٤). وكل ذلك أساطير وأشياء وضعت في وقت متأخر.

لكن آدم حزن على هذه المأساة، واسودَّت الدنيا في عينيه، والواقع أن فقد الولد مصيبة على الوالدين لا يمكن أن يتصورها إنسان. والإنسان يحب ولده أكثر من نفسه، ويتمنى أن يكون درعاً لولده، والولد ريحانة والديه، تقول أعرابية:

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامى في البلد
أهكذا حصل ولد أم لم يلد قبلي أحد ^(٥)

والولد أشدَّ على الوالدة منه على الوالد؛ لأن المرأة أغزر عاطفة، خصوصاً إذا كان الولد الوحيد. لذا يقول أحد الأعراب: مررت على أحياء بني هاشم بعد واقعة الطف وقد تحولت إلى مضارب للمأساة، خصوصاً بيوت آل عقيل الذين ذهب منهم (١٤) قتيلاً في الواقعة، ومن هنا يقول الإمام السجاد عليه السلام: «والله ما مررت على دور آل عقيل إلا وخنفتني العبرة» ^(٦).

(١) وكذا بعد التسليم بما قالوا، يعقل أن يشرك آدم عليه السلام قبضه القرآن بذلك؟
(٢) فصلت: ٢٩.

(٣) مجمع البيان ٩: ٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٤٢.

(٤) مجمع البيان ٣: ٣٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٦: ١٤٠.

(٥) شرح نهج البلاغة ١٦: ٦٢.

(٦) قريب منه في كامل الزيارات: ٢١٣ / ٣٠٦، وقد مرَّ في ج ١ ص ١٨٢ من كتابنا هذا.

يقول الأعرابي: فسمعت أنيناً سمر قدمي إلى الارض، فسألت عن هذا البيت
فقال: للحسين، قلت: لمن من أهله؟ قيل: إنه بيت ليلي أم علي الأكبر، فكانت لا
تهداً الليل ولا النهار:

أحببتنا من للظعانن بعدكم فليت فداكم يا كرام الضعائن

تظن اترد ليالينه يبني يا علي الاكبر

ويرد ريحان البخدك من ماي الشباب اخضر

يرد النور لعيوني يو لا ماي واتسطر

وما ظنك بزيب التي يسبب لها كل بيت من هذه البيوت ألماً ولوعة، فتجول
على بيوت إخوتها وأبنائها وأولاد عمها فتراها خالية، ليس فيها إلا الأئین، فلا
تكاد تهداً الليل ولا النهار:

منازل كانت نيرات بأهلها تولي عليها غيرة وقتام

يا دار ناغيني وشاغيج جانت بدور وتزهز عليج

والسا غراب البين ناغيج

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا^(١)



منطق العبرة ومنطق التاريخ

وَمَذْ أَخَذْتُ فِي بِنَاوِي مِنْهُمْ الثَّوِي وَلَاخَ بِهَا لِلْفَدْرِ بَعْضُ الْعَلَانِي
غَدَا ضَاكِكاً هَذَا وَذَا مُتَقَبِّسُ سُرُوراً وَمَا ثَغُرُ الْفَنُونِ بِبَاسِمِ

المباحث العامة للموضوع

تساؤلات وإجابات

يوضع الحسين عليه السلام في بحثنا هذا بين منطق العبرة وبين منطق التاريخ، أما منطق التاريخ فيقول: إن الحسين عليه السلام قتل في مثل هذه الليلة، في عام (٦٠) هـ، ولكن منطق العبرة يقول: إن الحسين عليه السلام وُلد في هذا التاريخ، فدعونا نرى كيف يكون الحسين عليه السلام بين هذا المنطق وهذا المنطق؟

المبحث الأول: عمر العطاء

إن أول ما تتساءل عنه هو أن الحسين عليه السلام لو لم يقتل، كم كان سيعيش بعد تلك الفترة؟ لقد قتل الحسين عليه السلام وعمره (٥٧) عاماً، فقد ولد عليه السلام في السنة الثالثة للهجرة، وقتل في سنة (٦٠) للهجرة، فيكون مجموع عمره الشريف (٥٧) سنة، فلو قُدِّرَ له عليه السلام أن يعيش بعد هذه الفترة، فكم كان من الممكن له أن يعيش؟

دعونا نلقي نظرة على أعمار أسرته الشريفة. لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعمره (٦٣) عاماً، واستشهد أمير المؤمنين عليه السلام وعمره (٦٣) عاماً، فكان من الممكن أن يعيش الحسين عليه السلام كما عاش أفراد أسرته، ومعنى ذلك أنه سيعيش ست سنوات

مثلاً. وهذا العمر لا يقاس بعمر الحسين عليه السلام الآن، فهو عليه السلام لا زال حياً منذ أن قُتل وإلى هذا الزمان، وهو لم يخرج من الحياة، فلا زال يعيش فكراً في الضمائر، وكياناً شاخصاً، وأثراً بارزاً، ويعيش ألقاً بين سطور الكتب والبحوث؛ فالحسين عليه السلام إذن دخل الحياة ولم يخرج منها أبداً. فالعمر ليس في الأكل والشرب والتحرك، إنما العمر في العطاء، وأن يكون الإنسان ألقاً وقدوة، ويتفجر بطولة، وكرامة، وعطاءً، أما عمر الأكل والشرب فهو عمرٌ تشاركنا فيه الحيوانات، ولا يمكن أن نعتبره عمراً.

فالحسين عليه السلام يعيش عمر العطاء، فلا يمر عام من الأعوام إلا وهو فيه العطاء الذي لا يقف عند حدٍّ، يستمد منه المنبر والأدب وروح الأحرار^(١)، ويبقى ألقاً وفكرة تعيش في الدنيا، فتنتزع منها الدنيا عناوين العظمة، وهذا هو العمر الواقعي:

قد تعيش الأعماز لا خير فيها وبضئ الأماجد يومٌ قصيرُ

وسيبقى ذكر الحسين عليه السلام عمراً يتسع ويطول كلما مرّ الزمان، وها هو ذكره يتسع كما تتسع الدائرة في الماء، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنه قطعة انفصلت من فلك النبوة، وظلت تعيش على هذه الأرض وبقيت تمدها بالعطاء والنور، فنحن عندما نمرّ بذكرى الحسين عليه السلام لا نحوله إلى دمة، وإنما نأخذ منه الموقف والفكرة والمثل التي جسدها على صعيد الطفّ.

وهذه المثل التي جسدها الحسين عليه السلام ستبقى حية لا تموت، على الرغم من أن الظالمين رعبوا منها. لقد رعب الظالمون كثيراً من ذكر الحسين عليه السلام، وكانوا يتصورون أن ذكره موقوف على هذه الآثار المادية، فإذا قضوا عليها قضوا على الحسين عليه السلام، فقد أزال المتوكل قبر الحسين عليه السلام، ولكن ذلك لم يحلّ المشكلة، ولم

(١) ينقل عن غاندي أنه قال: علمني الحسين كيف أكون مظلوماً فانتصر.

يندثر ذكره، ثم تصوّر أن التربة لها أثر، فقطع شجرة كانت على قبره لئلا يهتدي إليه الزائرون، فجاء أحد الأعراب فأخذ يتناول قبضة من التراب ويشمّها ويُلقيها إلى أن اهتدى إلى القبر فقال:

أرادوا ليُخفوا قبره عن مُحبه فطيبُ ترابِ القبر ذلُّ على القبر^(١)

فرأى المتوكل أن هذه المسألة لا تنتهي، فحرث القبر الشريف وما حوله من الأراضي، ثم سلط عليه ماء الفرات^(٢).

ولكن هذه العوامل كلّها لم تستطع أن تنتزع ذكر الحسين عليه السلام من الأذهان، وقد جرّب أسلاف المتوكل فوجدوا أن الأثر المادي لا علاقة له بالفكرة، فلم تمت الكعبة عندما ضربوها^(٣)، ولم يذهب أثرها من النفوس، فالفكرة لا علاقة لها بالآثار المادية.

فالحسين عليه السلام عندما أعطى هذه السنين القلائل أخذ بدلها عمراً ممتداً إلى آلاف السنين، وهذا هو الخلود، وهذا هو الذي ذكره الحسين عليه السلام في كتابه إلى أهل بيته عندما نزل في كربلاء حيث خاطبهم قائلاً: «أما بعد، فمن لحق بنا منكم استشهد، ومن تخلف لم يبلغ الفتح»^(٤). فهل كان الفتح أن الحسين عليه السلام أراد أن يستولي على أرض؟ أو يحتلّ بلداً؟ أو يغنم أموالاً؟ كلا، إن الفتح هو الخلود في المشاعر، وهذا هو الخلود الذي استهدفه الحسين عليه السلام في ثورته، وسيبقى هذا الألق خالداً ما بقيت الدنيا.

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٤٥، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٧.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبين: ٣٩٥.

(٣) انظر: الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، سنن ابن ماجه ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦.

تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، وقد مرّ ذلك مفصلاً في ج ٢ ص ٧١ من كتابنا هذا.

(٤) بصائر الدرجات: ٥٠٢، مشير الأحزان: ٢٧.

إذن، يقول منطق التاريخ: إن الحسين رضي الله عنه قتل في مثل هذه الليلة، أما منطق العبرة فيقول إن الحسين رضي الله عنه ولد في مثل هذه الليلة.

المبحث الثاني: خلود صوت الحسين

فإن منطق التاريخ يقول: إن أوداج الحسين رضي الله عنه قُطعت في مثل هذه الليلة، ولكن منطق العبرة يقول: إن هذا الصوت لم يبقَ تحت التراب، وإنما تمرّد على التراب واندفع، وأوّل ما ظهر هذا الصوت في بيت يزيد نفسه، وفي عقر دار الأمويين الذين تصوروا أنّهم سيدفنون هذا الصوت تحت التراب. فقد عُقد أوّل المآتم في بيت يزيد، وعند زوجته هند بنت عبد الله بن عامر، وبقي العزاء في بيت يزيد سبعة أيّام^(١)، وانطلق هذا الصوت يندد بعمل يزيد وما ارتكبه في فاجعة قتل الحسين رضي الله عنه.

ثم انبعثت الأصوات المتتالية، من الشام إلى المدينة في بيوت كانت تفودها زينب رضي الله عنها في تأيين الحسين رضي الله عنه، فكانت رضي الله عنها تؤيّن الحسين رضي الله عنه وتذكر مثالب الأمويين. وهذا الأمر هو الذي جعل الأمويين يُخرجونها من المدينة إلى الشام. وانطلق صوت الحسين رضي الله عنه في أمّهات العواصم الإسلامية، فكانت القاهرة أيّام الفاطميين تتوشّع بالسواد، وتعجّ بالمآتم في شهر المحرم الحرام. وانطلق صوت الحسين رضي الله عنه في بغداد أيّام الصفويين، وفي شمال العراق وديار بكر أيّام الحمدانيّين. ولا زال صوت الحسين رضي الله عنه إلى يومنا هذا ينطلق في بقاع الدنيا كافة، وليس من بلد من بلدان العالم فيه جالية إسلامية لا تسمع فيه صوت الحسين رضي الله عنه. والسرّ في المسألة أنّ الحسين رضي الله عنه ليس لفئة من المسلمين، فهو ابن رسول

الله ﷺ، وهو الصوت الحرّ الذي انطلق من آلام المسلمين وطموحاتهم، فلم يخرج ليمثّل فئة معيّنة، وإنما خرج ليمثّل العالم الإسلامي، فهو لكلّ مسلم في الشرق أو في الغرب. وقد أراد أن يجسّد المثل الإسلاميّة، وأن يقيم العدل، وأن يقف بوجه الظلم، وأراد أن يعيد التيّار الإسلامي بعد أن حاول التيّار الجاهلي طرده، وأراد أن يتعش الإنسانية ويوقظها من غفوتها وكبوتها، وأن يعيد إليها شعورها برجولتها. وهذه المثل إسلاميّة بل إنسانيّة عامّة، يقول أحد الشعراء:

دأبت أزورك في كلّ عام	وأثم تُريك يابن النبي
ويابن عليّ ويابن البتول	ويابن ذرا المجد في يثرب
أعفر خذي بفقر ثراك	بحيث دماؤك لم تنضب
بحيث يُلعبُ ثغر أبي	بأن يحتمي الذلّ في مشرب
وهام أبي للطغاة الرُكوع	وإن فلقوا منه بالمضرب

فالعالم الإسلامي إذن يستمع هذه الليلة إلى ذلك الصوت الهادر الذي يمرّ عبر التاريخ، ويحمل شعار الرجولة الإسلامية: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرّ فرار العبيد»^(١). لقد بدأ الحسين ﷺ منذ ليلة العاشر من المحرمّ يمتدّ امتداد المثل التي تغطّي الحياة وتستوعبها، ولا تنحصر على فئة من الناس.

المبحث الثالث: إنجازات النهضة الحسينية

فما هي الانجازات التي حققها الحسين ﷺ في منطق التاريخ وفي منطق العبرة؟

يقول عنه التاريخ: إن الحسين ﷺ وأصحابه قتلوا في مثل هذه الليلة من

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقرّ إقرار.

المحرم، وانتهى كل شيء.

أما منطق العبرة فيقول: ترثبت على دم الحسين عليه السلام آثار لا حدود لها، فمن هذه الآثار: أنه استطاع أن يوقف الردة التي حدثت بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فقد حصل الارتداد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان له وجهان: وجه ظاهر ووجه باطن، فالارتداد الظاهر حاربه الصحابة، كالردة التي حدثت أيام الخلفاء، والبنفي الذي حصل أيام أمير المؤمنين عليه السلام، أمّا الردة الباطنية فقد حدثت تحت الستار، وذلك بأن أريد للعالم الإسلامي أن يفرغ من محتواه، فيصبح المسلم يصلي ويصوم ويقوم ببعض الشعائر، ولكنه فارغ من المحتوى الحقيقي للإسلام. فالأُمويون أرادوا تفريغ الإسلام من الجذوة الملتهبة التي تعيش في كيانه، وأن يُعيدوا التيار الجاهلي إلى الحياة^(١).

وهناك أمثلة وشواهد لا تُحصى في هذا المجال، وقف أحد الأمويين على قبر حمزة عليه السلام، فوضع رجله على القبر، ثم قال: اجلس أبا عمار، إن الذي كنّا نتقاتل عليه بالأمس أصبح اليوم بيد غلماننا يلعبون به كما تلعب الغلمان بالأكبر^(٢). هذا هو منطق الجاهلية، فهذا الأموي الواقف على قبر حمزة يتصور أن الأمر هو أمر خلافة ومُلك، وكأن هذا الواقف لم يكتفِ بما فعلته زوجته هند بجسد حمزة لما بقرت بطنه واستخرجت كبده ولا كتفه، وقطعت أصابعه وأعضاءه، فصنعتها قلادة، ثم نزلت إلى مكة تعيد شعار الجاهلية:

(١) انظر تاريخ الطبري ٨: ١٨٥، وفيه قول أبي سفيان: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقف الكرة، فما هناك جنة ولا نار.

(٢) هو أبو سفيان، ورد ذلك في الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله في لعن معاوية بن أبي سفيان، وقد رواه الطبري كاملاً، علماً أنه لم ينفِ صحّة ما جاء فيه. تاريخ الطبري ٨: ١٨٢ - ١٩٣.

نحن جزيئناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات شعر

يقول أحد الشعراء:

أعملت ذنباً النساء بكبد الـ	سأيت نساباً لعل تشفي الغليلا
فدعيتها للودود أظهر نفساً	منك يا هند وأتركي المأكولا
زوجك الذئب كان أتعس نفساً	والخسيس العرذول يهوى الرذila
شامتاً مرّاً بالقتيل زهياً	كالعريس السكرير عبّ الثمولا
يرهب الهزّ زبدة الليث حياً	ويبأهي بنفسه مقتولا
أوليس السرحان جدّ يزيد	أورث الولد طبعه والهيولى

وكان الحجاج والي الأمويين على الكوفة يدخل إلى الكوفة فيقول: إن المسلمين مخدوعون حين يطوفون بقبر محمد ﷺ، وقد تحوّل صاحب القبر عظام بالية، ألا يطوفون بقصر عبد الملك^(١)؟

ويقتل سمرة بن جندب أحد ولاة الأمويين في ليلة واحدة سبعة وأربعين ممن جمع القرآن، وقد ولّاه زياد على البصرة شهراً واحداً فقتل ثمانية آلاف^(٢). هذه الشواهد، وغيرها الكثير في التاريخ تُبين لنا كيف أن الأمويين أعادوا التيار الجاهلي الخبيث إلى جسد الأمة الإسلامية، فوقف لهم الإمام الحسين عليه السلام ونصب نفسه مدافعاً عن الإسلام بوجه هذا التيار، وردّه على عقبيه، فقد أعقبته الثورات المتلاحقة، فخرج التوابون في الكوفة، وكذلك خرج مصعب بن الزبير الذي كان يرتجز ويقول:

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك ممّا كفّرت به الفتها، الحجاج، شرح نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

وإن الألى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا للكرام التأسيا^(١)

وخرج زيد بن علي بن الحسين، ويحيى بن زيد، والحسين بن علي قتيل فخ، وتلاحقت هذه الثورات على الأمويين، وكل هذا كان من تلك الجذوة التي أذكاهها الحسين عليه السلام في النفوس؛ حتى لا تموت الأمة الإسلامية. وليس غريباً ذلك عليه، فهو ابن من وقف يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر لما فعلت»^(٢). وهو ابن من يقول: «لا يزيدني كثرة الناس حولي عزّة ولا تفرّتهم عني وحشة»^(٣).

نعم لقد تحطمت دولة الأمويين بسبب هذه الثورة العارمة، فقد عاشت ثمانين عاماً، كانت حصّة معاوية منها أربعين، وما تبقى منها كان حصّة آل مروان. وكلّ ما ناله آل أبي سفيان بعد واقعة الطف كان ثلاث سنين فقط، ثم أخذها آل مروان.

المبحث الرابع: متى بدأ التشيع

فإن الكثير من المؤرخين والكتاب يتصوّرون أن التشيع بدأ من واقعة الطف، وفي هذه النظرية طبعاً شيء من الخطأ، فالصحيح أن مقتل الحسين عليه السلام عمق تيار أهل البيت عليه السلام لا أن التشيع بدأ بمقتله عليه السلام. فالتشيع بمعنى الالتفاف حول أهل البيت عليه السلام وتقدّمهم وُلد في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا التشيع تبلور منذ أن قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»^(٤)، ومنذ أن قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من كنت

(١) تاريخ الطبري ٥: ٦، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٤٩، ٢٩٨.

(٢) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

(٣) نهج البلاغة / الكتاب: ٣٦.

(٤) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١، الجامع

الصحيح ٥: ٣٠٢ / ٢٨٠٨، ٣٠٤ / ٢٨١٣ - ٢٨١٤.

مولاه فهذا علي مولاه»^(١). ولذا يعتبر مذهب أهل البيت أبا المذاهب الإسلامية جميعاً. يقول الشيخ أبو زهرة في كتابه (زيد بن علي): «إن الخليفة الثالث أرسل إلى الولاية من يستطلع أحوالهم، ومن جملة من أرسله عمار بن ياسر الذي أرسله إلى مصر، فتأخر عمار حتى ظنوا أنه قد قُتل، وبعد أيام فاجأهم كتاب من عبد الله ابن أبي سرح للخليفة الثالث: «إن عماراً قد استمال الناس إلى علي وولده»...»^(٢). فالتشيع لم يولد في واقعة الطف، إنما عمّدت تلك الدماء التي أريقت في هذه الواقعة، وركّزته في النفوس أكثر وأكثر.

لقد كان الناس مخدوعين، ويتصورون أن هؤلاء الأمويين على حق، ولكن ثورة الحسين عليه السلام دعتهم إلى إعادة التفكير، وجعلتهم يكتشفون أن هؤلاء يحملون الحقد على النبوة وعلى رسالة السماء. فالحسين عليه السلام إذن ولد في مثل هذه الليلة وسيبقى، وهذا هو منطق العبرة، وهو الذي كان ينظر إليه الإمام الحسين عليه السلام من وراء الحجب، فقد دخل عليه من نهاء عن الخروج قبل خروجه، وحذّره من هؤلاء الأناس الذين ينوي الذهاب إليهم، فهم الذين قتلوا أباه في محرابه، وخانوا أخاء وتخلّوا عنه، فقال لهم الحسين عليه السلام: «شاء الله لي ولعائلي أن أسلك هذا الطريق».

وهذا الجواب إجمالي، وإلا فإن الحسين عليه السلام كان ينظر من وراء الحجب، فالأمة لا معنى لها إذا تجرّدت من عظمائها، ولو وقفت الأمم تفاخر بعظمائها فمن من عظمائنا نستطيع أن نفاخر به ونحن أمة الإسلام؟ هل نفاخر بالوليد وأمثال الوليد

(١) مسند أحمد ١: ٨٤ وغيره، ٥: ٣٤٧ وغيره، الجامع الصحيح ٥: ٢٩٧ / ٣٧٩٧، سنن ابن ماجه ١: ٤٥ / ١٢١.

(٢) لم يتوفر لدينا كتابه، انظر تاريخ المدينة ٣: ١١٢٢.

الذي يخرج من حوض الخمر سكران ويريد أن يصلي بالناس^(١)؟ أو نفاخر بالمتوكل الذي يقول فيه أحد الشعراء:

هكذا فلتكن مفايا الكرام بين ناي ومزمر ومُدام
بين كأسين أرياء جميعاً كأس لذاته وكأس الحمام^(٢)

أي نموذج أرفعه بين يدي الله والشعوب يمثل الظهر والعطاء والرجولة والكرامة والعزة والتضحية في سبيل الله تعالى لأفاخر به؟ نعم، إن في تاريخنا لوامع ضحوا، لكن تضحياتهم لا تعدل شيئاً إذا ما قيسَت بتضحية الحسين (ع).

تنقل كتب التاريخ أن حنظلة الأسدي جيء به هو وابنه أسيرين إلى قائد الفرس في معركة القادسية، وقد حاول هذا القائد إغراء حنظلة بالمال والمنصب له ولابنه إن هو دلهم على عورات المسلمين، فقال له: إني إن دلتك قتلني ولدي، فاقته أولاً ثم أعطيك ما تريد. فأمر القائد بقتله ثم التفت إليه وهو يرجو أن يفوز منه بما طلب، فضحك حنظلة وقال: هل تظن أنني أدلك على ذلك؟ إني إنما طلبت قتل ولدي لأنني خشيت أن يضعف بعد قتلي أمام إغرائكم وتهديدكم فيدلكم على ما تريدون منه. فأمر به فقتل. وهو موقف يستحق الإعجاب والتقدير، فنجد فيه تضحية بالمال والولد من أجل حفظ بيضة الإسلام.

وهذا المجاهد موضع فخر ولا شك، ولكن التضحية كلفتة ولداً واحداً، أما الحسين (ع) فقد كلفتة التضحية أسرة بكاملها. ونحن نتألم ونسبكي لما جرى للحسين (ع) ولكنه أكبر من الدمع:

أبا الثورة الكبرى صليل سيفها نشيد بأبعاد الخلود مرجع

(١) مسند أحمد ١: ١٤٤، المصنف (الصنعاني) ٢: ١٩ / ٢٢٢٠.

(٢) ثمار القلوب (التعاليبي) ١: ١٩١ - ١٩٠.

تُشير وإيماضُ القواضب مشعلٌ	وتحدو بركب الشاثرين فيقتبعُ
أبا الطف ما جئنا لننبني بلفظنا	لمعناك صرحاً إن معناك أرفعُ
متى بنت الألفاظُ صرحاً وإنما	المصروح بمقدود الجماجم تُرفعُ
ألا إن بُرداً من جراح لبسته	بني لك مجداً من جراحك يُصنعُ
وضعناك في الأعناق جرراً وإنما	خُلقت لكي تُنقى حساماً فتُشرعُ
وضغناك من دمع وتلك نفوسنا	نصورها لا أنت إنك أرفعُ

نعم لقد حقق الحسين عليه السلام في مثل هذه الليلة إنجازات عظيمة، ولكن كان في هذه الليلة أيضاً مأسٍ وأحزان، لقد خرج ليلة العاشر من المحرم مع ولده علي الأكبر وجمع من الأنصار لإلقاء الحجة على القلوب القاصرة والأذهان الضليلة، وخرج عمر بن سعد مع ابنه، ودريد مولاة، وعشرين من أصحابه، والتقوا بين المعسكرين.

وهنا قال الإمام الحسين عليه السلام لعمر بن سعد: «اجلس». فجلس، ثم قال له: «لماذا تخرج لقتالي؟ أنت ابن سعد بن أبي وقاص الذي تربطنا معه قرابة، وهو سادس الإسلام، وأنت تعرف مكاني، وأكره أن تدخل النار بسببي. أتزعم أنك تقتلني ويؤليك الدعوى ابن الدعوى بلاد الرّي وجرجان؟». فقال ابن سعد: نعم. فقال له الحسين عليه السلام: «والله لا تنهأ بعدي بئر العراق إلا قليلاً». فأجاب ابن سعد مستهزئاً: في الشعر كفاية.

ثم قال ابن سعد: أخشى أن يهدم ابن زياد داري. فقال الحسين عليه السلام: «أنا أبني لك خيراً منها». قال: أخشى أن يأخذ ضياعي. فقال الحسين عليه السلام: «أنا أعطيك

خيراً منها من أبي نيزر^(١) والبغيفة^(٢) ما تحب^(٣). قال: أخشى أن تهتك نسائي. فقال الحسين عليه السلام: «تخشى على نسائك ولا تخشى على نساء رسول الله ﷺ؟». ثم حوّل وجهه عنه، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَداً﴾^(٤)، ثم انصرف عنه^(٥).

انظر إلى بلاد الري وجرجان التي طمع فيها ابن سعد، لمن أصبحت الآن؟ وهل فيها لابن سعد أو ابن زياد شيء؟ وانظر إلى الحسين عليه السلام الذي سكن قلب كل مسلم. يقول أحد الشعراء:

لا تطلبوا قبر الحسين من بشرق أرض أو بغرب
ودعوا الجميع وعزّجوا نحوي فمشهده بقلبي

وهذا المعنى نلمحه أيضاً في الحديث القدسي: «لن تسعني أرضي ولا سماراتي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»^(٦). ويقول الإمام علي عليه السلام في دعائه: «أتعذّبني بنارك بعد ما انطوى عليه قلبي من حبك»^(٧). فالحسين عليه السلام هكذا.

(١) عين أبي نيزر: ضيعة في المدينة. وأبو نيزر: كنية رجل، وهو من النزاراة أي القلّة، يقال: إن هذا الرجل هو مولى أمير المؤمنين عليه السلام، كان ابناً للنجاشي ملك الحبشة ووجده أمير المؤمنين عليه السلام عند تاجر بمكة فاشتراه واعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين. معجم البلدان ٤: ١٧٥ - ١٧٦ - عين أبي نيزر.

(٢) البغيفة: ماء لأمر المؤمنين عليه السلام ينبع. معجم ما استعجم ١: ٢٦٢ - البغيفة.

(٣) الكهف: ٥١.

(٤) انظر بحار الأنوار ٤٥: ١٠، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٥، مقتل الحسين (الخوارزمي): ٦٠٢.

(٥) عوالي اللآلي ٤: ٦ / ٧، بحار الأنوار ٩٢: ٤٦٥.

(٦) فقرة من دعاء كميل عليه السلام. مصباح المتجهد: ٤٨٦، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢٢٤.

نعم رجع من لقائه مع ابن سعد إلى الخيمة يقرأ القرآن، يقول زهير بن القين: كنت واقفاً أحرس الخيمة، فسمعت محاورة بين الحسين وأخته زينب عليها السلام في مدخل الخباء، قالت له زينب عليها السلام: أخى هل استعلمت من أصحابك نياتهم؟ إني أخاف أن يُسلموك عند الوثبة، واصطكاك الأسنة. فقال الحسين عليه السلام: «لا يا أختي، لقد بلونهم ولهجتهم، فما وجدت فيهم إلا الأتعس الأشوس، يستأنسون بالمنية دوني استئناس الطفل إلى محالب أمه». ثم خرج الحسين عليه السلام يمشي وأنا أمشي وراءه دون أن يشعر بي إلى أن ابتعد قليلاً عن المخيم، فأحسَّ بحركتي، فالتفت لي، وقال: «من؟». قلت: سيدي أنا، قال: «ما الذي جاء بك؟». قلت: أزعجني خروجك ليلاً إلى معسكر الطاغية، وخفت أن يغتالك أحد، فجئت من ورائك. فجزاني خيراً، ثم قال: «إني خرجت أتفقد هذه التلال والتلاع مخافة أن تكون مكنأً لهجوم الخيل يوم يحملون ويحملون». ثم رجع، فوضع يده بيدي، وقال: «هذا الليل قد غشيك، وأنت في حلٍّ من بيعتي؛ لأن القوم يطلبونني، وإذا ظفروا بي ذهلوا عن طلب غيري». فقلت: إن فرسي بألف، وسيفي بألف، والذي من عليّ بهذا الموقف لن أتركك حتى يكلأ من جري وفري^(١).

ثم رجع إلى الخيمة، فلما دخلها سمعت نشيجاً داخل الخيمة، وكان هذا النشيج صوت زينب عليها السلام؛ لأن الحسين عليه السلام أخبرها أن الصباح إذا أصبح فلن يبقى من هذه العائلة أحد، فقال لها: «تعزّي بعزاء الله، لا يذهبنَّ بحلمك الشيطان». فصاحت: «وا لوعتاه يا أخى، أراك تفتصب نفسك اغتصاباً، إن ذلك أجرى لدمعتي وآلم لقلبي^(٢)».

(١) الدمة الساكنة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ - ٢٦٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩١ - ٩٢، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، وقد مرَّ مفصلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: ولما سمعت أبي يقول وهو يصلح سيفه:

يادهر أف لك من خليل
كم لك بالإشراق والأصيل
من طائب بحقه قتيل
والدمر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حي سالك سبيلي

عرفت أن البلاء قد حمّ، وأن القضاء قد نزل، أما عمتي زينب عليها السلام، فقد اختنفت بعبرتها، فأخذ أبي الحسين عليه السلام منديله وكفكف دموعها^(١):

إن جان تريدني أنسه
أبطل النوح واوئيني
أخذ ذكراك من كلبتي
وأخذ صورتك من عيني

تقول السيدة زينب عليها السلام: خرجت حتى مررت على خيمة أخي أبي الفضل عليه السلام، فسمعته يقول لأهل بيته: ما بيننا وبين ملاقات هؤلاء القوم إلا سواد هذه الليلة، فإن أصبح الصباح فهل تبدؤون بالقتال أو تدعون أنصاركم يبدؤون؟ فلما سمعوا ذلك جرّدوا سيوفهم، ورموا عمائمهم، وقالوا: بل نحن. فطابت نفسي، ثم مررت على خيمة الأنصار فسمعت حبيب بن مظاهر يقول لأصحابه: يا أنصار أهل بيت رسول الله، ليس بينكم وبين هؤلاء القوم إلا سواد هذه الليلة، فإن أصبح الصباح هل تتقدّمون أو تدعون أسيادكم يتقدّمون؟ قالوا: نحن طلقنا حلائلنا وأعرضنا عن زهرة دنيانا، فلا والله لا نرى هاشمياً يُضْرَج بدمه أمامنا.

ثم التفت حبيب بن مظاهر إلى أصحابه، وقال لهم: هلمّوا معي إلى خباء آل النبي ﷺ، فأمر الحسين عليه السلام النساء بالخروج إليهم، فخرجت إليهم العائلة ولسان حالها:

وضنوا بنا كبلٍ ترحلون كبلٍ على الفبرة تنامون

حرمة وغريبة لا تكطعون

ومر الحسين عليه السلام على ابنته سكينه، فوجدها واضعة رأسها بين ركبتيها، وهي
تنشج نشيجاً خفياً، فقال لها: «ما هذا البكاء؟». قالت: ولم لا أبكي وليس بيننا إلا
هذه الليلة؟

بالبيل كلك ولم وانياح عسن لا يمر عليك مصباح

شعدنا بدال حسين لو راح



حقيقة الموت في المنظور القرآني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُخِرَ عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الأهداف التي وظفتها الآية

يريد القرآن الكريم للناس أن يتعاملوا مع الواقع، فكثير من الناس يعيش في الخيال، فهو يرى مسيرة الحياة أمام عينيه تنتهي إلى هذه النتيجة وهي الخروج من الدنيا، لكنه لا يسمع لنفسه أن تفكر مثل هذا التفكير، فيحاول نفسياً أن يتهرب من هذا الواقع، في حين أن القرآن الكريم يريد أن يوظف هذا الواقع لأغراض أخلاقية واجتماعية.

وأول ما نلاحظه في الآية الكريمة أن لفظة ﴿كُلُّ﴾ هذه يسميها علماء المنطق «سور الموجبة الكلّية»، بمعنى أنها تستوعب كلّ ذي حياة. فما هي يا ترى تلك

الأغراض والأهداف التي حاولت الآية توظيف هذا المعنى لها؟

الأول: المحافظة على طرفي معادلة الحياة

فإن التكالب الذي نراه في الدنيا هو تكالب عارم، فهذا يحاول أن يأخذ الرِّغيف من فم ذاك، وهذا يتصور أن الآخرين يزاحمون على محلّه، وهكذا. فالقرآن الكريم يقول: اجعلوا هذا التكالب طرفاً في المعادلة، وتأملوا هل إن الدنيا تستحق أن يسحق الفرد أخلاقه من أجل هذه الأيام القلائل التي يعيشها ثم يموت؟ وهل الدنيا إلا ثوب يلبسه الإنسان، أو لقمة يأكلها، أو بيت يواريه من العراء وكل ما عداه زيادة؟ فلماذا هذا التكالب؟

فالقرآن يريد من الإنسان أن يخفف من هذه الغلواء التي عنده، وهذا التكالب الذي يملأ حياته، وأن يطفى العامل الأخلاقي على سلوكه؛ لأن الدنيا إذا تجرّدت من الأخلاق أصبحت غابة، وليس بيننا وبين حيوانات الغابة من فرق غير الأخلاق والقيم. وهذا هو الهدف من حرص الإسلام على أن تكون رسالته عالمية، فهو يريد للكرة الأرضية أن تعمر بالأخلاق، ويتوفر فيها العنصر الإنساني، لأن الإنسان بلا أخلاق سوف يحوّل الدنيا إلى وحش كاسر تتعامل بالظفر والنااب، بل إن الإنسان أخطر من الوحش، فالأسد مثلاً عنده مخلب، أما الإنسان فعنده مخلب هيدروجيني أو ذرّي، وبإمكانه أن يحرق الكرة الأرضية بأجمعها بواسطة قنبلة واحدة.

الثاني: الموت

فالقرآن الكريم يعرف أن أكبر عامل يُخيف الإنسان ويؤثّر فيه هو الموت، وكل وسائل الضغط التي في الدنيا إذا أدمن عليها الإنسان فمن الممكن أن تكون هيئته عنده، ويسهل عليه تحملها، فلو أن أحداً هُدد بالسجن لأول مرّة فإنه يخاف، أما

إذا ارتاد السجن مرّات ومرّات فإن السجن يصبح عنده من الأمور المعتادة. ولذلك نرى في المحاكم الجنائية أن هناك ما يُسمّى بجرائم العودة، بمعنى أن الكثير من المسجونين هم من أصحاب السوابق الذين لم تردعهم العقوبات السابقة. فالقرآن يريد أن يردع الإنسان عن طريق تذكيره بالموت، ولذلك يقول الرسول الأكرم ﷺ «كفى بالموت واعظاً»^(١). ومن هنا شرّعت زيارة القبور في الإسلام. يقول ﷺ «إني قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترقّق القلب وتذكّر الآخرة»^(٢). ويقول بعض فقهاء المسلمين: إن الزيارة مشروعة حتى لقبر الكافر، لأن التعليل هو أنها ترقّق القلب وتذكر الآخرة، وكل قبر هو كذلك، بغض النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم^(٣). يقول الشريف الرضي:

ولقد مررت ببرزخ فسألته أين الألى ضمتهم أرجاؤه^(٤)

ويقول أحد الأدباء:

مررت على الوادي فسفت عجاجة	وكم من بلاد بالعجاج ومن ناب
فأبسطت لم أنفض عن الرأس ثريبها	لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي
ثلاثون جيلاً قد ثوث في قراره	نزاخم في غرب وقرب وأكراد
ففي الخمسة الأشجار دكت مدائن	وقد طويت في حفرة ألف بغداد
طلبت ابن عباب فالفيت صخرة	وقد زقشت: هذا ضريح ابن عباد

فالنتيجة إذن أن هذه الوجوه المنعمة انتهت إلى هذا الواقع، وهذه من أبلغ العبر.

(١) الكافي ٢: ٨٥ / ١.

(٢) الموطأ ٢: ٤٨٥، تلخيص الجيد ٥: ٢٤٧، وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٢٥٩ من كتابنا هذا.

(٣) انظر فتح الباري ٣: ١٢٠، حيث قال: سواء كان المزور مسلماً أو كافراً، ثم نقل قول

النووي بذلك، فيض الغدير ٥: ٧٢. (٤) ديوان الشريف الرضي ١: ٣٠.

ونحن عندما نقف على القبر لا يعني أننا عبّاد قبور، فنحن أهل «لا إله إلا الله»، فلماذا لا تنتهي هذه المعزوفة التي تتكرر كل يوم؟ ألا يُدرك هؤلاء أن هذا الذي يزور القبر يعرف أن مَنْ في القبر عبدٌ من عبيد الله تعالى؟ إن هذا الزائر يخاطب أمير المؤمنين بقوله: «أشهد أنك قد أقمّت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر»^(١). فهذا الذي نمدحه بإقامة الصلاة لمن كان يقيم الصلاة إذا قلنا إنه إله؟ وهذه من الأمور الجلية التي لا تحتاج إلى تفصيل، وكلّ ما في المسألة أن هذا الذي نزوره هو ممّن نعتزّ بهم، ونُكرّمهم، وهذه هي سيرة المسلمين.

الثالث: حقيقة الموت وبيان متى تذوقه النفس

أما الغرض الثالث فنحتاج فيه أولاً أن نسأل: متى تذوق النفس الموت؟ فإن قلنا: إنها تذوقه في وقت الموت، فهذا غير ممكن؛ فكيف يصحّ أن تذوقه وهي ميتة؟ وإن قلنا: إنها تذوقه قبل الموت، فهذا غير ممكن أيضاً؛ فهي لا زالت حيّة. وهذا الإشكال لا يمكن معرفته إلّا إذا عرفنا حقيقة الموت، فالموت ليس كيفية مضادة للحياة، كما في الظلمة والنور، أو الحر والبرد، وإنما الموت هو فراق الروح للجسد. فالجسد يرجع إلى مصدره الأساس وهو التراب، أما الروح فليست من جنس التراب، فهي تبقى خالدة مرفقة، فالموت هو الذي يفرّق بين الجسد والروح، فالنفس تذوق الموت بمعنى أنها تذوق الفراق، وتشعر بفراق الجسد لها، ولذلك تبقى محوّمة على القبر.

يقول حبة العرنى: كان أمير المؤمنين عليه السلام يخرج إلى الجبّانة في الكوفة، فيجلس على الأرض مرّةً ويفحص الأرض بإصبعه. وهذا الفعل غريب من أمير

المؤمنين عليهم السلام، ولكن فيه أسراراً ودلالات كبيرة، منها أن من فارقه أحبته وأعزاه، إلى القبور فإن روحه تكون معهم في قبورهم، خصوصاً إذا عاش مع من لا يحب، ومن يجلبون له الهم والألم، يقول الإمام عليه السلام:

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبهم كأنك تنحو نحوهم بدليل^(١)

فكانت نفس الإمام عليه السلام تضيق فيذهب إلى المقبرة، فيخاطبهم «يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق. أما الدور فقد سكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قسمت. هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟»^(٢).

يقول حبة: سألته مرة: مع من تتكلم يا أمير المؤمنين؟ فقال لي: «لو كشف لك عن بصرك لرأيتهم حلقاً حلقاً يتحدثون حول القبور». فقلت: أرواح أم أجساد؟ قال: «بل أرواح»^(٣).

فالروح إذن باقية، وهي تشعر بما يجري علينا، حتى إن القرآن يصف لنا حال بعض من يرحلون، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَغْلِبُكُمْ رُبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(٤). فالروح أشبه شيء بالمعنى، فاللفظ شيء، والمعنى شيء آخر، وهي من المجردات التي لا يعترىها الموت. فالآية الكريمة تريد أن نشعرنا أن الروح لا يعترىها الموت، إنما الموت يعترى هذا الجسد الأنيق... هذا الجسد الذي ينتقي له الإنسان كل ما هو مريح في الدنيا؛ من طعام لذيذ، ولباس أنيق، وماوى مريح،

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ١٠٠. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٠.

(٣) قريب منه في الكافي ٣: ٢٤٣ / ١، بحار الأنوار ٦: ٢٦٨.

(٤) يس: ٢٦ - ٢٧.

وغير ذلك، ثم يعطيه للتراب، فتعبت به الديدان كيف تشاء. فالقرآن يريد هذه العظة والعبرة وأن يبين أن هذه النفس حيّة لا يعترىها الفناء.

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَإِنَّمَا تُوقَنُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، التوفية هي أن تأخذ الحق كاملاً. والآية فيها إشعار بأن الإنسان يمكن أن يأخذ بعض حقه قبل يوم القيامة، وهذا البعض يأخذه في عالم البرزخ والقبر، تقول الرواية: «القبر إما روضة من رياض الجنان، أو حفرة من حفر النيران»^(١).

ففي عالم البرزخ يهيأ للروح وسائل السرور والسعادة التي هي من جنسها. فكما أن سرور المعدة بالأكل، وسرور العقل بالعلم والتجربة، كذلك تُنعم الروح أو تعذب في عالم البرزخ بشيء من جنسها عينه، أما الجسد فقد انتهى أمره وتحلل إلى عناصره الأولية، من الحديد والمغنسيوم والعناصر الأخرى التي هي من التربة، ثم يأكل من هذه العناصر النبات والحيوان والإنسان. فنحن نأكل أجساد الآخرين ولا نشعر بذلك؛ لأننا نأكل الثمرة وقد تغذت من التراب، فنحن نأكل بشراً مثلنا تحول إلى ثمرة^(٢).

ففي البرزخ إذن يُخلق للإنسان ما هو من جنس عمله، فإما أن يخلق له ما يؤنسه أو ما يوحشه؛ فما كان من الأعمال قبيحاً سبب لصاحبه العناء، وما كان حسناً سبب له الراحة والسعادة.

وأشير هنا إلى أن ما كان من الذنب بين العبد وربّه فعلى الإنسان ألا يرتعد ويخاف منه كثيراً؛ لأننا نتعامل مع رب الرحمة والكرم، ولا نتعامل مع محدود أو

(١) ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة بألفاظ مثلها. انظر الكافي ٣: ٢٤٢ / ٢، الفقيه ١: ١٧١ /

٤٩٨، الجامع الصحيح ٤: ٥٥ / ٢٥٧٨.

(٢) وهو ما يُسمى بشهية الأكل والمأكول. انظر: بحار الأنوار ٧: ٣٧، الميزان في تفسير القرآن

٢: ٣٧٩ - ٣٨٠.

ضيق الخلق والأفق فنخاف، إن رحمته تسبق غضبه، وما فرضه علينا من الفرائض هو لنظامنا وسعادتنا. ولكن الذي يبعث على الرعب هو أكل حقوق الناس، ومداينات العباد، والتعدي عليهم، فهذه من الذنوب التي لا يتركها الله؛ لأنه عادل، ولا بد أن يأخذ الحق من الظالم إلى المظلوم. دخلت عبادة أم جعفر بن يحيى البرمكي على الرشيد بحالة مُزرية، فقالت له: فرّحك الله بما آتاك، وأعلى كعبك، فلقد حكمت فقسطت.

فتغير وجه الرشيد، فسأله أحد غلمانه عن ذلك فقال الرشيد: إن هذه قالت: فرحك الله بما آتاك وهي تشير إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾^(١)، فهي تدعو أن يأخذني الله. وقالت: وأعلى كعبك، والمشنوق يعلو كعبه عن الأرض، فهي تدعو عليّ بالشنق. وقالت في الثالثة: وحكمت فقسطت، تشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٢)، فهي تعني أنني حكمت في هؤلاء البرامكة فظلمت في حكمي بأن قتلتُ المسيء والبريء وعلقتهم على أطراف الجسر بسبب ذنب اقترفه جعفر بن يحيى.

المبحث الثاني: حكمة الزحزحة عن النار ومدلوها

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَمَنْ زُخْرَجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، فما معنى الزحزحة عن النار؟ الزحزحة: هي الجذب المتتالي بقوة. والآية الكريمة تريد أن نشعرنا أن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلا إذا عرف ضدها، فمن لا يعرف الجوع لا يعرف قيمة الشبع، ومن منا فرض الله تعالى الصيام؛ لأن هناك من يعيش حياته منذ الولادة على سرير من ذهب، فلا يعرف للجوع معنى، فهذا لا يقدر حالة الجائع، ولكنه إذا ذاق الجوع وعرف أن له تأثيراً شديداً فسوف يعطف على

الجانح، ويعرف لماذا فرض الله حقاً للفقراء في مال الأغنياء. وهناك الكثير من الناس من يقول: ما ذنبي أنا؟ وهل أكدّ وأشقى لأعطي الفقراء؟ ولماذا لا يعمل هؤلاء الفقراء مثلي؟ وهل أنا الذي خلقتهم فقراء؟ يقول تعالى حكاية عن هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعْنَاهُ﴾^(١).

فالقرآن يقول: إن الله خلق الأرض للتعاون، ولا يستطيع أحد أن يستفيد من نعمة دون أن يشترك العباد معه في تهيئتها، فالسلعة التي يبيعها التاجر ويربح بها اشترك فيها المجتمع كله، فإن كانت السلعة من المزروعات فقد اشتغل فيها الفلاح، والسائق، والصانع وغيرهم، وهكذا في كل سلعة. فكما أن المجتمع أعطى الإنسان هذه الخدمات فعليه أن يعطي هو للمجتمع الحق الذي فرضه الله تعالى عليه. فالزحزحة عن النار تشعربنا أن الإنسان لا بد أن يردّها وذلك ليشعر بالنعمة والنعمة؛ ليعرف قيمة النعمة، فإن رأى النار عرف قيمة الجنة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٢). فكل منا يرى النار، ولكن هناك من يخلد فيها وتكون مصيره، وهناك من يراها ليعرف قيمة الجنة، ثم يذهب إلى الجنة لتكون مأواه.

معنى الجنة وصفتها

وهناك تفسير للجنة عند بعض المفسرين في غاية البرودة، فيقول هذا البعض: إن الجنة سميت بهذا الاسم لأنها مكوّنة من أشجار، والإنسان يستجن بأشجارها فيستريح في ظلالها. فهل هذا كلّ ما وعد الله به المتقين؟ الصحيح أن الجنة مأخوذة من الجُنَّة، وهي الحماية والوقاية، فنحن في الدنيا

ليس عندنا جنة، فبينما الإنسان يأكل ويشرب وإذا به يمرض أو يموت، وبينما هو مستأنس بعزير، وإذا به يفارقه، وهكذا. فلسنا في حماية من شيء، فالحياة الدنيا دار آفات ونوائب، وتعتريها الآفات من كل جانب ومكان، والإنسان فيها معرض للرعب من النظام الفاسد، أو من الأسرة المُنحلّة، أو من الإنسان الظالم، أو من المرض، أو الحوادث، إلى غير ذلك من أنواع الرعب. أما في الجنة فليس هناك من ذلك شيء، فالإنسان فيها أولاً في ظل العدل، وثانياً أنها خالية من الآفات: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ﴾^(١)، فلا ألم ولا مرض ولا حرمان ولا فقد. أما في الدنيا فكل شيء معرض للانتقال والزوال. وثالثاً ينازعك اللثام هنا في الدنيا على لقمة العيش، أما في الجنة فلا لثيم ولا نزاع: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾^(٢).

مرّ الإمام الصادق عليه السلام برجل يقول: اللهم اغني عن خلقك فقال عليه السلام: «ولا تقل هكذا بل قل: اللهم اغني عن لثام خلقك»^(٣).

فالإنسان يحتاج الناس شاء أم أبى، واللثيم يحوّل الحياة إلى كدر ومشقة وألم، على العكس من النبيل صاحب الكرامة الذي ينسى حتى نفسه في سبيل إسعاد الآخرين. يروى أن أحد جيران الإمام الصادق عليه السلام عرض داره للبيع بعد أن مسّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادق عليه السلام^(٤).

(١) الصافات: ٤٧. (٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) قريب منه في رسائل الشيعة ٧: ١٣٩ - ١٤٠ / ٨٩٤٣.

(٤) لم نثر عليها عن الصادق عليه السلام، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٢٣، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٢٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

وهذا هو الجار النليل، أما اللئيم فيزاحمك على أمور خسيصة، ويستبع خطواتك، ويحول معيشتك إلى جحيم^(١)، يقول الشافعي:

وَمَنْ جَهِلَ الدُّنْيَا فَابْنِي عَرْقُهَا وَسَبِقَ إِلَيْنَا عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَمَا هِيَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ عَلَيْهَا كَلَابٌ مُمْهَنٌ اجْتَذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سَلَامًا لَأَمَلِهَا وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَارُ عَذَابِكَ كَلَابُهَا^(٢)

فالجنة إذن ليس فيها شيء من المنغصات التي نراها في الدنيا. وأكبر نعيم فيها هو رضوان الله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٣)، وهذه اللذة لا يعرفها إلا من يلتذ بالجوانب المعنوية. وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «يا بن عمران، هب لي من قلبك الخشوع، ومن عينك الدموع، ثم ادعني في ظلم الليالي تجدني قريباً أجيب دعوة الداعي إذا دعاني. إن لي عبادة أحبهم ويحبونني، وأناجيهم ويناجونني، فإذا جن الليل افترشوا لي أكفهم وجباههم، وناجوني بكلامي بين متأوه وبالك ومتضرع وشاك، أولئك أقل ما أعطيهم ثلاثاً: أقبل عليهم بوجهي، أفترى من أقبلت عليه بوجهي يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟»^(٤). هذا هو الفوز الذي ما بعده فوز.

ثم قالت الآية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، وهذه من الأمور التي لا تحتاج إلى برهنة، فمن حصل فيها على شيء من المتاع الرخيص؛ من الأموال أو المنزلة فإنه يسقط في مستنقع الغرور. فالدنيا إذن كالخيال، وما دخل إلى يدك في الصباح قد يخرج في المساء؛ فهي متاع كمتاع المسافر، ونحن فيها مسافرون.

(١) يقول السجاد عليه السلام في دعاء له: «وأعوذ بك من جار سوء إن رأى شراً طار به»

(٢) ديوان الشافعي: ٧٧. (٣) التوبة: ٧٢.

(٤) الأمالي (الصدوق): ٤٣٨ / ٥٧٨.

إن الدنيا في واقعها ليس فيها لذة، كل ما فيها هو دفع ألم، فإن أحس الإنسان بالجوع تألم، فيكون بحاجة إلى دفع هذا الألم، فيلجأ إلى الأكل، فإذا شبع فأية لذة للأكل بعد؟ فالدنيا إذن متاع الغرور.

وهذا المعنى هو الذي كتب به الإمام موسى بن جعفر عليه السلام رسالة إلى الرشيد حيث قال: «إِنَّهُ لَنْ يَنْقُضِي عَنِّي يَوْمَ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا وَيَنْقُضِي عَنْكَ مِثْلُهُ مِنَ الرِّخَاءِ، ثُمَّ نَحْتَكُمُ جَمِيعاً إِلَى حَكَمٍ عَدْلٍ»^(١). وكان هكذا فعلاً، فقد انمحت واندثرت قصور ألف ليلة وليلة بما حفلت به من نعيم، وانمحي كل أثر للرشيد، فيما تحولت تلك الخربة التي كان يسكنها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى قصر سامق، تلك الخربة التي كان الإمام عليه السلام يردد فيها آناء الليل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُغْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٢). يقول أحد الأدباء:

فكوخ به عشت استطلال إلى السما	وقصر به عاش الرشيد خراب
ومظلم سجن عشت في ردهاته	أنيساك محراب به وكتاب
تحول صرحاً قد تكامل عنده	لأروع آيات الفنون نصاب

نعم تحولت القصور إلى خراب، وتحول ذلك السجن إلى قصر، وما عند الله خير وأبقى، ولم يخلد ذلك الرداء المزركش الذي لبسه الرشيد، إنما تحول إلى ذنب، أما العباءة التي لبسها الإمام عليه السلام، وأخرجوه بها من السجن، فستبقى رداء حمد وثناء؛ لأن الله تعالى ضمن العاقبة للمتقين^(٣). وهذا هو الذي كان يريده الإمام عليه السلام، فكان يُسمع وهو في السجن يقول: «إلهي كثيراً ما كنت أسألك أن تفرغ

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٣، تهذيب الكمال ٢٩: ٥٠، سير أعلام النبلاء ٦: ٧٣/١٨١.

(٢) الحاقة: ١٨.

(٣) قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣.

لي موضعاً لعبادتك وقد فعلت، فلك اللهم الحمد على آلائك ونعمائك». وبقي يُنقل من سجن إلى سجن (١٢) أو (١٨) عاماً على اختلاف الروايات.

يقول علي بن سويد: دخلت على الإمام عليه السلام فبشرني أن الموعد قريب، قلت: متى؟ قال: «يوم الجمعة على الجسر». فظننت أنه سيخرج، فكنت يوم الجمعة على الجسر، وبينما أنا كذلك إذا بجنازة يحملها السجّانون، وأقبلوا بها حتى وضعوها على الجسر، ثم وقف المنادي ينادي: ألا من أراد أن ينظر إلى إمام الرافضة فيها هو قد مات. فتجمع الناس على الجسر، فسمع سليمان الضجة على الجسر، فسأل غلامه: مالي أرى الزوراء تضح بأهلها؟ قال: يقولون: إن سجيناً أُخرج من السجن ميتاً. فقال: ويحك، اذهب واسأل من هو؟ فذهب الغلام ثم رجع، فقال: سيدي، يقولون: على الجسر موسى بن جعفر عليه السلام. فالتفت سليمان إلى غلامانه وقال: ويحكم، بادروا إليهم، وخذوا الجنازة من أيديهم، فإن مانعوكم فاضربوهم. فأقبلوا وأخذوا الجنازة فطرحوها على مفرق أربعة طرق، ونادى المنادي: ألا من أراد أن يحضر جنازة الطيّب ابن الطيّب فليحضر. فهرول الناس وحملوا الجنازة وأخذوها إلى مقرها الأخير^(١).

هذا المشهد تكرر مرة أخرى في اليوم العاشر من المحرم، إذ وقفت زينب تنظر إلى القتلى وقد جاءت إليهم عشائرهم فأخرجتهم من وسط أرض المعركة؛ فعشيرة الحرّ أخرجت الحر، وجاء أخوال الحسن المثنى وهو جريح فأخرجوه، وجاءت عشيرة سعد بن حنظلة فأخذوه، ووقفت زينب تقلّب طرفها وتقول: ويحكم، أما لهذا المسجّي من عشيرة؟ أما فيكم مسلم يوارى هذا الغريب؟ ثم حولت وجهها لأهلها:

(١) انظر: الإتحاف بحبّ الأشراف: ٥٧، الأنوار البهية: ٩٩.

أفساطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشطّ فراتٍ
إذن للسطم الخدّ فاطمٌ عنده وأجريت دمع العين بالوجنات^(١)

تعالوا لبنكم اوغسلوه مهو اعزبكم چا ليش عفتوه



المرأة بين نظرة المجتمع وتكريم الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ
أُتْمِسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بعض الجوانب الإيجابية حيال المرأة

هذه الآية الكريمة رسمت صورة من الصور الاجتماعية التي كانت سائدة في محيط الجزيرة العربية قبل الإسلام، واستمرت رواسيها إلى ما بعد الإسلام. وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢)، فمن هنا نعرف أن الإسلام يبدأ مع المرأة منذ انفصالها عن رحم الأم إلى نهاية حياتها، ويعالج نظرة المجتمع لها. ولدينا في هذا الموضوع جانبان:

الأول: الجانب الموضوعي

وهو أن النساء شقائق الرجال، ولا فرق بينهن وبين الرجال، غاية ما في الأمر أن المرأة لديها وظائف خاصة في الحياة، والله تعالى كيف أعضاها وفقاً لتلك

الوظائف، والرجل له وظائف خاصة في الحياة فكيفت أعضاؤه وفقاً لتلك الوظائف أيضاً. وهنا لا بد من توضيح نقطة مهمة، هي أن المدرسة السلوكية التي يترأسها «فرويد» تقول: إن الوظيفة تخلق العضو، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن العضو يخلق الوظيفة. فوظيفة الطير مثلاً هي الطيران، وهذه الوظيفة عند المدرسة السلوكية هي التي خلقت له الجناحين، والمرأة كذلك فهي لما كانت مصدر النسل، وهي التي تحمل الطفل خلقت لها هذه الوظيفة الرحم، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن الله تعالى خلق الرحم ليحدد وظيفة الحمل والولادة.

وقد يقول قائل: إن هذا النزاع لا يعنينا من الناحية العملية، ولا ثمرة له. فنقول: لا، إنه يعنينا من ناحية مهمة هي أن الله تعالى وضع للكائن الإنساني تصميماً منذ البداية، وخصص له وظائفه في الحياة. فإن كان الأمر كذلك، فالمسألة ليس فيها تفضيل، إنما فيها تصنيف، فهذا الصنف لوظيفته وهذا لوظيفته. وبالنتيجة فإن الوظائف المتنوعة تحتاج إلى تخصص، وكل صنف يختص بالعمل الذي يمارسه.

الثاني: الجانب الذاتي

وهو نظرة المجتمع للمرأة وتقييمه لها، فهل يقيم المجتمع المرأة تقييماً موضوعياً أو ذاتياً؟ لا شك أن المجتمع يقيمها تقييماً ذاتياً، بمعنى أنه يقيمها وفق ميراثه من الجاهلية والعصور التي سبقت، فينظر لها من هذا المنظار، وذلك كمن يلبس نظارة زرقاء فيرى الأشياء من حوله زرقاء على غير حقيقتها. فنحن في جانب النظر إلى المرأة نلبس نظارة من الميراث الاجتماعي، أو التحليلات المخطوءة لنصوص الشريعة. وهذا ما جعلنا ننظر إليها نظرة مخطوءة وغير واقعية، وإلا فالمرأة تمثل النصف الآخر من المجتمع، وكل ما في الأمر أن العملية هي عملية تصنيف لا تفضيل.

المبحث الثاني: دوافع التعامل السلبي للمجتمع مع المرأة

من بعد هذه المقدمة نعود إلى المجتمع الذي نزلت فيه هذه الآية وهو الجزيرة العربية، فهو مجتمع له نظرة خاصة للمرأة تنقلها لنا هذه الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. فما هي الدوافع التي جعلتهم ينظرون إليها هذه النظرة؟ هناك عدة دوافع، منها:

الأول: دافع الشرف والكرامة

فإن جريمة الزنا مثلاً يمارسها الرجل ويخرج منها دون أية تبعة اجتماعية ظاهرة، أما إذا مارسها المرأة فتخرج بتبعة الحمل والفضيحة الناتجة عن علاقة غير شريفة. وهذا يتصادم مع أوضاع اجتماعية قائمة مثل الشرف والكرامة، فيؤدي ذلك حتماً إلى نتائج مرعبة. ومن ذلك أيضاً أنه حدث مرة أن أغارت قبيلة على أخرى وسبت بعضاً من نساها، ثم أعادتهن إليها، فكان أن تمسكت بعض المسييات بمن سباهن وبقين معه، فتحول ذلك من وجهة نظر أهلهن إلى فضيحة وعار على قبيلتهن.

الثاني: دافع الفقر والجوع

فالجزيرة العربية كانت تعيش الفقر المدقع، وقد وصفت الزهراء عليها السلام تلك الحالة بقولها: «وكنتم على شفا حفرة من النار أذلة خاسئين تفتاتون القدر^(١) وتشربون الطرّق^(٢)»، فكان فقرهم يبلغ بهم حدّاً يأكلون معه حتى جلد الشاة، أو يحشون

(١) التّد: جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه. لسان العرب ٣: ٢٤٥ - قد.

(٢) الطرّق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ - طرق.

(٣) من خطبتها عليها السلام في الاحتجاج على الخليفة الأوّل لمنعها فذك، انظر شرح الأخبار ٣: ٣٤ - ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ - ٢٣٥.

المصارين بالدم فيأكلونها، كما أنهم أيضاً كانوا يقتتلون على ماء الآبار لقلة المياه عندهم.

وقد رؤى المجتمع الجاهلي المرأة على أن تكون جليسة البيت، أما الرجل فقد رؤى على الغزو والقتل والفتك، فكانت المرأة عرضة لخطر الجوع وطلب الحاجة، وقد تعرّض للامتهان وسلب الكرامة والعرض. وهنا لا ينظر المجتمع إلى الظروف الموضوعية التي أدت بها إلى ذلك، بل يعتبرها خاطئة، وينظر إليها على أنها قد انحرفت.

وهذا أشبه شيء ببعض النظم التي تعتبر نفسها إسلامية، فتقطع يد السارق لمجرد معرفتها أنه سرق، دون أن تنظر إلى الظروف الموضوعية التي دعت له للسرقة، فربما يكون قد سرق بسبب التريبة الفاسدة، أو الجوع، أو عدم تلبية المطالب الأساسية، أو بسبب القدوة السيئة، أو غير ذلك من الظروف التي سببت عنده التوجه نحو السرقة. كل ذلك وغيره لا بد أن يُدرس، ثم يُقرّر ما إذا كان يستحقّ القطع أو لا. ولذا يمنع فقهاء المسلمين مثلاً قطع اليد في عام المجاعة؛ لأن الجوع عامل مساعد على ارتكاب الجريمة.

فأهل الجاهلية لم يكونوا ينظرون إلى الظروف الموضوعية التي سببت للمرأة ارتكاب الجريمة. وفي عصرنا هذا أيضاً يوجد من يهتئ أسباب الانحراف للمرأة، فيجعلها تخرج بزيبتها، وتخالط الرجال، وتراقصهم أحياناً، وقد تشرب معهم، فيضعها في النار ثم يعاقبها إذا احترقت. وهناك من يكون مع المرأة على العكس من ذلك، فيجعلها لا ترى الشمس. فيكون الأمر إما إفراطاً أو تفريطاً.

إذن، كان بعض الآباء يتصور أن ابنته سوف تجوع بعده، وإذا جاعت ذلت، يقول أحد الشعراء في هذا المعنى:

لولا أُميمة لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي جندس الظلم

إذا تذكرت بنتي وهي تنذبني جرت بعيني مني دمعاً بدم^(١)
فهذا الشاعر يقول: إن كل همّي أن تكون ابنتي أميمة تعيش بعيداً عن الجوع
والفقر، ولولاها لما جزعت من الفقر، ولا ذهبت في الليالي الظلماء أبحت عن
القوت. ويقول آخر:

أحب بسنتي وودت أني دفتُ بُنيتي في قاع لحد
وما بي أن تهون عليّ لكن أخاف بأن تلاقى الذل بعدي^(٢)
إذن، هذا واحد من الدوافع التي كانت تدفعهم لحمل هذه النظرة غير
الموضوعية للمرأة.

الثالث: دافع الغلظة والقسوة

فهناك صنف من الناس قد ربي على القساوة والغلظة، فتجد قلبه أشد قساوة من
الحجارة. وقد قاسى النبي ﷺ من هؤلاء ما قاسى، دخل أحدهم يوماً على
النبي ﷺ فقبل يده، ثم قال: يا رسول الله، ليس للإسلام في فمي طعم، ولم أجد
حلاوة الإسلام منذ أسلمت. فقال ﷺ: «لماذا؟». قال: كانت لي بنت في الجاهلية،
فأمرت أمها يوماً فزيتها، ثم أخذتها إلى وادٍ سحيق، فدفعتها فيه، فسمعتها تقول:
أبي قتلتي. وهذه الكلمة لا زالت في قلبي إلى الآن.

انظر كيف أن التربية الفاسدة تفسد فطرة الإنسان، وتأمل كيف تعب الإسلام
ليطوّع هذه القلوب القاسية، وكم تحمل ليجعل من هذه القلوب الشبيهة بالصخور
الصماء قلوباً تقطر بالرحمة؟ يقول أحد الشعراء:

طيبة يا شذى البساتين طيباً يا هديل المزجج الأغرويد

(١) تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٣٥، ولم ينقل البيت الثاني، بل نقل أبياتاً غيره.

(٢) البيتان لعبد العزيز الديري. المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٢٣.

يا زؤى جبرئيل والنور والأف غام في نظرة الكتاب المجيد

يا عطاء القرآن يصنع دنيا ال سحب في أمة من الجلمود

هذه المجموعة من العوامل وغيرها جعلت قسماً من مجتمعهم يقف هذه الوقفة السلبية من المرأة، وإلا فإن المجتمع الجاهلي لم يكن كله سلبياً تجاه النساء، فهناك من كان يعتبرهن شقائق الرجال. ولا ننسى أن قسماً من ذلك المجتمع كان متأثراً برواسب من الحضارات السابقة التي كانت تنظر إلى المرأة نظرة إجلال واحترام؛ باعتبارها تحمل السر المقدس. ومن هؤلاء فلاسفة اليونان أيام سقراط وإفلاطون، الذين كانوا يخلعون قبعاتهم ويقفون خشوعاً واحتراماً عندما تمر بهم امرأة حامل، فهي عندهم تحمل السر المقدس، فلولا الأمومة التي تحملها الأم لما كان للدنيا أن تقوم.

نعم، كان من العرب أيام الجاهلية من يستشير أهله ويسكن إليها، وهناك من قوادهم من كان يجلس إلى زوجته ويطارحها الرأي، ثم جاء المشرع الإسلامي فدعم هذا المعنى.

ويتضح موقف الإسلام هذا منذ بداية الدعوة، وذلك لما جاء النبي ﷺ خديجة مرتعداً عند نزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، فجلس إلى جانبها قائلاً: «دثروني». فقالت له ﷺ: إن الله لا يفعل بك إلا خيراً؛ لأنك تُقري الضيف، وتصل الرحم، وتعطي الجائع. فدثرته إلى أن سكن، فهبط عليه جبرئيل ﷺ يحمل الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^(٢). فالنبي ﷺ أتى أول أمره إلى المرأة؛ لأن الله تعالى جعلها سكناً للرجل^(٣).

(٢) المدثر: ١ - ٢.

(١) العلق: ١.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

فأهل الجاهلية لم يكونوا جميعاً يقفون من المرأة موقفاً سلبياً، بل يعتبرها بعضهم الكائن الذي يمدّ المجتمع بالجيل. ولا أرى أن نابليون كان مخطئاً عندما قال: «إن المرأة التي تهزّ المهد يمينها تهزّ العالم يسراها». وهي كذلك طبعاً، فهي التي تربي الجيل وتُنشئه، وهي التي تستطيع أن تبعث العزيمة في نفس الرجل أو تبعث الخور فيها. تقول إحداهن لابنها وقد فقد ملكه في الأندلس، وهو آخر الملوك فيها:

أبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تدافع عنه دفاع الرجال

وهذا موقف من المواقف التي تبعث العزيمة في النفس، وهناك موقف معاكس يرسمه لنا حال عبد الملك بن مروان عندما عزم على قتال مصعب بن الزبير، فقد وقفت له زوجته أم البنين، وقد كانت على درجة من الجمال والتأثير عليه، فأمسكته وقالت له: مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ، وَلَا تُلْقِ بِهَا فِي لَهَوَاتِ الْحَرْبِ. فقال: كلا، ثم أنشد:

إذا ما أراد الغزو لم تُثْنِ عِزْمَهُ خِصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا

نَهْنَهُ فَلَمَّا لَمْ تَرِ النُّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَاهَا قَرِينُهَا^(١)

فالإسلام إذن بدأ يستلّ من قلوب هؤلاء تلك القساوة شيئاً فشيئاً، وجعلها قلوباً تنبض بالرحمة والعطاء والتعامل الإنساني. ثم ذهب النبي ﷺ معهم شوطاً أبعد من هذا، فقال لهم: «من دخل السوق فاشتري تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»^(٢). فأراد ﷺ أن يُحدث

﴿وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: ٢١.

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٨٩، ٦٩: ٢٤٥-٢٤٦، والبيتان لكثير.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠١.

التوازن في ذلك المجتمع. ويقول عليه السلام «من كفل ابنتين فعالهما حتى كبرتاه وزوجهما، دخل الجنة».

فالنبي عليه السلام بدأ يُعَدِّل التوازن في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، يقول شاعرهم:

إذا المرني شَبُّ له بنات عصبن برأسه إبه وعارا^(١)

وهكذا أخذ الإسلام يُعَزِّزُ هذا المعنى، فكان النبي عليه السلام لا يذهب إلى الصلاة ما لم يطرق باب بيت فاطمة رضي الله عنها فيقول: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، أتأذنون لمحمد بالدخول؟». فتخرج الزهراء رضي الله عنها لتقول: «البيت بيتك والبت ابنتك». فيأخذها النبي عليه السلام فيقبلها^(٢).

وكان عليه السلام إذا رآها وقد أقبلت إلى المسجد وأحس أن عندها حاجة انتفض قائماً وأقبل إليها ليجلس معها وينظر في حاجتها. فكان في فعله هذا يوحى لهؤلاء بأن البنت يجب أن تُعامل كما يعامل الولد. هذا بالإضافة طبعاً إلى ما كان للزهراء رضي الله عنها من المنزلة الرفيعة والمقام السامي والخصائص الجليلة التي اختصت بها (سلام الله عليها).

بعد هذا وصل مع فاطمة رضي الله عنها إلى مرحلة الزواج، فأعطاه حقوقاً لا حدود لها،

(١) العين ٨: ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ - وأب، والمرني في الأصل: امرني، نسبة إلى امرئ القيس، ثم قالوا مرني، فكانهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والاية: الخزي.

(٢) لم نثر عليه بهذا النص، وقد ورد أن الزهراء رضي الله عنها لما مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام علي عليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحررة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٤٣، ٣٠٣: ١٩٨. أما تقييله عليه السلام لها وقوله: «أشتم منها رائحة الجنة»، فقد ذكر في علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ /، وغيرهما. وقد مر في ج ٢ ص ٢٧٩ من كتابنا هذا.

وأهم هذه الحقوق اختيار الزوج، فالمرأة لا تجبر على من لا تريده. أما إذن الولي في زواج البكر، وهل هو من الأمور التي لا بد منها أو لا، فأغلب الفقهاء على أنها تستقل بإرادتها، إلا في حالات معينة يعتبر فيها إذن الولي شرطاً، وهي الحالات التي يُخشى من ورائها وقوع الفساد أو ما شابه.

المبحث الثالث: مسألتان هامتان حول الزواج

وأحب أن أشير هنا إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: دور الأب في زواج ابنته

فإنه لا يمكن أن نتصور أن أباً من الآباء لا يريد أن يختار البيت المناسب والزوج المناسب لابنته، فهو تدفعه الشفقة والرحمة والنظر للمستقبل أن يراعي بنته. وهذا من مقتضى الأبوة والفترة، وقد يحصل شذوذ عن هذه القاعدة فترى أن بعض الآباء يكون متعنتاً، أو غير مقدّر للأمور تقديراً سليماً، فيشترط على الزوج شروط هتار للصلح. وهذا خارج عن منهج الإسلام الذي يقول: «من خطب إليكم فريضتم دينه وأمانته فزوجه»^(١). وليس هناك من شرط في الكفاءة سوى الإسلام البعيد عن التهاون في العرض أو الدين.

فعلى الأب ألا يعضل البنت، فيشترط شروطاً يتصور أنها من مصلحة البنت، وأن ينظر إلى الواقع من الناحية المادية والعرفية والمعنوية، فقد ورد عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أن المرأة كالثمرة الناضجة، لا بد من قطفها حين القطاف وإلا فسدت. فليس هناك من داع للشروط التافهة التي توضع أمام الزوج؛ لأن هذا من الفتنة التي نهى عنها النبي ﷺ: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٢).

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

الثانية: النتائج السلبية للطلاق

وهي أن بداية الزواج لها شأن يؤكد عليه علماء النفس، فالزوجان من أسرتين متباعتين في الطباع والأخلاق والسلوك والتصرفات، وليس من الممكن أن نرى الانسجام منذ اليوم الأول، بل إن علماء النفس يعتبرون السنتين الأولى والثانية بل وحتى الثالثة فرصاً مهيأة للطلاق، فالأم ترى ابنتها قد انفصل فجأة من حضنها وأصبح في حضن امرأة، وأم البنت ترى أن ابنتها أصبحت فراشاً لرجل أجنبي. فهذه تريد أن تستبدل بابنتها، وتلك بابنتها، وهذه العوامل تخلق لوناً من التوتر. وهنا على المجتمع أن يلتزم في هذه المسألة نظرية الإسلام: حكم من أهله وحكم من أهلها^(١).

فمن الواضح معظم حالات الطلاق التي تسمم المجتمع كان يمكن تلافيها من أقصر طريق عبر التزام أخلاقيات الإسلام، ولكنها لما أهملت أدت إلى نتائج مرعبة، ومن هذه النتائج:

النتيجة الأولى: عدم توفر فرصة للبنت في الزواج

فأول هذه النتائج المرعبة أن البنت قد لا تحصل لها فرصة أخرى في الزواج، خصوصاً في مجتمعنا الذي أصبح مثل المجتمع المسيحي الذي يشدد على عدم الزواج بالمطلقة في حين أن الإسلام يدعو إلى سترها وجبران خسارتها في تجربتها السابقة. وليس من الدين أو العقل أن توضع علامات الاستفهام حول المطلقة، فعدم توفر الظروف الموضوعية في زواج المرأة الأول، وعدم انسجامها مع زوجها لا يعني القضاء عليها، ألم يتزوج النبي ﷺ المطلقات؟ وهل كان زواجه

(١) قال تعالى: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ النساء: ٣٥.

بهن عفواً، أم أنه ﷺ أراد أن يضع الأسوة والقدوة لنا في الزواج؟
نعم، أراد النبي ﷺ أن يقول لنا: إن الزواج قد يكون تعويضاً للمرأة عما أصابها من ألم أو سترأ لها أو تكريماً، فأراد أن يقضي على تلك النعرة في النفوس، وإلا فقد كان النبي ﷺ يستطيع الزواج من أي البيوت والقبائل التي كانت حوله.
وقد تزوج أمير المؤمنين عليه السلام من نساء صالحات مطلقات، كأسماء بنت عميس الخثعمية التي كانت متزوجة باثنين قبله، فقد تزوجت جعفر الطيار، ثم أبا بكر، ثم تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام، فولد له منها يحيى وعون. وهكذا جملة من أزواجه عليه السلام.
وكان هذا المعنى أيضاً في حياة الأئمة عليهم السلام، فلماذا يكون عندنا عيباً؟
نحن مع الأسف لا نملك التفكير الجماعي بمجتمعاتنا وبلداتنا وأسرنا، وإلا فإن الزواج بالمطلقة إنقاذ للمجتمع وحماية له، وفيه جوانب إنسانية كبيرة تتعلق بحياة امرأة من نساء المسلمين.

النتيجة الثانية: ضياع الأطفال وتشردهم

فالتأثير السلبي الذي يؤدي إليه الطلاق فيما إذا كان عند المرأة طفل أن هذا الطفل قد تتزوج أمه أو يتزوج أبوه، ويبقى هو ينظر بعين لأمه المشغولة ببيت جديد وأطفال جدد، وبعين لأبيه المشغول هو كذلك بأسرة جديدة، فيتحول إلى مأساة وكارثة. إلى غير ذلك من المشاكل التي يؤدي إليها الطلاق الذي وصفه الإسلام بأنه أبغض الحلال إلى الله^(١)، وأن العرش يهتر منه^(٢).

وقد يلجأ البعض إلى الطلاق لمجرد أنه اختلف مع زوجته اختلافاً بسيطاً، خصوصاً إذا كان من أهل الأموال، لكنه لا يلتفت إلى أنه قد كسر قلب إنسان، والله

(١) سنن ابن ماجه ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ - ٩ / ٢٧٨٨٠.

تعالى لا يدع أصحاب القلوب الكسيرة. ومن هنا حدثت ردود الأفعال التي نشاهدها في مصر أو بعض البلدان العربية، وهي أن المرأة أخذت تشتط ضمن العقد ألا يتزوج عليها الرجل. وهذا شرط مخالف للعقد لا يأخذه الفقهاء^(١)، لكن الذي أريد قوله هو أن هناك ردود أفعال وتشنجات أخذت تحدث بسبب الشطط عند الزوج.

ومن الغريب في هذه الأيام أن بعض الأزواج يقول: إن امرأتي قد أصابها الترهّل والكبر بسبب الحمل وكثرة الإرضاع، وقد مللتها لكثرة المعاشرة. وهذا هو منتهى الأنانية، فالمرأة وضعت الأولاد للزوج، وخدمت في بيته، فهل هذا من الوفاء؟ وهل من ضرّوب الوفاء أن المرأة التي أفنت ذاتها من أجل ولد لك تربيته، أو بيت لك تصلحه، أو ثوب لك ترفّقه، أو حاجة تقضيها تقابل بالعقوق؟

فالآية الكريمة موضع البحث تصف حال هؤلاء الذين إذا بشر أحدهم بالأنثى غيّب وجهه عن الناس حياءً وهروباً من العار، في حين أن الذي يحدّد جنس المولود هو نطفة الرجل لا نطفة المرأة، فالرجل هو المسؤول عن كون الولد ذكراً أو أنثى. تقول أعرابية وهي تُرقّص ولدها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل بالبيت الذي يلينا
غضبان ألا نلذ البينا	وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا	نُعطيهم ما بذروه فينا ^(٢)

المبحث الرابع: قضية الواد ومعالجة الإسلام لها

ثم قالت الآية: ﴿أَيْمِسْكَ عَلَى هُونٍ﴾ أي أنه بين أمرين: إما أن يتركها في البيت

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

(١) انظر المكاسب ٦: ٤٣.

وهو معيّر، وهذا يسبب له الجفاء والاحتقار؛ فقد كانوا يحتقرون بآ البنات إلى حد أنهم لا يأكلون في بيته. ويلاحظ هنا أنه ورد في الروايات أن الأنبياء آباء بنات، أي أن الله تعالى أكرمهم بهذه المكرمة فجعل ذريتهم من البنات، أما هؤلاء فكانوا ينظرون لأبي البنات نظرة احتقار وازدراء، فيكون الأب متأرجحاً بين أن يتركها في البيت أو يدسّها في التراب.

وهذا هو الذي أشرنا إليه من أن قلوب بعضهم كانت أقسى من الصخر، فينتظرها حتى تكبر ثم يزيتها ويدفنها في التراب، وكان قائلهم يقول: أكرم الأصهار القبر.

ولذا فإن الإسلام عاملها معاملة تتناسب معها، فوضع الخطط لتربية الأبناء؛ ذكوراً كانوا أو إناثاً. وقد وقف النبي ﷺ يرسم ذلك مع ابنته، ومما قام به ﷺ أنه أراد أن يكسر واحداً من الحواجز النفسية التي كانت سائدة، وهو أن الرجل كان لا يطيق أن يرى ابنته تتزوج في حي هو فيه، وإنما يطلب من زوجها في ليلة زفافها أن يأخذها إلى مكان آخر. فما كان من النبي ﷺ إلا أن جمع رؤساء الصحابة ليلة زفاف فاطمة عليها السلام لبعولها كما تقول أم سلمة، ثم قال ﷺ لها: «يا أم سلمة، هيئي لابنتي حجرة». قلت: وأي حجرة تريد؟ قال ﷺ: «حجرتك». فهياأت الحجرة، ثم قال لي: «استدعي لي علياً». فدعوته له، فقال له: «اصنع لأهلك طعاماً، وادع من أحببت».

تقول أم سلمة: فدعا علي عليه السلام الصحابة، فأكلوا وصدروا شباعاً، ثم دعاني رسول الله ﷺ لما غابت الشمس وقال: «هل أصلحت ابنتي؟». قلت: نعم، فصلّى النبي ﷺ المغرب ثم استدعى سلمان وأبا ذر وعماراً والمقداد وجمعاً من الصحابة، فجعلهم أمام الناقة، وكان النبي ﷺ وكبار الصحابة معهم في موكب

فاطمة رضي الله عنها، ونساء النبي صلى الله عليه وآله والصحابيات معهم وهن ينشدن مستبشرات بهذه المناسبة:

سِرُّنْ بَعُونَ الله جَارَاتِي وَاذْكُرْنَه فِي كُلِّ حَالٍ
وَاشْكُرْنَ مَا أَنْعَمَ رَبُّ الْوَرَى مِنْ دَفْعِ مَكْرُوهِ وَأَفَاتٍ

وطاف النبي صلى الله عليه وآله بآبنته على المسجد، وزمام الناقة بيد سلمان وإلى جانبه عمار والمقداد وباقي الصحابة، فلما وصل صلى الله عليه وآله إلى الحجرة أخذ زمام الناقة بيده، وثنى ركبته، ونحى الصحابة عنه، ثم أنزل فاطمة رضي الله عنها بيده، ثم دخل إلى الحجرة، فقال: «يا أم سلمة، هاتي لي ماء».

تقول: فأتيته بقدر فيه ماء، فشرب منه شيئاً وبض الباقي في القدر ثم قال: «استدعي لي علياً». فنضع بين صدره رضي الله عنه ونحره، ونضع بين صدر فاطمة رضي الله عنها ونحرها، ثم أمسك يد فاطمة رضي الله عنها بيده وأمسك بيد علي رضي الله عنه فقال: «يا علي هذه وديعتي عندك». ثم رفع شيبته إلى السماء فقال: «اللهم إنك باركت على آل عمران فبارك على آل محمد، اللهم أخرج منهما النسل الطاهر، اللهم كن بهما حفيئاً ولهما وقيئاً».

ثم ودعها إلى الحجرة وعيناه تلاحقانها، ثم أطبق باب الحجرة وخرج^(١). فليتك يا رسول الله (صلى الله عليك وآلك) تقف على هذا الباب لترى ما جرى عنده:

يَا بَابَ فَاطِمَ لَا طَرَقْتَ بِخِيفَةٍ وَيَدُ الْهُدَى سَدَلْتُ عَلَيْكَ جِجَابَا
نَفْسِي فِدَاكَ أَمَا عَلِمْتُ بِفَاطِمَ وَقَفْتُ وَرَاكَ تُنَاشِدُ الْأَصْحَابَا

(١) انظر أمر زواجهما رضي الله عنهما كاملاً في مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ - ٤٠٥، بحار الأنوار ٤٣: ١١١ - ١١٧، ١٢٥ - ١٢٧.

أوما رقت لضلعها لما انحنى كسراً وعنه تزجر الخطابا
أفهل درى المسمار يوم أصابها من قبلها قلب النبي أصابا

* * *

تلوج وتندد بقضة يبو الحسين ونقه تشوف
ما رديت لهسفتها ونته غوث كل ملهوف
أقبلت عليه السلام تقوم ويقعدها الألم، حتى وصلت إلى قبر الرسول عليه السلام، فأدارت
وجهها إليه:

لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي
نفسي على حسراتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات^(١)



(١) تنبيه الغافلين: ٤١، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٣.

التوكل الواعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب نزول الآية

عالجت الآية الكريمة ظاهرة يمكن أن نسميها ظاهرة التوكل الواعي. ويروي المفسرون في هذه الآية سببين للنزول، وسبب النزول يلقي ضوءاً على موضوع الآية، ويوضح الجو الذي نزلت به. وهذان السببان المرويان هما:

الأول: ما يرويه القرطبي^(٢) ومجموعة من المفسرين^(٣) عن جماعة عن عبد الله ابن عمر أن النبي ﷺ خرج يوماً من الأيام ومعه مجموعة من الصحابة، فدخل إلى حائط من حيطان الأنصار - والحائط هو البستان - فأخذ يلتقط بعض التمر من الأرض ويأكل، ثم قال عبد الله بن عمر: فقال لي النبي ﷺ: «لَمْ لَا تَأْكُلُ؟». فقلت: أنا لا أشتهيه. فقال النبي ﷺ: «أما أنا فأشتهيه».

ثم التفت إلي فقال: «كيف بك لو علمت أنني منذ أربعة أيام ما ذقت شيئاً من

(٢) الجامع للأحكام القرآن ١٣: ٣٥٩.

(١) العنكبوت: ٦٠.

(٣) مجمع البيان ٨: ٣٨.

الطعام؟ ولو شئت أن أسأل الله أن يرزقني مثل ملك كسرى وقبصر لفعلت، ولكني لا أفعل». ثم قال لي: وكيف بك إذا صرت بين قوم يخبثون قوت سنتهم ويضعف عندهم اليقين؟».

هذا هو السبب الأول الذي يرويه المفسرون. وهذا السبب لا نطمئن له للأسباب التالية:

١- وجود رجال في الرواية لا يطمأن إليهم، فهم غير موثوقين، والسند يُشترط فيه أن يكون موثقاً لكي تقبل الرواية. أما إذا كان الراوي صاحب مصلحة في روايتها، وهو غير موثق فلا نطمئن لمثل هذه الرواية. فعثلاً جاء أحدهم يوماً إلى الحجاج وقال له: أنا تخلفت عن البيعة وأردت أن أباع لأمر المؤمنين عبد الملك لأتني أعرف أن الذي يبيت ليلة من الليالي وليس في عنقه بيعة لأمره ثم مات فإنه يموت ميتة جاهلية، وأنا أخشى أن يدركني الموت في الليل وأنا لم أباع بعد، فأموت ميتة جاهلية. فأخرج له الحجاج رجله وقال له: اضرب بيدك على رجلي وباع^(١).

وهذا استخفاف به طبعاً، وكان هذا الرجل ممن امتنع عن بيعة علي، ولكنه الآن يخاف أن يبيت ليلة دون بيعة، ولهذا الرجل مواقف كثيرة لا نريد التطرق إليها. وأرجو ألا يفهم البعض أننا أصحاب هوى أو حقد على أحد، بل الواقع أننا نقيم الإنسان بمقدار تقيمه الواقعي، فمن يصعد على المنبر ويقول: تمسكوا ببيعة يزيد؛ لأن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة بالغدر، فلا يمكن لأحد أن يحبه؛ لأن مثل هذا لا ينم إلا عن عدم ورع، وعدم الورع مدعاة لنا ألا نأخذ أحكام ديننا من صاحبه

(١) الفصول المختارة: ٢٤٥، وقد قال له الحجاج مستهزئاً: بالأمس تركت بيعة علي واليوم تريدني أن أباعك لعبد الملك؟

أو مَن هم على شاكلته.

٢- أن رسول الله ﷺ لا يمكن أن يأكل من بستان أحد دون إذنه حتى ولو كان ذلك مباحاً، فمن باب التنزه لا يمكن أن يتناول طعاماً دون إذن صاحبه.

٣- أن نهى النبي ﷺ عن ادّخار قوت السنة أمر غير مستقيم، فمن قال: إن الذي يخبيئ قوت سنته يضعف عنده اليقين؟ والحال بالعكس، فإن مسلماً^(١) والبخاري^(٢) رويَا أن النبي كان يدّخر قوت سنته. ومن ناحية ثانية فإن مجموعة من الصحابة كانوا يعملون هذا، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «النفوس إذا أحرزت معيشتها اطمأنت»^(٣)؛ لأن الإنسان الذي يدخل إلى بيته ولا يجد رغيف الخبز سيخرج إلى الدنيا ويكفر بها كلها، وإذا ارتفع صوت المعدة طغى على كل الأصوات، ولا يمكن أن يُرد؛ ولذا لابد من ضمان القوت. ومن أوليات الشريعة الإسلامية أنها تُعنى بالتكافل والضمان الاجتماعيين، فمن لا يملك الرغيف في بيته يفقد توازنه، يقول أحد الأدباء:

الشكر للخبز الذي لولاه ما كان يوماً يُعبَدُ الإله

فإذا لم يتوفّر للإنسان ما يسدّ حاجاته فانتظر منه أن ينحرف.

تأتيني رسائل بشكل مستمرّ من الشباب ومن مختلف الأجناس يشرحون فيها بعض القضايا السائدة التي ترتبط مباشرة بعدم إشباع الحاجة. ومن المعروف أن الحاجات قسمان: فمنها ما يمكن إشباعه بسهولة كالجوع، فإنه يُسد بالطعام، وكذلك العطش والعري، ومنها ما لا يمكن إشباعه بهذه السهولة، فلو أن امرأة

(١) لم نعر عليه في صحيحه، لكن رواه كثيرون غيره، انظر السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٤٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٦: ١٩٠.

(٣) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩/٣، والعلل (ابن حنبل) ٣: ٤٠٢/٥٧٧٤.

وغيرهما لسلطان ﷺ.

طاهرة طيبة مقبولة الشكل لكن لا يأتيها نصيبها، وتبقى جليسة الدار، وعندها حاجة ملحة وهي الغريزة، فكيف يمكن أن يكون الحل؟ هل ندفن رؤوسنا بالتراب؟ على الإنسان أن يواجه مشاكله وجهاً لوجه. إن هذه العقبات التي نضعها في طريق الزواج ينبغي أن نزيلها لإشباع هذه الحاجة، لئلا يؤدي الأمر إلى الانحراف، ولئلا يقعد المتصيّدون المرتزقة الذين لا همّ لهم سوى ترويع الدعارة بأوجه مختلفة.

فينبغي أن نهتمّ بتسهيل وتذليل كلّ عقبة في سبيل تأمين الحاجات. ولا بدّ أن يكون المجتمع مسلماً عنده تراحم وتكافل وتعاون وتضامن، وهذه مسؤولية كلّ فرد منا بإمكانه أن يساهم مادياً ومعنوياً في تذليل تلك العقبات. فالمسلم أخو المسلم، وعلينا نحن ألاّ نضخم المشكلة، فالمرأة لا تحصل على السعادة عن طريق كثرة الأموال، والرجل لا يحصل على السعادة بكثرة الأموال أيضاً. كما أن هذه العقبات يجب أن نذلّها، فلا داعي لأن نضيق المجال على المرأة ولا نفسعه لها بأن نحول دون زواجها حتى تحصل على أعلى شهادة؛ لأنها إن تركت حتى تتال هذه الشهادة العالية فسيصبح عمرها خمسة وثلاثين أو أربعين سنة، فمن الذي تكون عنده رغبة بالزواج منها عندئذ؟

فعلينا أن نزيل العقبات المتعدّدة مثل غلاء المهور، والاختيار المفرط وغير ذلك من العقبات. وهذا الموضوع من باب الاستطراد، وسنمر به في مواضع أخرى إن شاء الله.

فهذا الرأي في سبب النزول لا نظمئن له، فتأمين الحاجات ليس منافياً للشرع، وكان الرسول يذخر طعاماً لأهله لمدة من الزمن، وكان الأيّمة والصلحاء يقومون بهذا العمل، فهو لا ينافي الشرع حتى يقول الرسول ﷺ: إنه يضعف اليقين. ثم إن اليقين لا بدّ أن يكون واعياً، والله لا يريد منا أن نكون بلهاء، ومن طبيعة الإنسان

أنه حيوان مدّخر. والتوكل لا ينافي السعي. ومن الممكن الجمع بين التوكل والسعي، فأنت تسعى وتعمل وتدّخر من الحلال وتوكل على الله، ولا منافاة بين هذه الأمور.

وهذه الشريعة بين أيدينا ليس في أصولها ولا في قواعدها ولا في الروايات ما ينافي أن الإنسان يأخذ القوت لأهله، ليجعلهم مطمئنين أن عندهم رغيماً. ولكن على ألا يفرط في الأمر.

وليكن التوكل واعياً، وهو أن يحرز المقدمات أولاً ثم بعد ذلك يتوكل على الله. وهذا أشبه بقضية الأعرابي الذي دخل على النبي ﷺ في المسجد فقال له النبي ﷺ: «أين تركت راحلتك؟». قال: يا رسول الله، أرسلتها وتوكلت على الله. فقال له النبي ﷺ: «اعقل وتوكل»^(١). فالله علّمنا أن نربط الأسباب بمسبباتها، وأن نتحرّك ضمن نظام، أما أن نُعطي الإهمال صفة التوكل فلا. فلا تنسب إلى الشريعة ما ليس فيها؛ ولذا ضعّف القرطبي^(٢) نفسه هذه الرواية في سبب النزول، وهي كذلك كما رأيت.

الثاني: - وهو الصحيح في سبب نزولها -: أن ضغط قريش زاد على الرّواد الأوائل من المسلمين، ولم يكن عند هؤلاء الرّواد انتماءات ضخمة، فمنهم من هو من الموالى، أو فقير لا عشيرة له، أو من عشيرة صغيرة ضعيفة. فأغلبهم كان ذا وضع اجتماعي عادي، فكانوا عرضة للتعدّي عليهم واضطهادهم من قبل قريش، فجاءوا إلى النبي وقالوا: ما نصنع؟ فأمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة. فقالوا له: يا رسول الله، ليس عندنا ديار نسكن بها، ولا عندنا من يعرفنا أو يخفّق علينا. فأطرق النبي ﷺ قليلاً ثم نزل جبرئيل يحمل هذه الآية.

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٠١. (٢) الجامع للأحكام القرآن ١٣: ٣٦٠.

فالرسول يريد أن يقول لهم: لا تبقوا مع الظلمة؛ فتعرضوا أنفسكم للاضطهاد، والدار التي لا تضمن لك المأوى والأمان لا تبقَ بها.

فالأية منصبة على عدم الإفراط في سوء الظن بالله، فيما أنك تملك سبباً تحت يدك فاستعمل هذا السبب ولا تكن سيئ الظن بالله من أن الأبواب سوف تغلق في وجهك. فعليك أن تأخذ بالأسباب الطبيعية، والباقي على الله، وهو لا يهمل عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١).

المبحث الثاني: في معنى الدابة وبعض خصائصها

تقول الآية: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ والدابة كل ما يدب على الأرض إنساناً كان أو غيره، فالآية لاحظت المعنى اللغوي الذي يشمل الإنسان والحيوان. فالقرآن يقول لنا: قفوا ميدانياً على الدنيا، وانظروا إلى هذه الدواب التي أنتم قسم منها، هل تدّخر طعامها كلها وتحمل رزقها أم لا؟ وليبحث هذا عندكم شيئاً من الطمأنينة إلى أن الله لا يترككم. فقسم الدواب إلى قسمين: قسم يحمل رزقه، أي ما نعبر عنه بالحيوان المدّخر. وقسم لا يدّخر.

ولا يدّخر من الحيوانات إلا ثلاثة: النمل والفأر والإنسان. وباقي الحيوانات لا تدّخر. فالنملة تحمل الحبة إلى داخل جحرها، ولخوفها عليها من الرطوبة والنمو؛ تعد إليها فتأكلها من موضع إنباتها وهو القطمير (الجنين). وفي الليالي المقمرة تخرج طعامها إلى ضوء القمر وترجعه صباحاً إلى وكرها، وتبقى تأكل منه. وتقسم بعض الحبوب نصفين وتقسم بعضها أربعة؛ لأنها تعرف بالتجربة أن بعض الحبات تنمو إذا قسمتها نصفين، فهي تستفيد نوعاً ما من التجربة.

ولذا عندما يمرّ بعض المفسرين بموضوع النمل يذكر المحاورة التي ذكرها

القرآن بين النبي سليمان عليه السلام والنملة، فعندما مرّ سليمان عليه السلام على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطِفَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١)، فيقول المفسرون في تفصيل الحوار: إن سليمان عليه السلام سألها: «ما لي أرى لباسكم السواد؟». قالت: لأن الدنيا دار مصائب، والسواد لباس أهل المصائب. فقال: «ما لي أراكم عراة الأبدان؟». قالت: هكذا دخلنا إلى الدنيا وهكذا نخرج منها.

وهذا من باب الموعظة ليس إلّا، وإلا فإن السواد في بعض المناطق يعتبر من لباس الأفراح. فالتقاليد تختلف من منطقة إلى أخرى، وقد يكون ما هو مصيبة عند شعب فرحاً عند شعب آخر. فقولها: هكذا دخلنا إلى الدنيا وهكذا نخرج منها هو للموعظة، فالإنسان يدخل إلى الدنيا عارياً ويخرج منها عارياً. فجميع ما يلبسه من لباس مزركش بالذهب أو ثوب جميل أو قميص عادي أو ثوب بالٍ يتركه وراءه، فما للدنيا يتركه للدنيا ويذهب إلى ربه عارياً: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٢).

فلا شيء يمكن أن يشيكم، بل حتى الأشياء التي تعطي الإنسان معنىً بالثنية يخلعها، وذلك مثل علامة أو بروفيسور أو الألقاب الأخرى، فإنه يترك كل هذه الألقاب وراءه. يقول أحد شعرائنا:

مررت على الوادي فسقت عجايزة
فأبقيت لم أنفض عن الرأس ثوبها
وكم من بلادٍ بالعجاج ومن نادٍ
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادي
إلى أن يقول:

فدو الزهو خلى الزهو عنه وقد مضى
وظللت على الغبرا سيادة أسيادي

أَعْقَبَاكَ يَا دُنْيَا قَمِيصٌ وَطِمْرَةٌ بِحُفْرَةِ أَرْضٍ مِنْ خَرَابَاتِ زُهَادٍ
فَكَمْ كُومَةٍ لِلتُّرْبِ مِنْ بَعْدِ كُومَةٍ مُعَلَّقَةٌ هَذَا الزَّعِيمُ وَذَا الْهَادِي
فهؤلاء دخلوا إلى الدنيا عراة، وسيخرجون منها عراة. فكل ما على الإنسان هو عارية^(١) مستردّة. فهذه النملة تريد أن تقول له: إن الدنيا هذا شأنها.
فقال سليمان عليه السلام: «كم تأكل النملة منكم في اليوم؟». قالت: نصف حبة أو أقل.
قال عليه السلام: «ولماذا؟». قالت: لأننا على جناح سفر، والمسافر كلما خفّ حمله خفّ ظهره.

فهما تصورت أن يكون عمرك، فأنت مسافر سترحل يوماً، والليالي والأيام تسير بك، يقول الشريف الرضي:

مَا أَقْلُ اعْتَبَارَنَا بِالزَّمَانِ وَأَشَدُّ اغْتِرَارَنَا بِالْأَمَانِ
أَيُّهَا ذِي الْهَوَامِلِ اسْتَوْسِقِي بِالـ سِيرٍ وَاسْتَقْرَبِي مِنَ الْأَطْعَامِ
وَاسْتَقِيمِي قَدْ ضَمَكِ اللَّقْمُ النَّهْـ حُجَّ وَغَنَى وَرَاءَكَ الْحَادِيَانِ^(٢)

والحاديان هما الليل والنهار، فكُلّما مر يوم أو ساعة أو دقيقة فهو نقص في عمرك، فالنملة تقول له عليه السلام: نحن نكتفي من الدنيا بالقليل وبما خف من حمل؛ لأننا على جناح سفر.

وهي محاورة طويلة لا أريد الدخول فيها كلّها، ولكن يظهر من هذا أن النمل له لغة خاصة يتفاهم بها. وليس النمل فقط، إذ ليس من الممكن أن يوجد حيوان ليس عنده لغة للتفاهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾^(٣)، والسيح لا بدّ له من لغة، فهو يسبح بلغته الخاصّة. بل حتى النبات له لغة خاصّة لكنها لغة كيميائية،

(٢) شرح نهج البلاغة ١١: ٢٦٢.

(١) أي شيء مستعار.

(٣) الإسراء: ٤٤.

كما أثبت ذلك العلم الحديث، فقد جرّبوا أن وضعوا عنكبوتاً على ورقة من النبات فأفرزت مادة هرب منها العنكبوت، وأفرزت النسبته رائحة إشعاراً لجاراتها بالخطر. والنحل كذلك له لغة حركية يتفاهم بها.

فلكل حيوان لون من ألوان اللغة، وبعض الحيوانات قد يرتقي فهمه لأكثر من هذا.

وهذا الموضوع يفتح علينا باباً آخر هو: هل إننا نحمل الحيوان مسؤولية جنائية أم لا؟ فللقرد مثلاً مزايا قريبة من الإنسان، وهذا هو الذي أوحى إلى دارون أن يقول: إن القرد حلقة من الحلقات في طريق تطوّر الإنسان. ومن هذه المزايا أن له أصابع وأظافر ورموشاً وأهداباً، ويجلس كما يجلس الإنسان، ويضاجع كالإنسان، وهو الكائن الوحيد الذي يضحك من بين كل الحيوانات، وعنده لون من الذكاء وخفة الحركة، بل إن المؤرّخين يروون أن ملك النوبة أهدى إلى المتوكل قرداً خياطاً وآخر صائغاً^(١).

وهذه الناحية انعكست على الفقه الإسلامي، فالشيخان مسلم والبخاري يرويان عن القاضي حسين أنه يرى أن من علّم قرداً على السرقة فسرق فإن القرد هو الذي تقطع يده بلحاظ أن للقرد اختياراً، وعنده نسبة من الإدراك^(٢). فإذا كان عنده اختيار صار هو السبب المباشر، وبذلك فإن القطع يتوجه إليه. وهذا يدلّ على أن هذا الحيوان يرتفع بإدراكه إلى حدّ تحمّل المسؤولية الجنائية. والغريب أن هذا القرد المسكين لم يسلم، فقد أفتى البعض بجواز ذبحه وأكل لحمه^(٣).

وكان الرومان يحملون الحيوان مسؤولية مدنية، ونحن الآن نحمل الحيوان

(١) بحار الأنوار ٦١: ٧٤. (٢) عنهما في حياة الحيوان ٢: ١٧١ - ١٧٢.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٢٢.

مسؤولية مدنية أيضاً ونلقبها على عاتق المالك.

إذن فالحيوانات المدخرة هي هذه الثلاثة. والغريب أيضاً أن الحيوان المدخر يشبع بطنه أولاً ثم يدخر. وهناك حركات غريبة تقوم بها بعض هذه الحيوانات، فالفأرة مثلاً تأتي إلى إناء فيه دهن فتشرب منه، فإذا نقص فلا تستطيع أن تصل إليه وربما تتزحلق وتقع، فإنها تذهب إلى الماء وتجيء به في فمها فتلقيه في الإناء؛ كي يطفو الدهن فتمتصه. وهذا النمط من السلوك أوجد نزاعاً بين علماء الحيوان حول أن هذا السلوك هل يرتبط بغريزة معينة - أي أنه مطبوع في خلايا المخ - أو أن فيه اختياراً؛ فيكون بالتالي عملية عقلية إلى حد ما؟

فآلية الكريمة تقول: إن الحيوانات لا تدخر رزقها - باستثناء هذه الثلاثة - فهي تغدو منذ الصباح طالبة لرزقها؛ فالطير يخرج خميص البطن ويعود وقد أكل وشكر ربه، وكذلك الحيوانات الأخرى. فالقرآن يقول: أحسنوا التوكل، لكن ليس التوكل الأبله، وإنما التوكل الواعي، ولا تسيئوا الظن بالله تعالى، فإله متكفل بالرزق، ومن المستحيل أن يفتح فماً ولا يرزقه^(١).

المبحث الثالث: في أنواع الرزق

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾، فإله يرزقها بنوعين من الرزق: الأول: الرزق المباشر، بأن يخلق لها قوتها في الأرض أو في البحر؛ فتجد أقوات الأسماك بعضها على البعض الآخر في البحر - وبيالغ الأسف حتى البشر يأكل بعضهم بعضاً، وهذا هو الواقع، فمعظم الناس يأكل بعضهم بعضاً ولكن بصيغة من الغلاف الحضاري - ورزق الديدان في الأرض. يقول أحدهم: كنت على ظهر سفينة فرأيت فأرة، فألقيت لها قطعة من الطعام، فأخذتها ورجعت خالية، وتكرر

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ الأنعام: ١٥١.

هذا الأمر، فتبعتها، فوجدتها تأتي بالطعام إلى فأرة عمياء.

فإنه سخر الكائنات بعضها لبعض، ويتغذى بعضها على البعض. والنبات هكذا، فقد يمد جذره ليتغذى على غذاء كائن آخر، فهذا الرزق المباشر.

الثاني: الرزق غير المباشر، وذلك بأن يأمر مالِكها بالإِنفاق عليها، فمن كانت عنده أغنام، وأجذبت الأرض فلا بد له من أن يهيئ لها طعامها، فإن قال: ليس عندي القدرة على ذلك، فإن الحاكم يجبره على بيع بعضها وشراء الطعام للباقي كي لا يعرض الحيوان للتلف والأذى.

وقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام في مسيره إلى الحج يرفع السوط على الناقة عندما تتلکأ عليه ثم يقول: «أوه، لولا القصاص. أوه، لولا القصاص»^(١).

ومعنى ذلك أن هناك مسؤولية عليه لو ضربها. وهذا المعنى تؤيده الأحاديث النبوية الشريفة، يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الحيوانات المركوبة: «أركبوها سالمة وأرجعوها سالمة، ولا تجعلوها كراسي لحديثكم بالأسواق والطرقات؛ فرب مركوب خير من راكبه، وأكثر منه ذكراً لله»^(٢).

ومعنى ذلك أنه لا يسوغ لكم أن تستعملوا ظهر الحيوان المريض وتتعبوه، أمّا الحيوان السالم فلا تتعبوه إلى الدرجة التي يمرض فيها، ولا تتعبوها بأن تتحدثوا بينكم وأنتم تمتطون ظهورها، وليكن في تعاملكم معها عنصر إنساني، فهذا لون من التعذيب المنهي عنه. والواقع المر الذي نعيشه اليوم أننا نركب على أكتاف الإنسان أكرم المخلوقات على الله^(٣) في هذا الكون، فهذا الوجود الكريم تجد هناك من

(١) الإرشاد ٢: ١٤٤. (٢) المجازات النبوية: ٤٣٧.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء: ٧٠.

يصعد على عاتقه وعلى أكتافه بل وعلى قلبه.

قال النبي ﷺ يقول: «فربّ مركوب خير من راكبه، وأكثر منه ذكراً لله»، تأمل روعة هذه العبارة! ويشبهها قول الشاعر:

قال حمّار الطيّب لوقا لو أنصفوني لكنت أركب

لأنني جاهل بسيط وراكبي جاهل مُركَّب

فأحياناً تجد من يركب على حيوان هو أفهم منه بكثير.

وهذه المشكلة ذهبت إلى حد ما في هذا الزمان، فالناس هذه الأيام عادة يركبون السيارات الفارهة، ولكن مع ذلك ما يزال هناك من يستعمل ظهور الحيوانات أو يتعامل معها. فمن يتعامل مع الحيوان ينبغ عليه أن يتعامل معه برفق ولطف.

والغريب أن الحضارة اليونانية التي يعدّونها أعمق الحضارات تقول: إن الحيوان ليس عنده روح فهو مثل الجماد. وهذا رأي أفلاطون وأرسطو، في حين أن الشريعة الإسلامية ترى أن له روحاً، وتعطيه درجة من الاعتبار، وتأمّر بمعاملته وكفالاته، وتجد في الأحاديث: «إن الله يرحم العبد برحمته للعصفور». فليست هناك حضارة من الحضارات وفرت للحيوان حقوقاً كما وفّرت الحضارة الإسلامية.

فكلّ عمل من الأعمال تجده يتنافى مع العنصر الإنساني فلا تعدّه من الإسلام في شيء، فليس من الممكن أن يشرّع الله ما فيه الأذى للإنسان أو الحيوان، بل إن هذا الأذى يأتي من أفكارنا نحن، فنحن الذين نفسر بأهوائنا، ونسكب على النص ما عندنا من مشاكل نفسية، فمثلاً يقول القرآن: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي

جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا^(١)، والسفيه واضح، وهو من يبدد الثروة ويضيّعها، فالآية صريحة، ولكن يأتي من يقول: إن معنى السفهاء هنا النساء^(٢)؛ لأنه يعيش في محيط إذا ذكرت فيه المرأة يقال: أجلك الله عنها، فسكب ما في نفسه على النص. فهذا التفسير تفسير لما في رأس المفسر لا تفسير للنص.

فالآية الكريمة تقول: إن الله متكفل بالرزق، فكما يرزق هذه الكائنات يرزقكم، ولكن ليس معنى ذلك أن نترك العمل اعتماداً على هذا، بل ينبغي أن يكون التوكل على الله توكلًا واعياً كما قلنا؛ فمن لا يأكل من عرقه لا يشعر بالكرامة أبداً.

المبحث الرابع: لمحة من مواقف الأنصار مع المهاجرين

ثم قالت الآية: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهو سميع بما قاله الصحابة للنبي ﷺ في سبب النزول الذي ذكرناه، فهم قالوا له: ليس عندنا دار نسكنها، ولا من ينفق علينا، ولا عمل لنا هناك، وسوف نضيع. فقال لهم القرآن: إن الله يسمع قولكم ويعلم حاجتكم. وهذا هو الذي صار فعلاً، فقد استقبلهم الأنصار وقاسموهم بيوتهم، فجاء كل أنصاري بمهاجر أو أكثر وأسكنه معه في البيت، وقاسموهم رغيف عيشهم، حتى وصل الأمر إلى درجة أكثر من مقاسمة رغيف العيش، فصاروا يعطونهم الرغيف ويبقون جائعين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ خَانَ بِهِنَّ خِصَاصَةً﴾^(٣).

ومسحوا عنهم غربتهم. فالإنسان إذا خرج عن وطنه يشعر بالغربة والضياع،

(١) النساء: ٥.

(٢) مجمع البيان ٣: ١٧، ونسبه إلى جماعة، الجامع لأحكام القرآن ١: ٥٣.

(٣) العشر: ٩.

ويشعر أنه ترك وراءه أوطاره وإخوانه ورفاقه، فيحتاج إلى من يمسح ألمه وغربته، فمسح الأنصار غربة المهاجرين حتى أنسوهم أنهم ضائعون غرباء، واستقبلت المدينة المهاجرين استقبالا لا حدود له.

ولكن يؤخذ على المدينة - مع الأسف - أنها ما وفّت لما واعدت به رسول الله ﷺ وعاهدته به، فقد كان الإمام الصادق إذا قرأ هذه الآية: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) يقول: «اللهم اشدّد وطأتك عليهم؛ إنهم ما وفّوا لنا بما وعدونا». لأنهم قالوا للنبي ﷺ: «أهل فينا من لا يودّ ذوي قرباك؟ لكنهم لم يفوا بهذا العهد، ولم تقف المدينة الموقف الذي ينبغي أن تقفه. وإلا فليس من المنتظر من المدينة أن الناعي لما أتى بنعي الحسين عليه السلام يقف أحدهم فيها فيقول:

عجت نساء بني زياد عجة كعجيج نسوتنا غداة الأرنب^(٢)

ولذلك خرجت إحدى بنات عبد الرحمن بن عقيل وهي تقول:

ماذا تقولون لو قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي أهل بيتي بعد مفتقدي منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم^(٣)

وشعرت عائلة الحسين عليه السلام في المدينة بالغبّة؛ لأن ديارها ظلت خالية، فأى دار منها لم تكن خالية؟ تمرّ على دور آل عقيل فتجدها خالية ليس فيها إلا الأسى، وكذلك بيوت آل جعفر وبيوت آل علي مثلها، وهاهو دعبل بن علي في تائيته يصوّر هذه اللوعة عندما يمر بهذا المنظر:

قفا نسأل الدار التي بادّ أهلها متى عهدا بالصوم والصلوات
وأيّن الألى شطّط بهم غربة النوى أفانين بالآفاق مفترقات

(٢) الإرشاد ٢: ١٢٣.

(١) الشورى: ٢٣.

(٣) الإرشاد ٢: ١٢٤.

ديار عليّ والحسين وجعفر
ووقف عيلة الطالبين عندما واجهت دار الحسين:

وحثك لو جهت الدار ألكيها بدمع سجاب
أشوف ارسومكم بيها واشتم ريحة الاحباب
واتذكر ثمنناكم واتكسوم اكبال الباب

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا
نذر عليّ لئن عادوا وإن رجعوا
وخلفوا في سويدا القلب نيراناً
لأزرعن طريق الطيف زيحاناً^(١)



﴿٦٣﴾

العقل عند الإمامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ

فَكْبِّرْ﴾^(١).

المباحث العامة في النص الشريف

تعد هذه السلسلة من الآيات الكريمة ذات محتوى أخلاقي عالٍ، وكل ما في القرآن الكريم عالٍ، لكن لهذه الآيات اعتبار خاص؛ لأن الله تعالى - كما سيمر بنا - قد أدب بها نبيه ﷺ، وألقى له فيها جملة من مكارم الأخلاق. ومن المواد التربوية ما هو في غاية السمو والعلو، وسوف نرى كيف مرت هذه الآيات بهذا التسلسل، أو بهذا النوع من الأداء الذي يرتبط بعضه ببعض.

المبحث الأول: معنى ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ والآراء فيه

فالنص الشريف ابتداء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، لكن يرد هنا سؤال، وهو أن تدثر النبي ﷺ هل كان حالة من الحالات الطارئة التي تصيب أي إنسان، فهو ﷺ كان لسبب من الأسباب قد ادثر، أم أنها من الحالات الدائمة؟ فما هو سبب تدثره ﷺ؟ للمفسرين آراء مختلفة في ذلك، وهو اختلاف منشؤه

هل إن التدثر آنذاك كان ظاهرة طبيعية، بمعنى أنه ﷺ أحسّ بشيء من البرد فتدثر، أم لا، أي أن هناك سبباً آخر دفعه لذلك؟

الرأي الأول: أنه خطاب لطف وتدليل

وهذا الشيء لا يستأثر بأهميّة، ولكن هناك شيء واحد أحبّ أن ألقت النظر إليه، وهو أن هذا النعت الذي نعت الله عزّ وجلّ به نبيّه ﷺ هو من باب الملاطفة والتدليل الذي يعبر عنه بعض المفسرين بأنه تلطف من الكريم إلى الحبيب، يعني أن النبي ﷺ خوطب بهذا الخطاب في وقت كان فيه مدثراً.

فالمسألة هي مسألة لطف، وقد رأيت أن بعض المفسرين يعقبون على هذا المعنى، ومن جملة هؤلاء المفسرين القرطبي، فقد عقب على هذا المعنى بقوله: «هذا الخطاب من الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ بقوله: ﴿يا أيها المدثر﴾ هو نوع من أنواع التدليل واللطف، كخطاب رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام لما رآه نائماً وقد خلص التراب إلى جسمه: «قم أبا تراب»...»^(١).

أي أن القرطبي يعني بذلك أن هذا الخطاب هو خطاب لطف وتدليل ورقّة، فكما أن الله عزّ وجلّ خاطب نبيه ﷺ خطاب رقّة وتدليل ولطف بقوله: ﴿يا أيها المدثر﴾، فإن النبي ﷺ خاطب الإمام علياً عليه السلام خطاب رقّة وتدليل ولطف بقوله ﷺ: «قم أبا تراب».

ثم يذكر القرطبي السبب في نوم علي عليه السلام على التراب، وينصّ على أن النبي ﷺ رآه نائماً عندما خرج مغاضباً لفاطمة عليها السلام^(٢)، والمسألة في الواقع ليست كذلك، ولم يكن علي عليه السلام خارجاً وهو مغاضب لفاطمة عليها السلام؛ لأن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يصدر منه ما يسبّب الغضب لفاطمة عليها السلام، وهي عليه السلام لا يصدر منها ما يسبّب الغضب

لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فالناس العاديون من ذوي التربية العالية لا يصدر منهم ذلك فضلاً عن المعصومين عليهم السلام، فإن كنا نعتقد بعصمتهم فلا يمكن أن نتصور ذلك، أما من لا يعتقد بعصمتهم فهو على الأقل يعتبرهم على نمط من أنماط التربية العالية؛ فلا يتصور ذلك أيضاً.

فكل ما في الأمر، أن علياً عليه السلام دخل البيت، ثم خرج إلى المسجد فأدركه النوم؛ لأنه كان يعمل في النهار، ويكدح كدحاً شديداً، فلما أدركه النعاس نام، فسقط رداؤه فخلص التراب إلى ظهره، فأجلسه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذه العبارة الرقيقة، حيث قال له: «قم أبا تراب». ولذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يفرح أشدّ الفرح إذا دُعي بها؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي نعت به، في حين أن الأمويين كانوا يتصورون أنها سُبّة، أو منقصة، فكانوا يشتمون علي بن أبي طالب عليه السلام بها، والحال أن الذي كان هو العكس، فهي من الألقاب المحببة إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

الحجاج يستفتي الشعبي

وبالمناسبة أذكر هنا حادثة لها علاقة بذلك، يذكر المؤرخون أن الحجاج استدعى يوماً الشعبي رجل الفقه المعروف، فكانت له معه محاوراة، ومن جملة أجزاء تلك المحاوراة أن الحجاج سأله: ما تقول في أم وأخت، وجد؟ يعني لو أن رجلاً توفي وترك أمّاً وأختاً وجدّاً، فكيف توزع التركة؟ فقال الشعبي: اختلف في هذه المسألة خمسة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: زيد، وعبد الله بن مسعود، وعثمان، وعلي، وعبد الله بن عباس. فقال الحجاج: اذكر لي آراءهم وابدأ بابن عباس؛ فلقد كان متقياً.

فذكر الشعبي رأي ابن عباس، وقد اعتبر ابن عباس الجدّ أباً، فأعطاه ثلثي

التركة، وللأم الثلث تأخذ بحكم نص الآيه: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ﴾^(١) إذا انحصر الميراث بأب وأم، فهما الطبقة الأولى؛ فيحجبان غيرهم ولم يعط الأخت شيئاً؛ لأنها من الطبقة الثانية، فإذا كان الأبوان موجودين، باعتبار أن الجد أب على رأي ابن عباس، فالأب يأخذ الثلثين، والأم تأخذ الثلث.

فقال الحجاج: ما كان رأي أمير المؤمنين عثمان فيها؟ قال الشعبي: رأي عثمان أن الميراث أثلاث، ثلث يأخذه الجد، وثلث تأخذه الأم، وثلث تأخذه الأخت. فقال: ما كان رأي أبي تراب؟ قال الشعبي: رأي أبي تراب أن التركة توزع ستة أسهم: ثلاثة أسهم للأم، وسهمان للجد، وسهم للأخت.

والمؤرخون هنا لم يذكروا توجيه المسألة؛ لأنها تختلف باختلاف الفرض، فهل إن الجد كان من جهة الأم أو من جهة الأب؟ وهل إن الأخت لأبوين، أو من الأم، أو من الأب؟ إن الأنصبة تختلف تبعاً لذلك. ولا يعنيها هنا أن نتبع الأنصبة، ولكن الذي يعنيها هو تعبير الحجاج المشار إليه بنعته أمير المؤمنين رحمه الله بأبي تراب، قال الشعبي: هذا رأي أبي تراب. يقول المسعودي في (مروج الذهب): فضرب الحجاج بيده على أنفه وقال: «إنه المرء لا يرغب عن قوله».

وإذا كان علي رضي الله عنه كما يقول الحجاج: «لا يرغب عن قوله»، فهذا يوجب على الحجاج أن يأخذ برأيه، باعتبار أنه لا يرغب عن قوله، فهل أخذ الحجاج برأيه؟ كلا، بل التفت إلى القاضي قائلاً: أمرها على رأي أمير المؤمنين عثمان^(٢).

وهذه مفارقة غريبة طبعاً، فالحجاج من جهة يستحسن النظرية، ويضرب بيده على أنفه، أو ينعته بأنه المرء لا يرغب عن رأيه، ومن جهة أخرى لا يأخذ برأيه. وهناك نظائر عديدة لهذه المفارقة في تاريخنا - مع الأسف - أذكر منها مثلاً

أن أحد الرواة يقول: سألوا النبي ﷺ: كيف نصلي عليك؟ قال: «لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء»، إذا أردتم أن تصلوا عليَّ فقولوا: «اللهم صل على محمد وآل محمد». وبعد أن يذكر الراوي هذه الرواية يقول: «هكذا قال صلى الله عليه وسلم»!

فانظر إلى هذا الراوي الذي ذكر أن النبي ﷺ قال: «لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء»، ثم يصلي هو عليه الصلاة البتراء، فيقول: «صلى الله عليه وسلم» دون أن يذكر «آله»!

ونحن عندما نذكر مثل هذه الحوادث والمفارقات، فإنما نريد أن نسلط الأضواء على ثغرات التفسير والتاريخ والعقائد عندنا؛ لأن الإنسان لا بد له من معرفة مرضه، ليعرف العلاج المناسب لهذا المرض، وإلا فإنه سيبقى مريضاً. والنوايا والأهداف المخلصة التي تحاول معالجة الأمراض الاجتماعية والعقيدية ينبغي أن يكون رائدها وجه الله تعالى، وتكون المهمة هي إزالة العقبات عن طريق المسلمين.

إذن الآية الكريمة أول ما يلفت النظر فيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وقلنا: إن هذا الخطاب هو خطاب تدليل، أي إنه خطاب من الكريم إلى الحبيب. الرأي الثاني: أنه خطاب عتاب وتوجيه

فهناك بعض التعليقات تقول: إن النبي ﷺ عندما تدثر، كان راجعاً من مجتمع قريش، وكانوا يشيرون إليه بقولهم: هذا الساحر، هذا المجنون. فتضيق النبي ﷺ وتآلم وتأذى، وعندما رجع اضطجع ووضع على بدنه الدثار^(١)، فكان جبرئيل عليه السلام يقول له: هذا الذي رأيته من ثغرات في مجتمعك لا تعالجه بالنوم، لا تتدثر وتدثر

ظهرك لهم، لا بل عليك أن تقوم، وتعالجه بطريق آخر، وهذا الطريق هو الإنذار.
فاطلب الراحة بالإنذار لا بالدثار. يقول أحد شعراء العرب:

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مُشتمِلٌ ما هكذا تُوردُ يا سعدُ الإبل^(١)

يعني أنك عندما تريد أن تسقي إبلك فلا تشتمل، بل تهيأ واستعد. فالقرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: لا تعالج ثغرات هؤلاء القوم بالنوم؛ لأنك صاحب قضية كبيرة وهدف أكبر، ومن كان كذلك لا يصل إليهما بالنوم، بل عليه أن يكون يقظاً ويتتبع هدفه بالعمل. ورحم الله أبا الطيب المتنبّي حيث يقول:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرامها الأجسام^(٢)

يعني أن صاحب الهدف عليه أن يتعب، ولا يواجه القضية بالنوم، أو الإعراض عنها. وبتعبير آخر: إن المشكلة لا تواجه بالإعراض عنها، فذلك هو الهروب من المشكلة؛ لذلك قلنا: إن هذه الآيات تلقي إلى النبي ﷺ هذه الصفات السامية، وتقول له: إن مثلك من يحمل هذا العبء؛ لأن الله عز وجل عندما اختارك لأداء الرسالة فهو يعرف الطاقات التي عندك، فلا تحوّل هذه الطاقات إلى الإعراض؛ لأن الإعراض هروب، فلا تتدنّر وتترك المشكلة، بل قم وقابل المشكلة بالجد والعمل والصراع، حتى تنتهي إلى هدفك؛ لأن الأهداف لا تنال إلا بالمعاناة، وأنت أهل لذلك؛ ولهذا قال القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(٣).

أي أن الله تعالى عندما أرسلك للناس بشيراً ونذيراً فهو جلّ وعلا يعرف الطاقات العالية التي تمتلكها وتتوقّر عليها، فالواجب عليك ألاّ تجمدها وتقتلها.

(٢) ديوان المتنبّي ٢: ٢٦١.

(١) مجمع البيان ١٠: ١٧٤.

(٣) الأنعام: ١٢٤.

بل عليك أن تواجه قومك بإنذارهم وتخويفهم من الله تعالى.

المبحث الثاني: في معنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾

ثم قال تعالى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، وفي هذه الآية ثلاثة آراء:

الرأي الأول: إنذار المعادين بالعذاب

وعليه فيكون معنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: قم وقف في وجه الجبابرة، وأعلمهم أنهم إن لم يؤمنوا فسينتظرهم عذاب شديد. وهنا يرد سؤال هو: لماذا هذا الموقف المتصلب المتشدد من الكافرين؟ وما هو السر في ذلك؟ وسبب هذا التساؤل هو أننا - وهو من الغريب - هذه الأيام نقرأ - خصوصاً لأصحاب الشهادات العليا - آراء تقول: إن الدين الإسلامي لا يُكره الناس على ترك عقائدهم.

نعم، الدين الإسلامي لا يُكره الناس على ترك عقائدهم، أما الكفر فلا يسمى عقيدة، فالإسلام إذا دخل بلداً فيه نصارى أو يهود أو من عنده شبهة كتاب فلا يحملهم على ترك دينهم، بشرط أن يحافظوا على المواطنة الصالحة في الدولة الإسلامية.

فالإسلام إذن لا يُجبر على ترك العقيدة عند وجودها، لكن عند عدمها - كما في الإلحاد والكفر - فالإسلام يجبره ويكرهه، لماذا؟ لأن الإسلام يعتبر الملحد المعطل خطراً، أما صاحب الدين فليس خطراً؛ لأن عنده رادعاً وتربية دينية، يمنعانه من الاعتداء، فليس هناك دين سماوي يأمر بالاعتداء على الناس.

وقد يقول قائل: أليس هؤلاء اليهود وأذناب اليهود يشكلون خطراً كبيراً، مع أنهم أصحاب دين سماوي؟

فنقول: إن هذا الاعتداء والخطر من اليهود ليس من دينهم أبداً، فعقيدتهم لا تأمر بهذا الاعتداء، بل إن هذا الخطر له بواعث قومية ودنيوية أخرى، وليس هو

آتياً من الرسالة السماوية. وإلا فإتينا إذا رجعنا إلى الوصايا العشر، أو إلى التوراة غير المحرفة فلن نجد فيها ما يأمر بالاعتداء والتعالي على عباد الله، فالأديان السماوية لم تنزل إلا رحمة لكن هؤلاء حرّفوا، وهذا التحريف هو الذي خلق المشكلة.

ونحن نشكر الله تعالى على أن القرآن الكريم ليس فيه تحريف - أي أن النص الأصلي ليس فيه تحريف - لكن مع الأسف تسرب التحريف إلى التفسير، وإلا فالنصوص القرآنية كما هي، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَاقِظُونَ﴾^(١)، فهذا هو القرآن وهو ما بين الدفتين بلا زيادة ولا نقص. وآمل إن شاء الله أن تنتهي هذه التقولات التي تتهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن، وألا نسمع كل يوم من بعض الكتاب من يقول: هؤلاء الشيعة عندهم قرآن غير هذا القرآن!

ونتمنى أن يأتينا أحدهم بنسخة واحدة من هذا القرآن المزعوم، فنكون له من الشاكرين، وإلا فعليه أن يصحح ما في ذهنه من هذا الزعم. وها قد مضى (١٤٠٠) سنة ولم يحصلوا على نسخة واحدة من القرآن المزعوم عند الشيعة، فهل هو إلا في مخيلتهم وأفكارهم؟

يقولون لنا: توجد عندكم روايات تنصّ على التحريف، وينسون أن عندهم آلاف الروايات التي تقول بالتحريف^(٢)، لكننا لم نلاحقهم ونستبهم؛ لعلمنا أن عقيدتهم هي القول بعدم التحريف، وعدم الالتزام بهذه الروايات.

فالفكر الموضوعي ينبغي أن يحمل الناس على التصرف المسؤول، والتصرف المسؤول أُنْتي أتابع وأرى، فهل صحيح أنه يوجد قرآن يُعمل به غير هذا؟ أو أن

(١) الحجر: ٩.

(٢) مرّ مناقشة ذلك في ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ من كتابنا هذا.

الواقع غير هذا، وأن هناك شخصاً ما كتب ذلك في التاريخ فاتبعت قوله؟ وهل إن كل ما يكتب في التاريخ يتبع؟

وهناك في التاريخ ما تقرأه وتجزم به تماماً، ثم تجد من لا يلتزم بذلك، فمثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(١)، فقد ورد في تفاسير متعددة وموثوقة أن هذه الآية الكريمة نزلت في أهل بيت النبي ﷺ وهم علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ. ومن جملة من يذهب إلى هذا الطبري في تفسيره^(٢)، هذا التفسير الذي يصفه أحد العلماء بأنه تفسير لا يقبل المناقشة؛ ذلك أن الطبري صادق، وتفسيره لا ينقل إلا الأخبار الصحاح الموثوقة التي لا يتطرق إليها النقاش أبداً. ونسأل: هل يلتزم هذا بقوله؟ كلا فهو عندما يأتي لهذه الآية يقول فيها: ادعى البعض أنها نزلت في أهل البيت ﷺ، وباتفاق أهل العلم أن هذا كذب^(٣)!

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) جامع البيان، المجلد ١٢، ج ٢٢: ٩-١٣ / ٢١٧٢٧-٢١٧٣٩.

(٣) قال: إن الله تعالى لم يخبر أنه طهر جميع أهل البيت وأذهب عنهم الرجس، فإن هذا كذب على الله، كيف ونحن نعلم أن في بني هاشم من ليس بمطهر من الذنوب ولا أذهب عنهم الرجس؟ منهاج السنة ٤: ٢٥٩.

وله غير هذا الكثير، ومنه قوله: وأما سورة ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، فمن قال: إنها نزلت فيه وفي فاطمة وابنيهما فهذا كذب؛ لأنها مكية والحسن والحسين إنما ولدا في المدينة. ويتقدير صحته فليس فيه أن من أطعم مسكيناً ويَتِيماً وأسيراً أفضل الصحابة، بل الآية عامة مشتركة فيمن فعل هذا، وتدل على استحقاقه للشواب على هذا العمل مع أن غيره من الأعمال من الإيمان بالله والصلاة في وقتها والجهاد أفضل منه. مجموع الفتاوى ٤: ٤١٩.

وقد نقل ابن الجوزي في زاد المسير ٨: ١٤١ في مكان نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أقوال: أحدها: أنها مدنية كلها. قاله الجمهور منهم مجاهد وقتادة.

والثاني: مكية. قاله ابن يسار ومقاتل، وحكي عن ابن عباس.

والثالث: أن فيها مكيّاً ومدنيّاً. ثم في ذلك قولان:

والحال أن هناك عشرات الروايات في أنها فيمن ذكرنا. ثم يأتي هذا ويقول: «باتفاق أهل العلم». وهذا الذي نتكلم عنه ليس شخصاً عادياً، إنما هو ابن تيمية الذي يحتل مساحة كبيرة في المجتمع الإسلامي.

ونحن - كما قلنا - نريد أن نتعرف على مواضع الثغرات في فكرنا، لأن وحدة المسلمين أهم بكثير من قول الشيخ الفلاني أو العالم الفلاني، فالذي يهمنا ألا يُمزَّق مليار وربع مليار مسلم، بل أن يعيشوا تحت لواء «لا إله إلا الله». ولا يعني أن يأتي من يسكب حقه في تاريخ المسلمين، من أجل هدف ما.

إذن الآية الكريمة تقول للنبي ﷺ: المطلوب منك أن تقف في وجه هؤلاء الكفار، وتذرههم بأنهم إن لم يؤمنوا فسوف يتعرضون لعقاب شديد، وعذاب أليم. وقد يسأل سائل فيقول: لماذا هذا الإكراه؟ فالعلماني إذا أراد أن يحتفظ بعلمانيته، فما شأن الدين بذلك؟ وهؤلاء قد يتذرعون بذرائع مختلفة فيقولون مثلاً: إن أصحاب الأديان والعقائد يتناحرون فيما بينهم، فدعنا نبتعد عن عقائدهم لكي

أحدهما: أن المكي منها آية، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَفُورًا﴾، وباقيها جميعه مدني. قاله الحسن وعكرمة.

والثاني: أن أولها مدني إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾، ومن هذه الآية إلى آخرها مكي، حكاه الماوردي. وكذا نقل الشوكاني في فتح القدير ٥: ٣٤٣.

ويلاحظ أن القائلين بكونها مكية أقل عدداً من القائلين بكونها مدنية، وحتى الذين قالوا: إن فيها مكياً ومدنياً جعلوا الآيات الأولى منها مدنياً، والقسم الأكبر منها كذلك.

ثم إنه قال بعد أن نقل رواية التطهير موضوع المقام: والجواب أن يقال: إن الفضائل الثابتة في الأحاديث الصحيحة لأبي بكر وعمر أكثر وأعظم من الفضائل الثابتة لعلي.

ثم قال: والصحيح الذي فيها - أخبار مدح أمير المؤمنين عليه السلام - ليس فيه ما يدل على إمامة علي ولا على فضيلته على أبي بكر وعمر، بل وليست من خصائصه بل هي فضائل شاركة فيها غيره بخلاف ما ثبت من فضائل أبي بكر وعمر فإن كثيراً منها خصائص لهما لا سيما فضائل أبي بكر فإن عامتها خصائص لم يشركه فيها غيره. منهاج السنة ٥: ٧ - ٥.

نكون بعيدين عن هذا التناحر والعراك.

الجواب: أن هذا التناحر والعراك - كما قلنا - ليس بسبب العقائد، واختلاف الرأي لا يؤدي إلى العراك أبداً، والرأي العلمي لا يزعج، فلديك دليل ما، ولدي فلان دليل آخر، وهذا الدليل يقارع ذاك الدليل، وليس في ذلك بأس، لكن العراك يأتي من شيء خارج هذا. فليس مبرراً أن نقول: إن أصحاب العقائد يتناحرون، فدعنا نحن بعيدين عن الدين والتناحر.

والذي أريد هنا قوله: إن الآية الكريمة أرادت شيئاً مهماً وهو أن هذا العلماني، الخالي من الدين، سوف يبقى مادة قابلة لأن تتحول إلى أداة تدمير، بمعنى أنه أشبه شيء بالإنماء الخالي، الذي يمكن أن تملأه ماءً فيكون مفيداً، أو أن تملأه مخدرات وخمراً وسماً، فيتحول الإنماء إلى لعنة. والإنسان هكذا، إذا استطعنا أن نملأه بمفاهيم الخير فسوف نملؤه بالعطاء والأخلاق والإنسانية والتهذيب. وليعلم أنه ليس هناك من يأتي إلى الدنيا وهو شرير، وإنما الحضارة هي التي تصوغ الإنسان، مثلاً: ترى أحداً ولد في جو أخلاقي فنسمعه يقول:

إني غفرت لظالمي ظلمي	وشكرت ذاك له على علمي
ورأيت أسدى إلي يداً	لما أبان بجهد حلمي
رجعت إساءته إليه وإحـ	ساني فعاد مضاعف الجرم
ورجعت ذا أجرٍ ومحمدة	وغدا بكسب الوزر والإثم ^(١)

فهذا الشاعر يقول: إن هذا الذي ظلمني هو في الحقيقة إنما استثمر طاقات العفو عندي، فقد جعلني أعفو عنه، فشكرته؛ لأنه علمني كيف أكون حليماً، وما قابلت

(١) الأبيات لمحمود الوراق - شرح نهج البلاغة ١٨: ٢٧٨، وفيه: شكرت لظالمي ظلمي ... وغفرت ذاك له.

ظلمه؛ لأنني ارتفعت عن مستوى الحيوان.

فهذا قد نشأ في أجواء أخلاقية مثالية، فتبلور عنده هذا الرأي، وتكون عنده هذا الاتجاه، فطفع على لسانه هذا اللون من الكلام.
وترى شخصاً ثانياً ولد في بيئة مخالفة لهذه البيئة، فيقول:

إذا لم تكن ذنباً على الأرض أجرداً كثير الأذى بآلت عليك الثعالب

فهذا يختلف عن ذاك، لأن كلاهما نشأ في بيئة ربته تربية مختلفة. انظر إلى الفرد الأوروبي، فهو لا يعلم ماذا يصنع بنفسه، فيوماً يخلق رأسه، ويوماً يصنع له مثل عرف الديك^(١)، ويوماً يخرج عرباناً؛ فهو في فراغ ذهني لا يستطيع أن يعلاء بشيء من القيم أو الأخلاق أو الموجهات. وعلى كل حال فهو بشر إذا أُتيح له من يريه، فيمكن أن يستثمره أحسن استثمار.

ولذلك فهناك مسؤولية كبيرة على حملة العقائد والفكر في التبشير لهذا الدين العظيم الذي يعتبر ثروة ضخمة تربّي الإنسان.

أما إذا أُتيح لهذا الإنسان من يريّه على الشرّ والعدوان، فسوف يحوله إلى أداة تدمير. وهذا هو الشرّ في مكافحة الإسلام لمن لا عقيدة له، فهو خطر على الإنسانية، بل أداة تدمير.

الرأي الثاني: أنه خلّص عقل الكافر من ظلمه له

فهذا الكافر يظلم عقله على حد تعبير القرآن: ﴿إِنَّ الشُّرُكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)، لأنه عندما يجعل لله شريكاً، أو أنه لا يعترف بالله، فهو يظلم عقله وتفكيره والمقاييس كافة، فهذا الكافر يرى الدلائل العقلية أمام عينيه ثم لا يعترف بوجود خالق، إنه يعترف بأن السيارة لم توجد صدفة، وكل شيء أمام عينيه لا بدّ له من مهندس

وصانع، وتضافرت جهود كبيرة على صنع هذه المنتجات، ومع ذلك هو يقول: إن الكون وجد صدفة. مع أن هذه المليارات من المجاميع النجمية التي يكتشفها العلم يومياً، والتي تبعد عنا ملايين بل مليارات السنوات الضوئية.. هذه النجوم بما فيها من إبداع وإتقان صنعة، لا يمكن أن توجد صدفة، فإذا كانت السيارة الصغيرة لا بد لها من صانع فالكون أولى. انظر إلى قاع البحر، انظر إلى الأسماك، تجد في كل سمكة خريطة معينة من الألوان الجميلة، قف على حديقة بسيطة، وانظر إلى ألوان الورود الجميلة، واسأل نفسك: هل يمكن أن توجد هذه صدفة؟ لماذا لا يحدث شيء أمام أعيننا صدفة؟ لماذا لا يأتيك رغيف الخبز صدفة؟

فالكافر يظلم نفسه بهذا التفكير، ويظلم عقله، ويضيع أثنى طاقة لديه وهي العقل مع أن الدين يحاسب على تضييع الطاقات، فلو أنني رميت درهماً واحداً في التراب فإن الإسلام يحاسبني ويعتبرني سفيهاً، ويقول لي: هذه طاقة يمكن الاستفادة منها، فيُشبع جائعاً، أو يقضي حاجة، فلماذا رميته في التراب؟

فإذا كنت أحاسب على تضييع الدرهم الواحد وينعتني الشارع المقدس بالسفه، فكيف بمن يضيع العقل الذي هو ثمرة وجود الإنسان؟ كيف أعطل هذه الطاقات التي تدفعني دفعاً للاعتقاد بوجود الله ولا يحاسبني عليها؟ فكل الطاقات العقلية تدفع للاعتقاد بوجود الله، ولذلك نجد أن العباقرة في الدنيا كلهم يعترفون بوجود علة أولى لهذا الكون، وأنه لم يأت صدفة^(١).

إذن معنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾: قم ولا تضيع هذه الطاقة الفكرية التي عند الكافر، ولتجعل الناس يستفيدون منها.

(١) انظر كتاب الله يتجلى في عصر العلم لنخبة من كبار أساتذة العلوم في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

الرأي الثالث: أن طلب الراحة بالإنذار لا بالادثار

فمعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ هنا أنك عندما تتدثر فإنك تطلب الراحة بالتدثر، والراحة الحقيقية هي في الإنذار. ونحن نقول في أمثالنا: «اطلب الموت توهب لك الحياة»^(١)، فنحن مثلاً لا يمكن أن نحمي أوطاننا وبنينا، ونجعلها منتجة، دون تعب وعطاء. وقف أحد ملوك الأندلس يبكي بعد أن أخذوا ملكه واحتلوا بلده، فوقفت له أمه قائلة:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تدافع عنه دفاع الرجال

فالحياة لا تستمر لك إلا أن تعطي فيها؛ لأن العطاء هو الذي يولد الأخذ، فإذا لم تعط لا تأخذ، وانتظر ضياع طاقاتك وبلدك وكل شيء، ولكن إذا وقفت ودافعت وأعطيت فستأخذ أحسن النتائج. وقد علمتنا الحياة ألا تأخذ دون أن نعطي، فكل شخص عندما يريد أن يكسب فعليه أن يعطي أولاً ثم يحصل على نتيجة. وهو حينما يعطي من نومه، وراحته، ويتعب جسده، ويتحمل كلمة شديدة نابية، فإنما يتحمل كل ذلك من أجل أن يحصل على ما يطعم به نفسه وعائلته، فقد أعطى، ثم أخذ. فאלله تعالى يقول للنبي ﷺ: إن الطلب عن طريق الإنذار سوف يوصلك إلى نتائج كريمة وكبيرة.

وهذا حق؛ إذ لولا عطاء النبي ﷺ لما وصلتنا هذه النتائج العظيمة.. هذه النتائج التي لم نكن لنحصل عليها بغير جهاد النبي ﷺ وجهاد صحابته الرواد الأوائل الذين زرعوا الإسلام في الأرض فترعرع فيها ونما. فهؤلاء سقوا هذه الشجرة

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٢٧٣، ٧: ٣٠٥، غريب الحديث ٢: ٤٦، وقالت الخنساء:

نهين النفوس وهون النفوس س يوم الكريهة أوفى لها

ديوان الخنساء: ١٢٠.

المباركة بدمائهم وأتعايهم، فأعطوا ثم أخذوا وأعطوا للأجيال.

المبحث الثالث: في معنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وللمفسرين في هذا المقطع ثلاثة آراء أيضاً:

الرأي الأول: أنه افتتاح الصلاة

يقول المفسرون: إن الصلاة عندما فرضت، سأل الصحابة رسول الله ﷺ: كيف نعرف أنك دخلت في الصلاة؟ وما هو العمل الذي يجعلنا نعرف أننا خرجنا من الصلاة؟ فأجابهم ﷺ بأن الدخول في الصلاة بتكبيرة الإحرام، والخروج منها بالتسليم^(١).

ولا أريد هنا أن أذكر ما ينص عليه بعض المذاهب الإسلامية من كيفية الدخول للصلاة والخروج منها، لأن فيه نوعاً من التهريج والإساءة للذين أنزه المنبر عنهما، فأنت عندما تقرأ للغزالي في (المستصفى) حول صلاة أبي حنيفة، وكيفية الدخول بها والخروج منها، وكيفية الصلاة فستستغرب ذلك كثيراً. مع أن هذه المفارقات يذكرونها دون ذكر الدليل. وهذا - مع الأسف - هو نوع من التراشق بين المذاهب الإسلامية، فيرمي أحدهم الآخر برأي ويحمله لازم القول، فمثلاً يقول أحدهم: لماذا يجيز الإمام مالك أن يتزوج الرجل ابنته؟ في حين أن دليل مالك هو أن الولد للفراش، فلا يعتبر الولد ولداً لأبيه إلا أن يكون متولداً عن عقد شرعي والفراش هو العقد^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٦٢ - ٦٣، الدر المنثور ٦: ٢٨١.

(٢) انظر: المجموع شرح المذهب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (الرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني

(ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩.

وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٢٢٦ من كتابنا هذا.

نعم هناك خطأ في التطبيق، فمثلاً الإمام أبو حنيفة يقول: إذا غاب الزوج عن زوجته، وأخبرت زوجته أنه مات، فتزوجت وولدت ثم عاد الزوج الأول فإن هذا الولد هو للزوج الأول، باعتبار أن الفراش - وهو العقد الأول - لا زال مستمراً ولم ينتهِ^(١).

فهذا خطأ في التطبيق. فأنا عندما أذكر الرأي فعلي ألا أهرج وأسيء، بل علي أن أذكر الدليل، ثم أبين الأدلة المخالفة، وأستنتج أن هناك خللاً في التطبيق. فرأي الإمام مالك أن الولد للفراش فقط، أما الولد لغير فراش فهو أجنبي، فإذا اعتدى رجل على امرأة فولدت له بنتاً فهي أجنبية عنه، ويجوز له الزواج بها بهذا اللحاظ؛ فلا حرمة لماء الزنا.

فعلى المتعجب من فتوى الإمام مالك أن يذكر المسألة مع الدليل، أما إنه يهرج ويتعجب من فتواه، ويسيء إليه فهذا شيء مرفوض.

الرأي الثاني: أنه لا كبير إلا الله

فلا تعتبر أحداً كبيراً إلا الله؛ لأن كل كبير هو صغير عند الله، وكل من تعتقد أنه عظيم تراه في لحظة من اللحظات يحوّل إلى هباء منثور.

فتأمل هذا الجبار الذي يصغر خده، تمر عليه لحظة من اللحظات تراه يقلّب كالخرقة البالية، ورحم الله الشريف الرضي حيث يقول:

ومسئدين على الجنوب كأنهم	شرب تخاذل بالطلا أعضاء
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى	يوم المعاد يضيقهم أحشاء

(١) انظر المبسوط (السرخسي) ١٧: ١٦١، وله أيضاً كما في المجموع شرح المذهب ١٧: ٤٠٩ أنه إذا تزوج رجلان أختين فقلطا بهما عند الدخول، فزفت كل واحدة منهما إلى زوج الأخرى فوطئها وحملت منه فإنه لا يكون الولد للواطئ وإنما يكون للزوج.

أَكَلْتَهُمُ الْأَرْضَ الَّتِي وَلَدْتَهُمْ أَكَلَ الضُّرُوسَ حَلَّتْ لَ أَكَلَاؤُهُ^(١)

فالنسجة أن هذا الجسد تناولته الديدان تمزقه، وتعيث به كيف تريد، وهل هذا عظيم؟ يقولون: إن الإسكندر كان يمشي ووراءه جيش جرار، لا تسمع منه إلا صليل السلاح ووجيب الخيل وصككة اللحم، فوجد رجلاً جالساً يصلي في الصحراء دون أن يعبأ بهذه الجلبة فقد كان منغمراً في الدعاء، فأقبل عليه الإسكندر قائلاً: أما راعتك كثرة جنودي؟ قال: لا. فقال الإسكندر: لماذا؟ قال: كنت أناجي من هو أكثر منك جنوداً^(٢).

والدنيا الآن كلها مستنفرة من أجل فيروس صغير، وفي كل يوم يظهر فيروس جديد يتمرد على الدنيا، وهؤلاء قضوا على مرض السل وانتهت عصيات كوخ بالمضادات الحيوية، ثم استفحلت هذه المكروبات فصارت عندها مناعة ضد المضادات الحيوية. والعلماء الآن في حيرة، وجهد للعثور على مضادات أخرى. فانظر إلى ميكروب صغير لا يرى إلا بالمجهر يشغل العالم بأسره.

فآلية تقول: كل ما عدا ربك فليس بكبير، فكل كبير ينتهي إلى الصغر، تقول الرواية: «عظم الخالق عندك يصغر المخلوق في عينك»^(٣)، فالقوي الكبير هو الذي لا يحتاج ولا يعرض ولا يذل ولا يموت، وهو الله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٤).

الرأي الثالث: اجعل ربك أكبر من حاجات الإنسان

فالحاجات التي يفتقر إليها الإنسان كثيرة، حتى هذا الذي نسميه كبيراً فهو لا

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤.

(٢) قريب منه في شرح نهج البلاغة ١١: ١٥٨، تاريخ دمشق ١٧: ٣٥٥.

(٤) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

(٣) خصائص الأئمة: ١٠١.

يستغني عن الحاجة، فهو بحاجة إلى الصاحبة وإلى الولد، أما الله تعالى فليس بحاجة لهما ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾^(١).

فالإنسان يحتاج إلى الزوجة لإشباع غريزة وحاجة اجتماعية، ويحتاج للولد؛ لأنه يعتبره الامتداد الطبيعي له، وإذا كبر وأصابه العجز والوهن فإنه يضع يده على كتف أمه.

ومن المؤكد أن صاحبة إذا جمعت خصال الصحبة فليس من السهل على الإنسان أن يستغني عنها أبداً، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٣) يعني أنها جزء لا يتجزأ من النفس والكيان. وليس من شك أن المرأة الصالحة خير من الدنيا وما فيها، تقول الرواية: «ليس للمرأة خطر؛ لا لصالحتهن ولا لطالحتهن»^(٣).

فالطالحة لا تساوي شيئاً لأنها كلّها أذى، والصالحة تعدل الدنيا وما فيها، ومن سعادة المرء أن يرزق بالمرأة الصالحة، وهي تأخذ مكانة من نفسه لا تساويها مكانة أخرى.

ولهذا يقول المؤرخون عن أسماء لما دخل أمير المؤمنين عليه السلام في آخر مرة عاد فيها من المسجد: كانت سيدتي فاطمة عليها السلام مضطجعة في حجرتها، وفارقت روحها الدنيا، والإمام الحسن والحسين عليهما السلام جالسان عند رأسها يبكيان، فلما دخل أمير المؤمنين عليه السلام اشتدّ الوجد عليه. والذي يدل على هذا أن أبا ذر لما جاء إليه ودخل إلى الدار وأراد أمير المؤمنين عليه السلام حمل فاطمة عليها السلام، التفت إلى أبي ذر، وقال: «يا عم يا أبا ذر، أعني على حملها» ^(٤).

(١) الجن: ٢. (٢) الروم: ٢١.

(٣) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٢ / ١٦٠٤.

(٤) انظر: معاني الأخبار: ١/٣٥٦، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ٩٢/١٦٠، بحار

وهذا غريب؛ فعلي بن أبي طالب عليه السلام الذي يحمل باب خير ذا الثمانية عشر ذراعاً في عشرة أذرع والسُّمك ستة أشبار^(١)، يحمله ويقذفه ولا يحمل الزهراء عليها السلام؟ انظر كيف أخذت المصيبة منه. حمل أبو ذر طرفاً من الفراش وحمل أمير المؤمنين عليه السلام الطرف الآخر واستقبل بها قبر النبي صلى الله عليه وآله وقال: «السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة بجوارك، المختار لها الله سرعة اللحاق بك». إلى أن قال: «واختلست الزهراء عليها السلام، فما أقبح الخضراء والغباء^(٢)» أضجعها وقام بتجهيزها وأخرجها كما أوصته ليلاً عندما نامت العيون وهدأت الأصوات، فأوصلها إلى القبر، ثم جلس على شفير القبر:

مالي وقفت على القبور مسلماً قبر الحبيب فلم يرد جوابي
أحبيب مالك لم ترد جوابنا أنسيت بعدي خلة الأحباب

صد وضاعت بعينه الوسيعة نادى يا رسول الله الوديعه
ردت ليك والمهله سريعة

أرى عسل الدنيا علي كثيرة وصاحبها حتى العمات عليل^(٣)



(١) المسترشد في الإمامة: ٣٢٧.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

■ الأنوار ٤٣: ١٥٩.

(٢) الكافي ١: ٤٥٩/٣.

مسؤولية الفقهاء تجاه الأمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ
عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ
يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: حول التقبيح والتحسين

كل مقدور لله عز وجل ليس لازماً عليه أن يفعله، فالأشياء وإن كانت مقدورة له تعالى، لكنه لا يفعلها كلها، فمنها ما لا يفعلها لقبحها مع أنه تعالى قادر عليها. فهو تعالى قادر على أن يظلم، لكنه لا يظلم؛ لأن الظلم قبيح، والله منزّه عن القبيح. فهذه الأشياء التي ذكرتها الآية الكريمة كلها مقدورة لله تعالى، لكنه لا يفعلها؛ لأنها قبيحة لذاتها.

وهذه المسألة تسمى عند المتكلمين المسلمين بـ «القبح والحسن الذاتيين»،

وهي من المسائل التي وقع فيها النزاع بين المذاهب الإسلامية، وملخصها هو: هل إن الأفعال بذاتها توصف بالحسن والقبح، أم أن الحسن والقبح يدخلها من ناحية الدين؟ أو بصورة أخرى: هل هي قبيحة لذاتها أم أنها أصبحت قبيحة لأن الدين حرّمها؟ فبعض المذاهب يقول: إن القبح والحسن ليسا ذاتيين، فلو لا أن الله حرّم الكذب لم يكن به قبح ذاتي، وكذلك في كون الصدق حسناً. فالقبح والحسن في نظرهم شرعيان لا ذاتيان.

وهذا من المغالطات المخالفة للبيدهيات التي لا تحتاج إلى المناقشة، وذلك كمثّل وجود الشعاع في الشمس، فهو لا يحتاج إلى من يأتي ليبرهن على وجوده. فالأفعال فيها حسن وقبح ذاتيان.

وأحكام الشرع هي في الغالب إرشادية^(١)، فالمشرّع يرشدنا إلى حكم العقل باعتبار أنه سيد العقلاء. فالخيانة والكذب إنما نهانا الشارع عنهما لأنهما قبيحان، والصدق والأمانة إنما حثّ عليهما؛ لأنهما حسنان.

فالأفعال فيها حسن وقبح ذاتيان كما ذكرنا، ولو سئل شخص يعيش عيشة بدائية عن رأيه في السرقة لقال: إنها قبيحة، وكذلك قوله في الأفعال الأخرى. وهذا الرأي مفروغ منه عند الإمامية والمعتزلة، وكذلك عند بعض الفقهاء من المذاهب الأخرى كابن القيم الجوزية^(٢) وغيره^(٣)، وحتى عند المفكرين والفلاسفة

(١) وهي التي تقع مقابل الأوامر المولوية. (٢) انظر درء التعارض ٨: ٢٢، ١١٠.

(٣) انظر في كل ذلك: الذريعة: ٨٦ - ٩٢، العدة في الأصول ٢: ٥٦٣، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: ٨٦، المعتمد ١: ٣٣٥، الإحكام في أصول الأحكام (الآمدي) ١: ٣٧، أصول الدين (الجرجاني): ٢٥١، الاعتقاد (البيهقي): ١١٤، ١٢٤، مذاهب الإسلاميين: ٤٤٩، ٥٥٥، ٧٤٣، الإنصاف (الباقلائي): ٦٢.

من غير المسلمين، فالفيلسوف الإنجليزي «سبنسر» يقول: «إن في داخلنا قوة أدبية وفطرة خلقية تخبرنا بمواطن القبح والجمال في الأفعال بغض النظر عن أي منفعة أو أي مذهب».

فالآية الكريمة بيّنت أن الله تعالى وإن كان قادراً على كل شيء، لكنه لا يفعل ما يقدر عليه، إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك كالتأديب مثلاً، أو بناء المجتمعات، فإنه تعالى حينئذٍ يسلط على بعض عباده النعمة تأديباً.

المبحث الثاني: معنى العذاب في الآية

تقول الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، وللمفسرين في معنى هذا العذاب ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنه حبس المطر والنبات

فما كان من فوقنا فهو حبس المطر، وما كان من تحت أرجلنا فهو حبس النبات. فنحن نشرب الماء من الينابيع أو من الأنهار، والمدد الذي يمدّها هو المطر، فإذا انحبس المطر انحبس أصل الحياة؛ لأن الماء هو أصل الحياة^(١). وقد سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام فقال: إن لكل واحد من السوائل طعاماً، فما طعام الماء؟ قال عليه السلام: «طعمه طعام الحياة»^(٢).

والمطر من الأمور التي يكون فيها تخطيط وتسخير، لا كما يقول البعض من أنه مجرد عوامل طبيعية تحدث فتسببه. فلو كان مجرد العامل الطبيعي هو الفاعل فيها لما حدثت في مكان دون آخر، ولا في زمان دون زمان. فلا بد من يد مهندس من

(١) قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

(٢) الكافي ٦: ٢٨١/٧.

وراء ذلك التخطيط والتنسيق.

الرأي الثاني: أنه الصواعق والخسف والزلازل

فالعذاب الذي يكون من فوق الرؤوس هو من قبيل رمي الحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل، أو من قبيل الصواعق التي يصاب بها بعض الناس. أما العذاب الذي يكون من تحت الأرجل فمن قبيل الخسف والزلازل التي تبتلع مدناً بكاملها. وكل التعليقات العلمية التي تُقال عن حدوث الزلازل تتخرم في مناطق وتصدق في مناطق أخرى، فيبقى أن فوق كل هذه التعليقات يداً خفية هي التي تخطط وتريد.

الرأي الثالث: أنه جور الأمراء والغوغاء

فهذا الرأي معنوي في العذاب، وهو مروي عن ابن عباس، ويقول فيه: العذاب الذي من فوقنا هو جور الأمراء، والذي من تحت أرجلنا هو جور الطبقات التي تكون تحت أيدينا من الغوغاء والخدم^(١).

وهذه نظرية هامة؛ فلا تظن أن الله يعذب أمة أكثر من أن يرميها بأمير جائر ظالم؛ فكل أقسام العذاب يمكن تفاديها، لكن هذا اللون من العذاب يصعب تفاديه. ولو رجعت إلى تاريخ الأمم لوجدت أنها ابتليت بظلمة وجائرين كانوا من ألين سياط العذاب.

فالحاكم الجائر يفتك بالدماء والأعراض والكرامات. وعلى سبيل المثال نذكر أن أحدهم قام للحجاج وهو يخطب حتى غابت الشمس، فقال له: أصلحك الله، الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك. فقال له الحجاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧: ٩.

لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن^(١).

انظر إلى هذا الجبروت وهذه العجرفة والتفاهة، وانظر بالعكس إلى عظماء الناس كيف كانوا رحمة للناس، فالأنبياء أكرم الخلق على الله يقوم لهم سوقة الناس يكلمونهم بالكلام الغليظ، فيستقبلونهم برحابة صدر. سأل النبي محمد ﷺ أحد الأعراب أثناء توزيع الغنائم: «هل تراني عدلت؟» فقال: لا والله ما عدلت ولا قسّطت. فتألم الصحابة من هذا الرد، لكن النبي ﷺ دخل إلى الدار فأخرج حصّته الخاصّة له من الغنائم فأعطاهم للأعرابي، ثم سأله: «هل عدلت الآن؟». قال: أما الآن فنعم^(٢).

أما العذاب من تحت الأرجل على هذا الرأي فهو من الفوغاء والخدم، وأنا في الواقع أقرأ الكثير من الصحف، وأستمع إلى الكثير من وسائل الإعلام عن المآسي والمتاعب التي تسببها هذه الطبقة التي يسميها ابن عباس الفوغاء والخدم. وأنا آسف شديد الأسف على ما أراه من أن البعض يأتي بالخدم من الشباب إلى بيته، وليس في بيته سوى زوجته وبنته مثلاً.

وأنا أستغرب من أمثال هؤلاء أن يسمي نفسه مسلماً وهو يُيسّر لأسرته أن تنحدر إلى مستوى الرذيلة. وليس هناك من مبرر سوى أنه يمتلك بعض الدراهم التي تمكّنه من تدمير قيمه ودينه وأخلاقه. فما المانع من استخدام امرأة واحدة في البيت فتكون إلى جانب زوجته؟ على أن المرأة المستخدمة لا بد أن يعاملها على أنها أجنبية، لها زوج أجنبي، وأن يحذر أن ينتهي به الأمر يوماً إلى الرذيلة

(١) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأدباء ٢٣٩: ١.

(٢) لم نعر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

والانحدار؛ فذلك مما يغضب الله ويسخطه.

وهذا اللون من العذاب الذي يسببه هؤلاء نسمع به كل يوم؛ فهذا البيت قتلوا فيه أطفالاً^(١)، وهذا البيت اعتدوا به على بناته، وهذا البيت سرقوا منه أمواله، وذلك البيت أفسدوا أخلاق أهله، وهكذا. فهل تتصور عذاباً أكبر من هذا العذاب؟ إنه عذاب معنوي نشتره بأموالنا. فالمرابي الذي تأتي به إلى البيت مسؤول عن العقول. فإن انحرف العقل فمن يملك القدرة على إرجاعه إلى الصواب؟

المبحث الثالث: دور الاستعمار في خلق الشيع

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي يجعلكم طوائف ممزقة يعتدي بعضها على بعض. وهذا قسم من أقسام العذاب لا يقل عن القسم الأول، وهو التناحر بدوافع الشيع والطوائف. وهذه الظاهرة يستغلها الاستعمار دائماً، ويخلق بها ألف مشكلة ومشكلة وألف ذريعة للتدخل في شؤوننا. وهذا هو البلاء الذي تراه الآن أينما ذهبت،

وتعال إلى المذاهب الإسلامية وستجد من وراء الستار يداً خبيثة منكرة تحرك جماعة إما أن يكونوا بلهاء فتستغل بلاهتهم، أو أصحاب مصالح، يرددون كل يوم ما عفا عليه الزمن وانتهى. والمفروض أن الله تعالى جاء بالدين الإسلامي ليوحد المسلمين لا ليمزقوا فيذيق بعضهم بأس بعض، ويكون ذلك عن طريق القلم المسموم أو السلاح.

والفكرة تلعب دوراً مهماً في تحريك الإنسان، فالقلم يمكن أن يجعل من الأرض نعيماً ويمكن أن يجعل منها جحيماً. لذا فإن على القلم واللسان مسؤولية

(١) وقد نشر مؤخراً خبر قتل إحدى الخاديمات طفلة مخدومها الكويتي بعد أن أذاقتها شتى صنوف التعذيب.

كبيرة أمام الله، فمن يوضع تحت تصرفه وسيلة إعلام خطيرة كالتلفاز والإذاعة والصحيفة وغيرها يكن مسؤولاً مسؤولية كبيرة تجاه الله والأمة كلها خصوصاً عندما يتكلم في العقائد، فإنه إذا أراد أن ينقل عقيدة مذهب من المذاهب فعليه أن يرجع إلى كتبه المعتمدة.

فعلى العبارة المنقولة مسؤولية أمام الله والضمير والأجيال، فنحن نقدم الزاد للمسلمين، ويجب أن نقدم الزاد المغذي النافع لا الزاد السام.

وقفه مع محمد فريد وجدي

وحيثما تفتح كتاب (دائرة معارف القرن العشرين) للمؤلف المصري محمد فريد وجدي - وهو اسم لامع عاش في بلد حضاري هو مصر - فستقرأ في باب الشين عن الشيعة أنهم خمس فرق: الزيدية والإمامية والكيسانية والإسماعيلية والغلاة. وعندما نرجع إلى كتب التراجم نجد أن الكيسانية فرقة صغيرة كانت في أيام محمد بن الحنفية، ويعدّون منهم خمسة: السيد الحميري، وكثير عزة، وأبو عبد الله الجدلي واثني آخرين، والآن لو دُرت في أصقاع الدنيا كلها لما وجدت أثراً لكيساني.

ثم يأتي إلى الغلاة فيعدّهم من فرق الشيعة، في حين أن كتب الشيعة الإمامية كلّها تقول: لو أن واحداً نسب أحد الأئمة نسبة غير صحيحة، فأعطاه منزلة فوق منزلته، أو ادّعى له النبوة، أو ادّعى أنه شريك في النبوة، فهو كافر لا نرثه ولا يرثنا، ولا يجوز لنا تفسيره أو تكفينه إن مات. فهل هذه الفرقة من فرق الشيعة؟ وأين هي الأمانة العلمية التي يفترض أن تكون في مثل هذا الكتاب؟

إن هذه الكتب ما هي إلا قاذورات يجب أن تدفن أو تحرق، فالكتاب الذي يمزّق وحدة المسلمين بأشياء مختلفة تافهة يجب أن يرمى مع صاحبه في مزبلة

التاريخ. فهذه الكتب إن بقيت بقي معها التناحر والفرقة. يقول الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا ستبقَى عساقتُهُ وإن قُيّمتْ يَدَاهُ

فلا تكتبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ يسُرُّكَ في القيامة أن تُراه

ثم يعدُّ صاحب (دائرة المعارف) المشبهة من فرق الشيعة، وهذه كتبنا بأجمعها بعيدة كل البعد عن التشبيه، وليس المشبه إلا غيرنا من الفرق الإسلامية، وروايات الشيعة تقول: «من شبه الله بخلقه فهو مشرك»^(١). وليس عندنا من يقول: إنه يجلس فيئطُ العرش من تحته^(٢)، أو من يقول: إن عرضه ثمانية أشبار، أو من يقول: إن طوله ستون ذراعاً^(٣).

إن هذه الأمة الكبيرة فيها من هو مخطئ أو مخرف أو من عرضت له شبهة أو من هو مدسوس، فلا يصح أن تنسب أي رأي نجده إلى الفئة التي ينتمي إليها صاحب الرأي فنحملها تبعه رأيه هذا أو أي رأي منسوب إليها وليس هو لها. وسوف يسألنا الله تعالى عن ضريبة الفكر، وهي التثبت والتأكد: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٤). فهل من المعقول أن يسألنا الله تعالى يوم القيامة عن درهم واحد يضيع ولا يسألنا عن أمة بكاملها تضيع وتلوّث عقليتها؟

كان محمود بن سبكتكين حاكماً على المشرق، وكان على المذهب الحنفي ثم انتقل إلى المذهب الشافعي على أساس مناظرة بين الصلاتين في المذهبين، وهذه

(١) التوحيد: ٦٩ / ٢٥.

(٢) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، الدعاء (الطبراني): ٥٩٧، وغيرهما كثير.

(٣) صحيح البخاري ٧: ٢٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩.

(٤) الإسراء: ٣٦.

المناظرة يذكرها محمد فريد وجدي نفسه في دائرة معارفه التي ذكرناها في مادة «سبك».

وعندما تقرأ المناظرة لا تحس أن هذين مذهبين يتناظران، إنما تقرأ عن فئتين تتناحran، وهذا ليس له موجب أبداً، وليست هذه روح الإسلام، فلو فرضنا أن الفقيه أخطأ في بعض التطبيقات فلا يصح أن نهرج عليه، إنما يجب أن نقيمه تقييماً علمياً بالأسلوب الإسلامي المؤدّب. وقد كان أئمة المسلمين يحملون هذا اللون من الخلق في مقابلة الإساءة بالصفح أو بمثلها في أسوأ الأحوال.

كان عمر بن عبد العزيز يوماً يجلس إلى جانب سليمان بن عبد الملك أيام خلافة سليمان، فجيء بأحد الخوارج - وهم معروفون بالصلابة - وأدخل على سليمان، فأراد سليمان أن يهيجه، فقال له: ما تقول في الحجاج؟ قال: يأتي يوم القيامة عن يمين أهلك، وعن شمال عمك. فأطرق سليمان، ثم قال للخارجي: أنا أكلّمك، فلم لا ترفع رأسك إليّ؟ قال له الخارجي: إني أكره النظر إلى وجه يكره الله النظر إليه.

فغضب سليمان، ثم التفت إلى عمر بن عبد العزيز قائلاً: ما تقول؟ قال: اشتبه كما شتمك، وإلا فاصفع عنه.

هذا هو الخلق الإسلامي الذي يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَخْسَنُ﴾^(١)، أما التهريج فليس من الإسلام في شيء، حتى لو كان الدافع هو الغيرة على الإسلام، فهذا يقتضي نقد الرأي العلمي في حدود الآداب، لا بالتهريج. واعلم أن كل من تجده يهرج فهو إنسان فارغ لا يملك إلا بضع كلمات من العلم، بل هو لا يملك من العلم شيئاً، وإلا فإن من يحمل العلم الصحيح لا يهرج

أبدأ. فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد خلقاً وتواضعاً.

المبحث الرابع: معنى قوله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَقَهُونَ﴾، وتصريف الآيات هو ضرب الأمثلة من المعنويات أو الحسيات، لأجل التربية والتوجيه. فالقرآن يريد أن يبين لهم الأمثلة والشواهد، وينقل لهم القصص، ويضع أيديهم على الواقع كي يتأدّبوا بأدابه.

لكن الحشوية يقولون في هذه الآية: إنها أوجبت علينا أن نمتنع عن النظر والاستدلال، بمعنى أننا لا نشغل عقولنا وأفكارنا في تحليل الآيات، وعلينا أن نقنع بالظواهر فقط. والسبب هو أن تحليل الآيات وتشغيل العقل في ذلك يؤدي إلى الاختلاف، فعلينا أن نسد هذا الباب منعاً للاختلاف.

وهذا رأي أعوج واضح البطلان، وهو أشبه برأي بعض المذاهب الاجتماعية المعاصرة التي تقول لأتباعها: إياكم أن تقتربوا من الكتب الصفراء، فهي تسمم عقولكم. ويعنون بـ(الكتب الصفراء) الكتب الدينية. في حين أن الكتاب مهما كان فإنه لا يخلو من فائدة، وكلما قرأ الإنسان أكثر انتفع أكثر، بشرط أن تكون عنده القابلية على هضم معلومات الكتاب الذي يقرأه.

كنت يوماً في جلسة قبل الغروب في مصر الجديدة مع المحقق المعروف الأستاذ محمد شاكر، بحضور الأديب يحيى حقي، ومندوب صحيفة الجمهورية الذي كنا ضيوفاً عنده، فسألني المندوب قائلاً: ما هذه النظرية التي نسمعها عنكم وهي الخمس؟ قلت: إنها نظرية أوجبها علينا القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا

أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَانَ لِلَّهِ خُفُسُهُ ^(١).

قال: هذه في غنيمة الحرب. قلت: إنَّ صرف معنى الآية إلى غنيمة الحرب هو من باب تطبيق الكلِّي على أحد مصاديقه، وذلك مثل لفظة الماء الذي يصدق على ماء البحر والنهر والماء في الإناء وغيره. فالغنيمة من مصاديقها ما يغنمه الإنسان في الحرب، ومن مصاديقها ما يحصل عليه الإنسان من أرباحه في التجارة وغيرها. وكل ربح هو غنيمة ^(٢). هذا من جانب، ثم لماذا تأخذون برواية عن مروان، ولا تسمحون لنا بأخذ رواية عن الإمام الحسن أو الإمام الحسين عليه السلام أو عمار بن ياسر أو جابر الجعفي أو غيرهم؟

ثم سألته: كم عندك في مكتبتك من كتب الشيعة؟ قال: فيها بعض الكتب. قلت: تعال إلى مكتبي، فستجد أن ٩٩٪ من كتبها من كتب السنة، فلماذا لا تكلفون أنفسكم وتقرؤون كتبنا، وهي ليست بعيدة عنكم؟

إن الاختلاف العلمي لا يخلق مشكلة، خذ مثلاً تحديد معنى السكران الذي يقام عليه الحد عند المذاهب الإسلامية؛ فعند أبي حنيفة أنه الذي لا يميّز الأرض من السماء، ولا الرجل من المرأة ^(٣)، وعند مالك أن السكران هو الذي لا يعقل ما يقول وما يفعل، وعند الشافعي أنه الذي يتكلّم ويخطب على غير العادة ^(٤)، فهل في هذا الاختلاف ضير؟

خذ مثلاً آخر، فلو أن أحداً يُشَمُّ من فمه رائحة الخمر، ولم يعترف بشربها، هل يقام عليه الحد أو لا؟ اختلف الفقهاء هنا؛ فأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل يقولون:

(١) الأنفال: ٤٠. (٢) غريب الحديث ١: ٤٦ - الغنيمة.

(٣) انظر: البحر الرائق ٣: ٤٣١، ٥: ٤٦، ونسبه في الأخير إلى المذهب، حاشية رد المحتار

(٤) انظر جواهر العقود ٢: ١٠٢. (٤) ٣٢٢: ٢.

لا يقام عليه الحد^(١)، في حين أن رأي مالك أنه يقام عليه الحد^(٢). فهل ترى في مثل هذا الاختلاف بين هؤلاء الفقهاء موجباً للنزاع وتهريج بعضهم على بعض؟ إن الاختلاف لا يمكن منعه حتى في المذهب الواحد، فقد يختلف فقهاء المذهب الواحد في المسألة المعينة، وليس في ذلك من بأس. فلو أنك سافرت مثلاً وقت الأذان ولم تصل، ثم أدركك الوقت في الطريق وخفت أن يفوتك وأردت الصلاة، فهل تصلي قصراً أو تماماً؟ يقول بعض فقهاءنا: إنه خوطب بالصلاة في أول وقتها، فيجب عليه أن يصلي تماماً، وقال بعضهم: إن وقت الخطاب هو الوقت الذي يريد به إقامة الصلاة، وعلى ذلك فيجب عليه القصر لا التمام.

وكذلك في مسألة شروط الإمام، فعند المذاهب الإسلامية أنه يشترط في الإمام العدالة، وعند الإمامية أنه يشترط فيه العصمة^(٣). والنتيجة واحدة وهي أنه لا يرتكب الخطأ.

وهذا الخطأ لا يوجب النزاع كما ترى، بل النزاع يأتي من الغلّ والحسد والحقد والمصالح والنفوس اللثيمة، وخبيث العقيدة، أما النظرية العلمية فلا تسبب ذلك^(٤)؛ ولهذا يقول القرآن: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، أي عليهم أن يفهموا المسائل العلمية بروح العلم والفقه، فالعلم لا يؤدي إلى النزاع. وقد أمرنا الله تعالى أن نعصم من هذه الأسباب التي تسبب لنا العذاب بحبل

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١١: ٢٠١

(٢) انظر: المغني ١٠: ٣٣٢، الشرح الكبير ١٠: ٣٢٥.

(٣) شرح أصول الكافي (المازندراني) ٥: ٢١٢.

(٤) قال الشاعر:

الله: ﴿وَاغْتَصِبُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، وحبل الله هو الذي يشير إليه الشافعي بقوله:

ولما رأيت الناس قد ذهب بهم مذهبهم في أبخر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا وهم آل بيت المصطفى سيد الرسل
وامسكت حبل الله وهو ولاؤهم عما قد أمرنا بالتمسك بالحبل^(٢)

هذا الحبل الذي أوصى به النبي ﷺ في حديث الثقلين بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتن بهما لن تضلوا بعدي أبداً ولقد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(٣).

ولكن انظر إلى الثقلين؛ فالكتاب نبذته أمية ومزقته^(٤)، وأما العترة ﷺ فأضحوا ضحايا على وجه الثرى، يقول الشريف الرضي رحمه الله:

يا رسول الله لو عاينتهم وهم ما بين قتل وسبا
من رميض يمتنع الظل ومن عاطش يسقى أنابيب القنا

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار ٢٩: ٧٧، رشفة الصادي: ٢٥.

(٣) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدرامي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

(٤) كما فعل الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قال الترطبي: وحكى الماوردي في كتاب (أدب الدنيا والدين) أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاعل يوماً في المصحف فخرج له قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إبراهيم: ١٥، فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فلها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جنت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث إلا أياماً حتى قتل شر قتلة، وصلب رأسه على قصره، ثم على سور بلده. الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٥٠.

ومسوق عاثر يسعى به إثر محمول على غير وطأ^(١)

هذا المسوق العاثر استخلصه الشريف الرضي عليه السلام مما حدث في كربلاء، يوم جيء بالنياق الهزّل، ونودي: هلّمن يا بنات عبد المطلب، فخرجت أخت الإمام الحسين عليه السلام ونظرت إلى النياق فرأتها قليلة لا تكفي للعائلة ومن معها من نساء بكر ابن وائل، ونساء بني حنظلة وبني أسد وغيرهن، فراحت تُركب النساء الأجنبية حتى إذا انتهت وقع المشي عليها وعلى أخواتها، فمشت حتى قاربت جسم الإمام الحسين عليه السلام فصاحت: «أودعتك الله السميع العليم، والله لو خيروني بين المقام عندك أو الرحيل عنك لاخترت المقام عندك ولو أن السباع تأكل من لحمي»^(٢).

أخشي ما عودتني منك الجفا فعلام تجفوني وتجفون من معي

انعم جواباً يا حسين أما ترى شمر الحنا بالسوط ألهب أضلعي



مصادر العظة والعبرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَغْفِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا
فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: طبيعة العبرة

جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى: ﴿ فَتَأْتِيَن مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ
فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ مُعِطَلَةً وَقَصِيرَ مَشْيِدٍ ﴾^(٢)، فبعد أن ذكرت هذه الآية
أن الله تعالى أهلك بعض المناطق بأهلها، وترك آثارهم على الأرض، أمرتنا الآية
الثانية - آية المقام - أن نتجول في الأرض لأخذ العظة والعبرة. ومصادر العظة
والعبرة والثروة العقلية إما أن يأخذها الإنسان عن طريق المطالعة والقراءة، أو عن
طريق البصر وسائر الحواس التي تعتبر سبلاً للمعرفة.

والتجول في الدنيا يعتبر قراءة لكتاب الله التكويني؛ فنحن لدينا كتاب تدويني

وهو الكتاب المكتوب، وكتاب آخر تكويني، وهو الدنيا بما فيها من آثار وبشر وعادات ومعارف وأخلاق. وقراءة الإنسان لهذا الكتاب تزيد اطلاعاً ومعرفة وثروة عقلية.

المبحث الثاني: حجة ظواهر القرآن

فهذه الآية حُتَّ على السفر، لكن المقطع الأخير فيها - كما عن ابن عباس ومقاتل - يروى أنه نزل في ابن أم مكتوم الأعمى، وملخص قصته أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي مِذَّةِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: روعي فذاك، أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت الآية تبين أن العمى في الآية ليس عمى البصر إنما هو عمى القلب^(٢).

ومعنى هذا أن في القرآن الكريم آيات لا يمكن حملها على ظاهرها، بل لابد من تأويلها، فظاهر القرآن حجة عند جميع المسلمين بلا شك، ولكن الظاهر لا يمكن أحياناً حمله على ظاهره المحض، وذلك مثل لفظة أعمى، فإن ظاهرها العمى البصري، ولكن هل يمكن حمل ذلك على الظاهر؟ لأن المبتلى بالعمى في الدنيا هل يعقل أن يأتي يوم القيامة كذلك؟ وهل ارتكب ذنباً لأنه أعمى؟ فلا يمكن في مثل هذه الآية الحمل على الظاهر.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هناك موارد تضرنا إلى الانتقال من الظاهر إلى تفسير آخر، فمثلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٣)، فظاهر لفظ الكوثر هو عين الماء، ولكن سبب نزولها هو أن

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٧٧.

(١) الإسراء: ٧٢.

(٣) الكوثر: ١ - ٣.

العاص بن وائل وجماعة قالوا: إن محمداً أبتر لا نسب له، فنزلت الآيات^(١).
فالمقصود بالكوثر هنا فاطمة^(٢).

فنحن لا ننصرف عن ظاهر الآية اعتباطاً، وإنما نعتمد على روايات كثيرة
معتبرة، خصوصاً إذا جاءت هذه الروايات عن أهل بيت العصمة^(٣).

وقد سمعت أحد الوعّاظ ينتقد القول الذي يذهب إلى تفسير اللؤلؤ والمرجان
في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٤) بالحسن والحسين^(٥). ولكننا
لا نأتي بكلام من عندنا، إنما ورد هذا التفسير في رواية^(٦). ثم إن هذه مجرد
رواية غير قطعية عندنا، وليس فيها حكم شرعي، إنما يأتي اعتبار هذه الرواية من
باب ما يسمى عند علماء الأصول بـ«التسامح في أدلة السنن»^(٧).

وكمثال على ما نقول انظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾^(٨)، فهناك من العلماء من يفسره على أن من هؤلاء الثمانية أبو
حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل ومالك، فهل نأتي نحن بالمقابل ونصف تفاسير
المسلمين بأوصاف لا تليق بها اعتماداً على هذه الرواية؟ فاللائق بالعلماء أنهم
عندما يجدون عند غيرهم رواية شاذة غير معتد بها، ألا يتشبهوا بها ويهزجوا على

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٥٩، أسباب نزول الآيات: ٣٠٧.

(٢) بحار الأنوار ٨٧: ٣٤٩، تفسير غريب القرآن: ٢٧٥.

(٣) الرحمن: ٢٢.

(٤) تفسير القمي ٢: ٢٤٥.

(٥) إن قاعدة التسامح في أدلة السنن تعني إعمال المسامحة والمساهلة بالنسبة إلى سند
الروايات الدالة على الحكم الاستحبابي، فكل رواية أفادت حكماً مستحباً إذا كان في
سندها ضعف فإنها لا تترك ولا تسقط عن الاعتبار؛ وذلك لا لأجل كونها حجة معتبرة، بل
على أساس التسامح في أدلة السنن الثابت بالدليل الخاص.

(٦) الحاقة: ١٧.

أصحابها. فالمسلمون كلهم عندهم العشرات من أمثال هذه الروايات، لكن لا يمكن أن يؤخذ مذهب ما بروايات ضعيفة جاءت عند بعض أفرادهم، فليس هذا هو الأسلوب العلمي.

ضرورة التأريخ للألفاظ قبل التعامل معها

ويقول الكثير من المفسرين من غير الإمامية: إن الله تعالى عاتب النبي ﷺ من أجل ابن أم مكتوم، وذلك في سورة ﴿عَبَسَ﴾، بقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(١) فقد روت هذه التفسير أن النبي ﷺ كان جالساً وإلى جانبه كبار شخصيات قريش، فجاء ابن أم مكتوم وأراد أن يسأل النبي ﷺ، فأدار النبي ﷺ وجهه عنه، ولم يكن ذلك تكبراً من النبي ﷺ وإنما تراحم عنده ﷺ المهم والأهم، فقدّم الأهم. وهذه الرواية وإن لم تكن مروية عندنا، لكنني لا أرى بها بأساً، فليس فيها قدح بذات النبي ﷺ أبداً.

وألفت النظر هنا إلى شيء مهم ألا وهو أن بعض الألفاظ التي نقرأها اليوم في القرآن لو أردنا أن نؤرخ لها فإنها لا تُعطي المعنى نفسه الذي كانت تعطيه أيام النبي ﷺ، فنحن قد نفهم اليوم من لفظ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ معنى غير المعنى الذي كان على أيام النبي ﷺ؛ إذ نحن نفهم منهما أن فيهما شيئاً من الشدة وعدم الخلق. فعندما نريد أن تناقش نصّاً أو رواية فلا بدّ من أن نفهم أولاً ما المعنى الذي كانت تفيد هذه الكلمة أيام صدورهما، فنرجع إليه.

وكمثال على هذا فإن هناك جماعة ينتقدون (نهج البلاغة) مدّعين أن فيه ألفاظاً لم تكن معروفة في زمن علي عليه السلام وإنما عُرفت في زمن ترجمة الكتب الفلسفية

أوائل العصر العباسي، وذلك مثل لفظة «الْحَدَّ» أي الحد المنطقي وهو التعريف، أو «الأزل» أي قَدَم الزمان. وهذا الادعاء بمعناه الفلسفي صحيح، لكن هذا لا يعني أن هذه الألفاظ لم تكن موجودة في أيام النبي ﷺ أو أمير المؤمنين عليه السلام، فهي كانت موجودة لكنها تستخدم بمعناها اللغوي لا الفلسفي. فالحد يستخدم في الفاصل بين الشيئين، قال تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾^(١)، فاستخدمها الإمام علي عليه السلام بمعناها اللغوي. فعليه يجب أن نعطي للكلمة معناها الذي كانت عليه أيام صدورها.

ومثل ذلك فإن لفظتي ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ لا تعطيان في زمن النبي ﷺ المعنى المكروه الذي نعرفه نحن اليوم ويتبادر إلى أذهاننا منهما.

ومثل ذلك أيضاً كلمة «صدقة» التي نفهم منها اليوم ما يخرج من المال ليعطى إلى الفقير، ولم يكن هذا هو معناها في القرآن الكريم أيام النبي ﷺ إنما كان معناها «الضريبة»؛ ولذلك لو منع الإنسان منها فلساً فإنه يقاتل عليها، فهل يقاتل على مستحب؟ فما يروى إذن من كون هذا المعنى نزل في النبي ﷺ أو لم ينزل ليس فيه الكثير من الحساسية.

المبحث الثالث: السفر قراءة لكتاب الله المفتوح

قال تعالى في صدر الآية: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، فهذه الآية تحت على السفر؛ لأن فيه قراءة لكتاب الله المفتوح. ولذا يقول النبي ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله بالمسافر لكانوا على ظهر سفر، إن الله بالمسافر رحيم»^(٢).

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) كشف الخفاء ١: ٢٥٤ / ٧٨١، ٢: ١٥٨ / ٢١٠٤.

والسفر نوعان: سفر معصية وسفر طاعة. فسفر المعصية لا يعنينا أمره هنا، وهو ليس من مواضع الرحمة؛ ولذلك شرع للمسافر في مثل هذا السفر إتمام الصلاة إن كان يصلي^(١). أما سفر الطاعة فيرحم الله فيه المسافر حتى في قصر الصلاة. وهذا على رأي الإمامية في كون القصر في السفر عزيمة^(٢) وليس رخصة^(٣) كما هو عند المذاهب الإسلامية الأخرى.

أقسام سفر الطاعة

وسفر الطاعة تنعريه أربعة من الأحكام الإسلامية: الوجوب والاستحباب والإباحة والكراهة، أما الحرمة فتعري سفر المعصية كما هو واضح.

١ - السفر الواجب

فالسفر يكون واجباً فيما إذا كان فراراً بالدين مثلاً، فإذا كان المسلم في مكان لا يستطيع أن يمارس طقوسه الدينية فيه بشكل طبيعي فإنه يجب عليه أن يسافر فراراً بدينه؛ لأن حفظ الدين واجب، ومقدمة الواجب واجبة^(٤). قال الرسول الأكرم ﷺ: «من فر بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبراً وجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد ﷺ»^(٥).

وقد هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة فراراً بدينهم من قريش، ثم كانت الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة. وكانوا يتحملون أشد الظروف وأقساها؛ من وعثاء السفر، وبعد المسافة وغير ذلك.

(١) الخلاف (الطوسي): ١: ٥٦٧ / المسألة: ٣١٩.

(٢) شرائع الإسلام ١: ١٠٢. (٣) تحفة الفقهاء ١: ١٤٩.

(٤) انظر الوافية: ٢١٩ - ٢٢٢.

(٥) مجمع البيان ٣: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤٧.

ومن السفر الواجب السفر لحفظ النفس، كأن يطلبه ظالم ليقتله، ذلك أن حفظ النفس واجب، ومقدمة الواجب واجبة كما مرّ. ومنه أيضاً ما إذا كان الإنسان مضطراً لإعالة أهله، ولا يستطيع أن يوفر لهم لقمة العيش أبداً إلا عن الطريق السفر، فإنه يجب عليه حينئذٍ.

٢ - السفر المستحب

أما موارد السفر المستحب فمنها خروج الإنسان في طلب المعيشة والرزق. وقد يكون هذا القسم من السفر واجباً كما مرّ، أما إذا لم يكن مضطراً ولكن كانت هناك شدة وضيق فيكون السفر هنا مستحباً. فليس للمؤمن أن يذل نفسه، وليس هناك ذل أكبر من الفقر. دخل أحد الأعراب يوماً على أطفاله فرأى على وجوههم البؤس والفقر، فقرّر أن يسافر ليوثّق عليهم في الرزق، وهنا أصبح بين محذورين: الأول الفقر، والثاني مفارقتهم وبعده عنهم، فالتفت إلى زوجته قائلاً:

عُدِّي السنينَ لِفقْدِنَا وتَضْبُرِي وذري الشُّهورَ فإنهنَّ قِصارُ

فقلت له:

اذْكُرْ ضيائنا إليك وشوقنا وارحمِ بسنايكِ إنهنَّ صِغارُ

فترك السفر، وفضل أن يبقى مع قلة العيش على أن يفارق أهله^(١). ولا شك أن الإنسان إذا فارق أطفاله فإنه يبقى ممزّق الشخصية، يحن إليهم، فهو كالموزّع قلبه، قطعاً في كل مكان. خرج أبو الطمحان القيني إلى القتال جندياً، فلما بلغ الري بقي فيها زمناً طويلاً، وكان أطفاله في العراق، فخرج ذات يوم فرأى حمامة تزقّ

(١) مجمع الأمثال ٢: ٢٢٤، الأغاني ٢: ١٧٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٩٤.

فراخها، فهزّه المنظر وهاجه، فقال:

أفـا للـئـلـى مـن أوبـة فـخـريـح	أفـي كـلّ يـوم غـربـة وئـزوح
قـهل أـزـيـن البـيـن و هـو طـليـح	لـقـد طـلح البـيـن الفـشـيـد رـكـائـبي
فـنـحـت و ذـو الشـجـو الشـديـد يـنـوح	وأـرـقـنـي بـالـريّ نـسـوح خـفـامـة
وئـحـت واذراء الذـمـوع سـفـوح	عـلـى أـنـها نـاخـت و لم تـذـر دـمـعة
و ما بـيـن أـطـفـالـي مـهـامـة فـيـح ^(١)	و نـاخـت و طـفـلـا مـا بـحـيـث تـرا مـا

فموضوع السفر في طلب الرزق ومفارقة العيال ليس سهلاً، ولكن لو دار الأمر بين الشفقة على الأطفال وبين الوقوف على أعتاب الناس، فليس للمؤمن أن يذل نفسه، فيسافر طلباً للمعيشة.

ومن موارد السفر المستحب السفر في طلب العلم، وقد كان علماءنا يقطعون آلاف الأميال في طلب حديث واحد من أحاديث النبي ﷺ يأخذونه عن أحد العلماء أو الرواة.

٣ - السفر المباح

أما السفر المباح فمن موارد الترويع عن النفس، ولعله يكون أقرب أقسام السفر إلى النظر في كتاب الله المفتوح؛ لما عليه الإنسان حينها من راحة نفس وعدم انشغال باله بمشاكل الحياة.

٤ - السفر المكروه

ويعتبر السفر مكروهاً فيما إذا كان يعرض الإنسان إلى الغربة والضياع والذلّ

(١) تاريخ بغداد ٩: ٤٩٣، تاريخ مدينة دمشق ٢٩: ٢٢٧-٢٢٨، معجم البلدان ٣: ١١٩، وفيها أنها لأبي معلوم.

من غير فائدة ترجى.

فالأية تدفع الناس إلى السفر، لأن في السفر قراءة لكتاب الله المفتوح، فالمسافر يطلع على الشعوب وعاداتها وتقاليدها ومعارفها، فينمي ثروته العقلية.

المبحث الرابع: كيف نستفيد من تجارب الغير

ثم انتقلت الآية إلى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾، والقرآن يعبر عن العقل بالقلب، وهذا اصطلاح العرب في هذه المسألة وإن كنا إلى الآن لا نعلم هل إن مركز العقل هو الشبكة العصبية في المخ أو إنه القلب، فالعلم اليوم يذهب إلى أن مركز العقل هو الشبكة العصبية، وقد يأتي رأي آخر للعلم في المستقبل يدحض هذا الرأي، فقد كانت الكثير من الآراء إلى عهد قريب تعتبر من المسلمات والحقائق، لكنها مسخت وأصبحت خرافة.

وقد ورد في الآية قيد للعقل وهو أن يعقل الإنسان به، فما الداعي لهذا القيد؟ الغرض من هذا القيد هو أن بعض الناس يمتلك عقلاً غير أنه قد جمّده، فلا يفكر به، أي أنه جعل عقله في أذنه، يردد ما يسمع دون وعي أو تفكير. سألتني أحدهم يوماً: هل صحيح أنكم في اليوم العاشر من المحرم تأتون ببقرة تطعنونها بالسكاكين وتقولون: إن هذه أم المؤمنين عائشة؟ فقلت له: أسأل الله لك العافية، وأسأله لمن أعطاك هذه المعلومة أن يعافي مخه، فأنت تعيش معنا وترانا ماذا نفعل في اليوم العاشر، فأين رأيت هذا؟ إن أمثال هذا السائل يفكر بأذنه لا بعقله، ورحم الله الشاعر شوقيًا:

يَالَهُ مِنْ بَهَاءِ عَقْلِهِ فِي أَذْنِهِ

فمن الناس من يصدق ما يسمع من الروايات دون أن يسأل نفسه: هل إن هذه

الروايات معقولة أو لا؟ لقي أحد الأشخاص يوماً أبا الشمقمق جالساً على الجسر وهو يأكل، فسأله: لم تأكل في الطرقات؟ إن الأكل في الطرقات يذهب المروءات، أما تستحي من هؤلاء الناس؟ فقال له: وهل هؤلاء ناس؟ قال: فماذا إذن؟ قال: انظر ماذا أفعل. فصعد على عمود من أعمدة الجسر، فلما رآه الناس يوشك أن يسقط تجمعوا. فلما كثر عددهم صاح: أيها الناس، حدثني فلان عن فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: من أخرج لسانه فوصل أرنبة أنفه دخل الجنة. فراح الناس الواقفون يخرجون ألسنتهم ويجربون ذلك، فقال أبو الشمقمق للرجل: هل ترى أن هؤلاء أناس؟

إن أمثال هؤلاء الناس أمانة في عنق من يفهم ويعقل، ففي نفس الفرد منهم قداسة للكتاب والحديث النبوي ورجل الدين، فهم أمانة في عنق من يعقل ويفهم. فالآية تريد من المسافر في الأرض أن يكون له عقل يفقه به، وأذن يسمع بها الكلمة الطيبة.

وتحضرني هنا حادثة هي أن عبد الملك بن مروان سافر يوماً مع رفقة له، وكان عبد الملك أديباً واسع الاطلاع والمعرفة، وكان بعيد الغور عميق التفكير، فانفرد عن أصحابه وبعد عنهم، فوجد أحد الأعراب جالساً على قارعة الطريق، فسلم عليه ثم قال: هل تعرف عبد الملك بن مروان؟ قال: إي والله أعرفه، إنه خائر بائر جائر. قال عبد الملك: ويحك، أنا عبد الملك بن مروان. فقال الأعرابي: لا حياك الله ولا بياك؛ لقد أكلت مال الله، وأضعت عيال الله. فقال عبد الملك: ويحك، تقول ذلك وأنا أضرب وأنفع؟ قال: أما تفعلك فأسأل الله أن يغنيني عنه، وأما ضرك فأسأل الله أن يكفيني شره. فأترق عبد الملك، وتأمل قليلاً. ثم أقبلت الخيل وأحاطت بعبد الملك، فرفع الأعرابي رأسه إلى عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين، المجالس

بالأمانات، فاكم ما جرى بيني وبينك^(١).

فالمسافر عليه أن يسمع كلمة الرشد ويستفيد منها، ويعرض ما يسمعه على العقل، لا أن يأخذ بالشيء بمجرد سماعه؛ فما أكثر ما نسمعه وهو ليس من الحقيقة في شيء. فعلينا أن نرجع ما نسمعه إلى المقاييس والضوابط والعقل، والقرآن يعلمنا على المنهج العلمي لا المنهج الفوغاثي.

المبحث الخامس: عمى البصر والبصيرة

ثم قالت الآية: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. ففي الدنيا من هو أعمى لكنه يعادل دنيا من المبصرين، فعبد الله بن عباس قد عمى آخر عمره، وكان يقول:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي قوادي وقلبي منهما نور^(٢)

وحدث يوماً أن ابن الزبير صعد المنبر وأراد أن ينال منه فقال: إن هاهنا رجلاً أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه، يزعم أن متعة النساء حلال من الله ورسوله، يُفتي في القملة والنملة... وكيف يُلام على ذلك وقد قاتل أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ، ومن وقاه بيده، يعني طلحة؟ فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبير مولى بني أسد بن خزيمه: استقبل بي ابن الزبير، ثم حَسِر عن ذراعيه فقال: يا ابن الزبير: أمّا عيني فقد أخذ الله نورهما، ولكن عَوْضني اليقين في قلبي والنور في بصيرتي.

وأما فتَياي في القملة والنملة فإن فيهما حكيم لا تعلمهما أنت ولا أصحابك.

(١) المحاضرات ١: ٢٣١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ٣٥٨، اختيار معرفة الرجال ١: ٢٧٢/١٠٣.

وأما المتعة فإن أول مجرمٍ سطع في المتعة مجرمٌ في آل الزبير، فسل أمك عن بُردِي عوسجة.

وأما قتال أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين لا بك وبآبائك. وانطلق أبوك وخالك - يعني طلحة - فعمدا إلى حجاب مدّه الله عليها فهتكاه عنها ثم اتخذاهما فئةً يقاتلان دونها، وصانا حلائلهما في بيوتهما، فوالله ما أنصفا الله ولا محمد ﷺ في ذلك.

وأما قتالنا إياكم فإن كنا لقيناكم زحفاً ونحن كفار فقد كفرتم بفراركم من الزحف، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا. ثم قال له: وأيم الله لولا مكان خديجة فينا وصفية فيكم ما تركت لك عظماً مهموزاً إلا كسرتَه^(١).

وكان ابن عباس يستعين بـغلام له يدّله على الطريق، فأقبل إليه ذات يوم رجل فقال له: يا بن عم رسول الله، لي إليك حاجة. قال: على الرحب والسعة، ما

(١) أنساب الأشراف ٤: ٥٥ - ٥٧، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٢٩ - ١٣١، الدرجات الرفيعة: ١٣٤ - ١٣٦. وفيهما أنه لما نزل ابن الزبير سأل أمه عن بردِي عوسجة، فقالت: ألم أنهك عن ابن عباس وبني هاشم؛ فإنهم كُفّم الجواب إذا بُدِ هو؟ قال: بلى قمصيتك. قالت: فاتّقه؛ فإن عنده فضائح قريش. وقال في ذلك أيمن بن خريم بن فائك الأسدي:

يا ابن الزبير لقد لاقيت باقة	من البوائق فالطف لطف مُحْتال
لاقيته هاشمياً طاب مفرسُهُ	في منبته كريم العمّ والخال
ما زال يقرعُ منك العظم مقتدراً	على الجواب بصوت مُسمع عالٍ
حتى رأيتك مثل الكلب منجحراً	خلف الغيظ وكنت البادئُ أُلغالي
إن ابن عباس المحمول حكمته	حسب الأنام له حالٌ من الحال
عيرته المستعة المستبوعُ سُنتها	وبالقتالِ رقدَ عَيرتِ بالمال
لما رماك على رسلٍ بأسهيه	جرى عليك كسوف الحال والبال
فاحتز مقولك الأعلى بشفرته	حزاً وحسباً بلا قيل ولا قال
فأعلم بأنك إن حاولت نقصته	عادت عليك مسخار ذات أذبال

ونظير هذه الحادثة هناك حادثة أخرى وقعت بينهما، انظر الدرجات الرفيعة: ١٣٢ - ١٣٤.

حاجتك؟ قال: ولد لي الليلة مولود. قال: هناك الله بالعطية. قال: وقد ماتت أمه به في النفاس. قال: آجرك الله على الرزية. قال: وقد سميت به باسمك تيمناً، وليس عندي من يحضنه.

فقال لغلامه: يا غلام، كم بقي عندنا من نفقتنا؟ قال: مئة دينار. فدفعها إليه، وقال: اشتر بها جارية تحضنه. ثم قال لغلامه: لقد وهبتك له فاذهب معه. ثم التفت للرجل فقال: يا هذا، إنك أتيتنا وفي العيش يبس وفي المال قلّة، ولو جئتنا في غير هذا الوقت لكان عطاؤنا غير هذا.

وألفت النظر هنا إلى أن ابن عباس ابتلي بتفسير منسوب إليه يدعى (تنوير المقباس)، وهذا التفسير أغلب رواياته عن عكرمة الذي أخذ الروايات الإسرائيلية وأراد أن يلبسها اللباس العلمي فنسبها إلى ابن عباس. ولهذا لا ينبغي التصديق بكل رواية نسمعها عن ابن عباس، فقد جاءت المصيبة من عكرمة هذا^(١)، أو من غيره، وقد وُضع على لسانه الكثير من الروايات. وإلا فإن ابن عباس ترجمان القرآن^(٢)، وحبر الأمة، وكان غاية في الاطلاع والمعرفة.

ومن المناسب هنا أن نذكر أن المنصور أسس في بغداد مؤسسة للعميان والأيتام والقواعد من النساء اللاتي ليس لهن مُعيل من زوج وغيره، وكان لهن مدير يتولّى شؤون هذه المؤسسة، فبينما كان المدير جالساً ذات يوم إذ دخل عليه رجل ومعه طفل، فسأله عن حاله فقال: أصلحك الله، أريد أن تكتبني مع القواعد. قال: كيف وأنت رجل؟ قال: إذن اكتبني مع العميان. قال: أما هذه فنعم، فأنت أعمى القلب. قال الرجل: واكتب ابني هذا مع الأيتام. قال: نعم، فحرّني بمن أنت

(١) مرّ تحقيق كونه كاذباً في ص ٣١ من هذا المجلّد.

(٢) مجمع الزوائد ٩: ٢٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٣٩.

أبوه أن يكون يتيماً. فكتبه في الأيتام أيضاً.

إن عمى العين بسيط إذا ما قيس بعمى القلب، فقد يصل عمى القلب إلى أن ابن حزم يقول: إن يزيد مجتهد، وقد اجتهد في قتل الإمام الحسين عليه السلام وأخطأ، فيكون له أجر واحد بدل أجرين. فهل يكون عمى القلب غير هذا؟ وليت شعري، ماذا يقول المسلمون عندما يقرأون هذا الاجتهاد في قتل سيد شباب أهل الجنة^(١)؟ وماذا يبقى من الدين إذا فُتح هذا الباب؟ فمن يشرب الخمرة مجتهد، ومن يزني مجتهد، ومن يسرق مجتهد، وهكذا، وكل هؤلاء مأجورون! فهل هذا هو المنطق والعقل الذي نبحث عنه؟

وهذا بالتأكيد لا يضير الإمام الحسين عليه السلام، تلك القمة التي زرعت على أرض الطف وستبقى قائمة، وسيبقى الشعار الذي تلتفت حوله قلوب المؤمنين، يقول أحد الأدباء:

أَعْفَرُ خَدِّي بِعَفْرِ ثَرَاك	بَحِيثُ دِمَاؤِكَ لَمْ تَنْضَبِ
بَحِيثُ يَنْفَلِغُ لُفْرُ أَبِي	بِأَنْ يَحْتَسِيَ الدَّلَّ فِي فَشْرِ
وَهَامَ ابْنُ لَطْفَةِ الرُّكُوعِ	وَأِنْ فُلِقُوا مِسْنَةً بِالْمَضْرِبِ

فالواقف على ذاك الثرى يسمع ذلك الصوت المملع: «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد»^(٢).

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجه ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرک علی الصحيحین ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها أقر إقرار.

وقفت تلك القمة وذاك العلم يرفع دماء الشهادة وهو يقول: «اللهم بعينك ما نزل بنا»، وذلك عندما جاءه السهم المثلث، فوقع في قلبه، فأراد أن يستخرجه من أمامه فلم يتمكن، فانحنى على قربوس السرج فاستخرجه من قفاه، يقول الإمام عليه السلام: «والله ما خرج السهم حتى أخرج معه من قلب جدي الإمام الحسين عليه السلام».

فأخذ من دماء الشهادة فخصّب به وجهه وقال: «هكذا ألقى الله وأنا مخضوب بدمي، مغضوب حقي»^(١). ثم رمق السماء بطرفه وقد حال العطش بسينه وبين السماء كالدخان^(٢).

ألسهاشمي الماء يحلو ودونه ثوث آله خزئ القلوب على الثرى
وتهدأ عين الطالبني وحولها جفون بني مروان ربنا من الكرى



إنما يعجل من يخاف الفوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ
وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في أن الله يعاجل بالعقوبة

جرت العادة أن الله تعالى لا يعاجل الظالمين؛ لأنه إنما يعجل من يخاف
الفوت^(٢)، والله تعالى لا يخرج أي كائن عن قبضته ولا يفوته عز وجل. وتشير
بعض الأحاديث النبوية إلى ذلك حيث تقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يستعجلوا».
قيل: يا رسول الله وما «يستعجلوا»؟^(٣) قال ﷺ: «يقولون: دعونا فلم يُستجب
لنا»^(٤).

(١) يوسف: ١١٠.

(٢) وقد ورد في دعاء السجادة ﷺ: «إنما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم
الضعيف». الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٨٤، دعاؤه ﷺ في ردّ كيد أعدائه، مصباح
المتهجد: ٥٠١/٣٧٠، وعده من آخر أدعية الصحيفة، ويدعى به بعد صلاتي الجمعة
والأضحى. (٣) حذفتمونها نصباً على الحكاية.

(٤) تنبيه الخواطر ١: ٦.

فالكثير من الناس يسأل دائماً: لماذا ندعو على الظالم فلا يستجاب لنا؟ مع أن الإنسان ليس عنده الإحاطة بما في السماء، ولا يدري ما هو تخطيطها، ولا يعرف ما هي المصالح والمفاسد، ولا يدري هل إن العجلة في مثل هذه الموارد أصوب أو التأخير أصوب، فكل ذلك لا يعرفه الناس^(١). فالله تعالى لإحاطته بالأشياء يؤخر عقوبته أحياناً للمجرم، فيقع في قلوب الرسل ﷺ ومخيلتهم لون من ألوان اليأس، ويظنون أن رحمة الله قد تشمل هؤلاء، فالرسل أعرف الناس برحمة الله تعالى.

الإمام الهادي عليه السلام والمتوكل

وهذا المورد له تطبيقات كثيرة، منها أن زرافة الحاجب ينقل لنا واقعة هي أن المتوكل أراد أن يهين جماعة من الناس، وفي الوقت نفسه أراد أن يرفع من قدر وزيره الفتح بن خاقان، وكان عندهم يوم في السنة يعرضون فيه الجيش، فنادى المنادي في يوم العرض أن يخرج الناس مشياً على أقدامهم، ولا يركب إلا المتوكل والفتح بن خاقان. فخرج الناس مشاة، وخرج معهم الإمام الهادي عليه السلام ماشياً أيضاً. وكان الإمام بديناً، فكان العرق يتصبب منه. يقول زرافة الحاجب: دنوت إليه، فقدمت له كتفي فوضع يده عليها، فسمعتة يقول: «والله، لست بأقل من ناقة صالح»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرٍ مَخْذُوبٍ﴾^(٢).

فلم أدر ماذا أراد الإمام بذلك، فلما انتهى العرض عاد المتوكل مع وزيره، وقد أعطوا الإذن للناس بالركوب، فقدمت للإمام برذونا فركبه وعاد إلى البيت وهو

(١) وقد ورد في دعاء كميل لأمير المؤمنين عليه السلام: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي، لعلك بعاقبة الأمور». مصباح المتعبد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

(٢) هود: ٦٥.

يتصبب عرقاً، ورجعت إلى البيت.

وكان عندي مؤدب لأولادي يتشيع، فأقبلت إليه وقلت له: سمعت اليوم من إمامك شيئاً. قال: ما هو؟ فرويت له الحادثة، فقال: بالله عليك، أنت سمعت ذلك؟ قلت: نعم. قال: إذن هيئي نفسك، واجمع مالك وولدك، فسيحدث شيء بعد ثلاثة أيام. فقلت: من أين لك ذلك؟ قال: لا عليك.

فنهزته وأغلظت له القول، ولكن وقع في نفسي من قوله شيء، فأصلحت شأني، وخبأت ما كان عندي من أموال. وفي اليوم الثالث أصبحنا على أصوات الناس، وإذا ابنه المنتصر ومعه القواد الأتراك: وصيف وبغا وباجر وقد دخلوا عليه وبعجوه بسيوفهم هو ووزيره الفتح بن خاقان، وقطعوه إرباً إرباً حتى اختلط لحمهما مع الخمرة، وتناثر في الكؤوس.

والغريب أن التاريخ المزيف يسميه محيي السنة، ومميت البدعة^(١)، فهو يروي من جهة أن لحمه وقع في كؤوس الخمرة، ومات بين أحضان الساقطات، وهذا ما أكدته من نظم فيه من الشعراء^(٢) في عصره، ومن جهة يسميه محيي السنة ومميت

(١) ورد ذلك في أرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٢) قد أكثر الشعراء في وصف هذه الواقعة؛ فمنهم أحمد بن إبراهيم الأسدي حيث يقول:

هكذا فلتكن منايا الكرام بين ناي ومزمر ومسد
يسين كأسين أروتاه جميعاً كأس لذاته وكأس الحمام

بحار الأنوار ٥: ١٩٢ - ١٩٤ / ٩٢، ٩ / ٢٣٤ - ٢٣٦ / ٣٠، ثمار القلوب (الثعالبى) ١: ١٩١ - ١٩٠.

والغريب هنا أن الثعالبى يلقي كلاماً متناقضاً، فهو من جهة يصف ليلة قتل المتوكل بأنها «ثلمة الإسلام، وعنوان سقوط الهيبة، وتاريخ تراجع الخلافة»، ومن جهة يصف مجلسه بأنه مجلس أنس وقد أهدق به الندماء والمطربون ودارت الكؤوس وطابت النفوس فنانقلب مجلس اللهو والطرب إلى مجلس الويل والحرب». وهذا نص عبارته، فهل الإسلام وهيبته يأمران بأن تكون المجالس كذلك؟

البدعة. أليس هذا تناقضاً صريحاً؟ فهل من سنة رسول الله ﷺ شرب الخمر؟ وهل من سنته أن يغتصب الإنسان في أحضان الساقطات؟

سبب قتل المتوكل

وكان سبب قتله أن ابنه المنتصر دخل عليه فوجد عبادة المخنث قد وضع وسادة على بطنه وأخرى على ظهره، وراح يرقصه ويقول: جاء الأتزع البطين، جاء أمير المؤمنين، مستهزئاً بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له المنتصر: هذا لحكم، كله أنت بنفسك، ولا تدع الكلاب تلغ فيه. فقال:

غار الفتى لابن عمه رأس الفتى في حجر أمه

وأوعز إلى المغنين أن يغنوا بهذا. فاتفعل المنتصر وقرر قتله^(١).

وقد نهاه الإمام الهادي رضي الله عنه هذا، فقد دخل على الإمام قبل أن يقوم بذلك، فقال له: سمعت المتوكل يشتم الزهراء رضي الله عنها وجدك علياً رضي الله عنه. فقال له الإمام رضي الله عنه: «ولكنه أبوك، وسيقصر عمرك إن قتلته». فقال: لو عشت يوماً واحداً لقتلته. فخرج واتفق مع الأتراك على قتله، فدخلوا معه عليه وقطعوه إرباً إرباً.

فالناس إذا اشتد عليهم البلاء يصيهم اليأس، والإنسان خلق من عجل، فهو يستعجل عقاب الله للظالمين المجرمين، لكنه لا يعرف التخطيط الإلهي. كان جماعة من المستهزئين ينتظرون مرور النبي ﷺ فيلقون على ظهره الفرث والدم، ويتبعون معه أخس الأساليب، فيحفرون له الحفائر ليقع فيها، ويرجمونه بالحجارة، ويتبعونه بالألفاظ البذيئة، ويقلّدونه في مشيته. فدعا عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٢). لكنها لم تنفذ في وقت نزولها، فقتل قسم منهم

في بدر، وقسم بعد بدر. فالله لا يهمل الظالم، لكنه يمهله قليلاً
ومن هنا يقع في ظنّ الرسل ﷺ شيء من اليأس بوقوع العذاب؛ لأنهم يعرفون
رحمة الله، ويدركون أنها تسبق غضبه.

والدليل على ذلك أننا نرى كم من الناس من يفتح عينيه كل يوم وهم يواجهون
الله بالعصيان والكفر والإلحاد، ومع ذلك فإن الله لا يقطع عنهم نعمته، فلا يقطع
العافية ولا الماء ولا الطعام، ولا يسدّ بوجوههم أبواب رزقه. فما يقع في ظن
الأنبياء ﷺ هو أن الله قد يرحم هؤلاء، فهم أعرف الناس برحمته. كان النبي ﷺ
جالساً ذات يوم فرأى امرأة حاملة طفلها تقبله وتحنو عليه، فالتفت إلى أصحابه
قائلاً: «أترون هذه المرأة؟» قالوا: بلى. قال: «أطارحة هذه ولدها في النار؟» قالوا:
لا يا رسول الله. قال ﷺ: «لم؟» قالوا: لشفتها. قال: «الله أرحم بكم منها
بولدها»^(١).

(اللهم إنا نسألك ألا تحرمنا من رحمتك).

المبحث الثاني: في معنى ﴿كُذِّبُوا﴾ ونماذج من المكذبين

ثم قالت الآية: ﴿وَوَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾، وعند المفسرين وجوه متعددة في
تفسير قوله تعالى: ﴿كُذِّبُوا﴾ في هذه الآية، وأفضل هذه الوجوه وأنسبها وأسلمها
أن الذي ظن الرسل أنه واقع هو التكذيب المحتمل من أتباعهم. فهؤلاء الأتباع
كانوا سمعوا من الرسل أن الله سوف يعاقب هؤلاء الظالمين، ثم أبطأ العقاب،
فتصور الرسل أن أتباعهم ومصدقهم سوف يكذبونهم؛ ممّا يؤدي إلى أن يبدأ في
نفوس الأتباع الهمس أولاً، ثم يتطور الهمس إلى الظن بأن الأنبياء أخبروهم بغير

الواقع.

أنموذج قوم نوح

وقد وقع مثل هذا التكذيب للرسول ﷺ، فأتباع النبي نوح ﷺ استبطؤوا نزول العذاب لما رأوا عبث قومه به. فقد كان ﷺ نجاراً، وكان قومه يعرون به كل يوم فيرونه يصنع أجزاء من سفينة، فيستهزئون به ويسخرون. فإذا ذهب عنها جاؤوا إليها ليتخذوها بيت خلاء، ويخربوا ما صنعه، إلى أن طال به الألم، فجاء العذاب والطوفان.

أنموذج فرعون

وقد بلغ الطغيان من فرعون أنه قال لموسى ﷺ: ﴿لَئِنْ أَتَيْتَ بِآيَةٍ غَيْرِي لِأَجْفَلَكَ مِنْ الْفَسْخُوتِينَ﴾^(١)، واضطرَّ موسى وأصحابه أن يهاجروا بدِينهم، ففلق الله لهم البحر، وتبعهم فرعون بخيله وجنوده، إلى أن توسط البحر فأطبق عليه، فحاول في تلك الحال أن يستنجد فلم يجبه أحد.

أنموذج صحابة الرسول ﷺ

وقد وقع للنبي ﷺ في واقعة الخندق مثل ذلك، فقد أمر النبي ﷺ بحفر الخندق بإشارة من سلمان^(٢)، فضاقت الأمور بهم واشتدَّ عليهم، وأصبحت المدينة عرضة للغزو لحظة بعد لحظة من قريش وأحلافها وأتباعها من مختلف الجهات، فحفر الناس وحفر النبي ﷺ معهم. واستمرَّ الحفر إلى أيام رمضان، وكان بعضهم صائماً فسقط من الجوع والتعب، وشدَّ النبي ﷺ على بطنه حجر الجوع. وكان عند فاطمة^(٣) صاع من شعير فطحته واختبرته وجاءت به إلى النبي ﷺ، فوزَّعه

ولم يبق منه كسرة له^(١). وبلغ الأمر بالصحابة مبلغاً عظيماً، فراحوا يتساءلون: لم لا ينصر الله نبيّه؟ ولم لا يهزم هؤلاء؟

وأراد النبي ﷺ أن يشدّ من عزائمهم، فضرب حجراً بفأسه فتطاير منه شرر، فكبر النبي ﷺ وكبر معه الصحابة، فقال له أحد الصحابة: روعي فداك، لم كبرت؟ قال: «تراءت لي قصور بصرى والشام كأنها أنياب الكلاب، وقد وعدني ربي أن يفتحها عليّ»^(٢).

فتهامس المنافقون فيما بينهم، وقالوا: إنه يُخندق على نفسه ليحمي رهطه، ويطمع أن يستولي على قصور بصرى والشام، أي كلام هذا؟ فلم تمرّ إلا أيام وليالٍ حتى فتح الله له بصرى والشام، وما هو أبعد من بصرى والشام، وخفق لواء الإسلام على تلك المناطق.

فالناس دائماً يستعجلون، والأنبياء يظنون أنهم قد كذبوا؛ لأنهم يتسوا، كما قالوا مثلاً: ﴿مَتَى نُضِرَ اللَّهُ﴾^(٣).

فالله تعالى يريد أن ينشئ العباد على أن من أبسط البديهيّات عنده أنه لا يحمل الظالم: ﴿إِنَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾^(٤).

و ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾^(٥). وكل هذه الآيات تبين أن الله سوف ينتقم من الظالم، ولا يمكن أن يخرق الله هذه القاعدة، فإن رأيت ظالماً مُدَّ له في أجله فإنما هو إهمال لا إهمال.

أيهما يجب الوفاء به على الله: الوعد أم الوعيد؟

(٢) الطبقات الكبرى ٤: ٨٣.

(٤) الكهف: ٢٩.

(١) مسند زيد بن علي: ٤٦١.

(٣) البقرة: ٢١٤.

(٥) إبراهيم: ٤٢.

ومن المؤسف أن بعض المفسرين يقول: إن الأنبياء وقع في خلدتهم أن السماء لم تعطهم الخبر الصحيح، وأن الوحي لم يصدقهم. ومعاذ الله أن يظن الأنبياء هذا. وهنا نقطة لا بد من إلفات النظر إليها وهي أن هناك اختلافاً بين المذاهب الإسلامية حول أمر هام هو: هل يجب على الله الوفاء بالوعد والوعيد أم لا؟ يقول قسم من المسلمين: إن الله لا يجب عليه شيء؛ لأنه يعمل في ملكه كيف يشاء: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾^(١) فيمكنه أن يعاقب المطيع وأن ينعم العاصي^(٢).

وهذا القول غير مقبول؛ فالله وإن كان لا يسأل عما يفعل، لكنه لا يفعل القبيح، فلا يأتي إلى من قضى عمره في الصوم والصدقات والصلاة والخيرات فيعذبه؛ فإن تعذيبه هنا قبيح، ولا يأتي إلى من قضى عمره في الشر فينعمه؛ لأن تنعيمه قبيح أيضاً؛ فالعقل لا يقبل هذا. ولكن المشكلة في بعض المذاهب الإسلامية أنها لا تؤوّل النص وإن اصطدم ببعض القواعد الإسلامية.

وقسم من المذاهب الإسلامية يقول: يجب على الله الاثنان معاً: الوفاء بالوعد والوعيد؛ فإن أوعد أحداً النار فيجب عليه أن يرميه بالنار لئلا يخلف الله وعيده، وإن وعد أحداً الجنة فيجب أن يدخله الجنة لئلا يخلف وعده.

أما رأي الإمامية ففيه تفصيل؛ فيجب عندهم على الله الوفاء بالوعد دون الوعيد، فإن وعد أحداً الجنة فقيح عليه أن يخلف وعده؛ لأنه رب الخير والصدق والكمال والعطاء، أما إذا تهدّد أحداً بالنار فلا يجب عليه الوفاء؛ لأن عدم الوفاء بالوعيد ليس قبيحاً^(٣)، إنما القبيح ألا يفي بالثواب، والعفو أفضل من الوفاء

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) الاقتصاد: ٨٢، المحصول ١: ١٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٩.

(٣) انظر الميزان في تفسير القرآن ٦: ٣٦١، ١١: ٣٥، وقد علّل ذلك بقوله: لأن الذي تعلّق به

بالتهديد إلا إذا اقتضت المصلحة العذاب؛ لأن العذاب أحياناً قد يكون من التربية.
وهذا هو المعنى الذي يصوره بعض الأدباء حيث يقول:

رَبِّ فِي وَجْهِكَ الْكَرِيمِ جَمَالٌ كُلُّ حُسْنٍ مِنْ قِيَمِهِ مَوْهُوبٌ
نَمُّ عَنْهُ سِحْرُ الشُّرُوقِ وَزَوْضٌ غَبَقَرِيُّ الشَّدَى وَنَبِيعُ ضَبِيبٍ
مَنْ أَنَا عَيِّ أَقُولُ أَنْتَ وَإِنِّي وَفَتْنِي ضَحٌّ بَيْنَنَا التَّنْصِيبُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

رَحْمَةٌ أَنْتَ عِنْدَ كُلِّ مَكَانٍ وَفَحَالٌ بِجَنَّتِكَ التَّعْذِيبُ

ويعني بذلك أن الله موجود في كل مكان، وإذا كان الله في كل مكان، ووجوده رحمة، فهذا يعني أن لا عذاب مع وجوده. وفي هذا المعنى نوع من التحايل؛ لأن العذاب قد يكون أحياناً رحمة، فأنت عندما تضرب عزيزاً عليك لتأديبه لا يكون هذا تعذيباً؛ لأن قصد التهذيب والتأديب رحمة. فالله ليس له مصلحة في تعذيب أحد؛ لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه، وإنما هو تعالى يريد مصلحة العباد إذا عذبهم؛ ولذا يجب عليه الوفاء بالوعد، ولا يجب عليه الوفاء بالوعيد.

فالرسل ظنوا أن أتباعهم كذّبوهم، ومعاذ الله أن يتصور الأنبياء أن الله أخلف الوعد.

المبحث الثالث: من هو المجرم؟ وما هي الجريمة؟

الوعد حق للموعد له وعدم الوفاء به إضاعة لحق الغير، وهو من الظلم، وأمّا الوعيد فهو جعل حق للموعد على التخلّف الذي يوعد به له، وليس من الواجب لصاحب الحق أن يستوفي حقه. وقد مرّ مفصلاً في ص ١٢٤ من هذا المجلّد.

ثم قالت الآية: ﴿وَلَا يُزِدُ بِأُسْنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ﴾ فمن هو المجرم؟ وكيف نتصور ردّ البأس؟ وهنا أمران:

الأول: أننا لا يمكن أن نتصور أن أحداً أشدّ بأساً من الله ليرد بأس الله، فهذا الإنسان الذي يدّعي الجبروت والعظمة والكبرياء تعال إليه في لحظاته الأخيرة وانظر ما حاله، تجده مسكيناً يستدرّ العطف والشفقة. فذاك الخدّ المصعّر، وتلك النفس المملوءة جبروتاً لا أثر لها، بل تجده مثل الخرقه، يقلّب طرفه بين أهل بيته ويستنجد، ولا يريد إلا من يدفع عنه الألم وسكرات الموت فلا يجد. ولو اجتمعت الدنيا على أن تزيد عمره لحظة فلن تستطيع. فهل نتصور أن هناك من يستطيع ردّ بأس الله؟

الثاني: من هو المجرم؟ الجريمة والذنب مترادفان، ويعرف فقهاء القانون وفقهاء الشريعة الجريمة بأنها مخالفة بند من بنود القانون. فالمجرم هو الذي يخالف الأوامر والنواهي التي وضعتها السماء؛ فالسارق مجرم لأنه خالف بنداً من بنود الشريعة، وكذلك القاتل والمستغيب وهكذا.

وكذلك مخالفة أي بند من بنود القانون هي جريمة في نظر القانون، ولكن القانون يفرق عن الشريعة بأنه أحياناً يأخذ مادته من العرف، أما الشريعة فلا تستمد حكمها من العرف، إنما قد تعتبر العرف موضوعاً لحكم ما. فمثلاً تعود الناس في الخليج أن يلبسوا لباسهم المعروف، فمن يلبس هذا اللباس لا ينتقده أحد. ولكن لو جاء رجل يلبس لباساً آخر كأن يكون طربوشاً ملوناً وحذاء من لون معين، ويكون عاري الصدر، فيكون موضع سخرية واستهزاء الناس، وهذا يسمى في عرف الفقهاء «لباس الشهرة» وهو اللباس الذي يلفت النظر. وحكم الشريعة فيه أنه حرام. فليس للمؤمن أن يذلّ نفسه، فالعرف اعتبره الشارع هنا

مادة وموضوعاً رتب عليه الحكم.

ومثل ذلك ما لو قام فقيه من الفقهاء بعمل لا يقوم به إلا السوق، فهذا منهي عنه. لذا فإن العرف أحياناً قد يكون موضوعاً لحكم شرعي دون أن يحدده، فالسرقة ليست حراماً لأن العرف يحرمها، بل السماء هي التي قالت: إن السرقة حرام. فمصدر الحكم هو السماء لا العرف. بعكس القانون الذي يكون أحياناً مصدره العرف.

العرف لا يصلح مصدراً للتشريع

ونجد عند القوانين المستمدة من العرف أن الجريمة مُترججة، فقد تجد فعلاً من الأفعال جريمة في مكان ولا تجده كذلك في مكان آخر. فقبايل «اللاساديم» مثلاً يحترمون الإنسان الكبير رجلاً كان أو امرأة، مثل المسلمين تماماً، لكن قبائل «السييتي» بالعكس من ذلك، فهم يقولون: إن الإنسان إذا صار كبيراً مسناً وجب أن نقتله؛ لأننا إن تركناه تركناه للآلام، فيبقى يجترّ آلامه وذكرياته وأحزانه. يقول الشاعر:

المـرء يـأمل أن يـعـيـد عـش و طـول عـيش قـد يـضـرء
تـفـنـى بـشـسـاشـتـه و يـب عـن بـعـذ خـلو الغـيش قـرء^(١)

فصار هذا الفعل جريمة في مكان وليس بجريمة في مكان آخر. وبالمناسبة فقد نشأ أخيراً موضوع أثاره فقهاء القانون وطلبوا به رأي فقهاء

(١) البيتان لأبي العتاهية، وتماهما:

وتـخـونـه الأيـام حـت عـى لا يـرى شـيئاً يـسـرء
كـم شـامـت بي إن هـلك مـت وقـائـل لله درء

شرح نهج البلاغة ٨: ٢٩٣.

الشرعية، وهو القتل بدافع الشفقة، فمثلاً قد يدخل أحد إلى المستشفى وهو يعاني من مرض غير مأمول شفاؤه، فهو في مثل هذه الحالة يعاني من الآلام الشديدة ولا يرجو الشفاء. فهل يجوز القضاء عليه وقتله أم لا؟ القانون منع ذلك، والشرعية من قبله منعتة؛ فمن يدري، ربما يعيش من تتوقع موته بعد ساعة، ويموت من تتوقع أن يعيش دهرًا^(١). فالإقدام على إزهاق الروح ليس من حق إنسان، والله وحده هو خالق الروح ومن حقه أن يستردّها، أو تستردّ بأمره^(٢).

خذ مثلاً آخر الانحراف الجنسي - وهو اللواط والعياذ بالله - هذا الفعل الشاذ القذر الذي تحرّمه الشرائع والأعراف والذوق والعقل، أصبح عند بعض الأمم ليس بجريمة، فقد كان التشريع في جزيرة كريت يبيحه ويجيزه، وفي القرن العشرين أقره البرلمان البريطاني، واعتبره فعلاً مشروعاً لا يعاقب القانون عليه^(٣). وأي نكسة للإنسانية أكبر من هذه النكسة؟ وإذا لم يكن هذا الفعل جريمة فما هي الجريمة إذن؟ فهذا الفعل الذي تعافه البهيمة بفطرتها ويقدم عليه الإنسان يعدّ في بلدٍ جريمة وفي بلد آخر ليس كذلك.

وخذ مثلاً ثالثاً، ففي روما كانت الشرائع تعطي الحقّ لكبير الأسرة أن يقتل أحد أفراد الأسرة، ولا يعتبر ذلك جريمة، فيما تعتبر الشرائع القتل جريمة للقريب أو للبعيد.

(١) قال أمير المؤمنين رحمه الله :

فكم من صحيح مات من غير علّة وكم من عليل عاش حيناً من الدهر

انظر: ديوان الإمام علي رحمه الله : ٦٩.

(٢) كإقامة الحدود والقود وغيرها.

(٣) كما حذت بعض البرلمانات الأوروبية الأخرى حذوه كالبرلمان الدانماركي وغيره، وقد مرّ

في ص ٦١ من هذا المجلد.

والزنا، هذا العامل الذي يهدم المجتمع، ويقضي على طهارة الأسرة ونقاها، يعتبر في الشرائع حراماً، وفي معظم القوانين يعتبر جريمة، لكن بعض الشعوب لا تعتبره جريمة. والمصيبة العظمى والعار الكبير أنك تجد في قوانين بعض البلدان الإسلامية أن الزنا لا يعتبر جريمة إلا إذا كان بالإكراه، أما إذا كان بالرضا فلا. فهل هذا كلام يقبله الدين؟ ألا نستحي من دساتيرنا التي نكتب فيها أن دين الدولة هو الإسلام؟ وهل يقرّ الإسلام هذا الفعل المنحرف؟ فمتى نخلق المواطن الصالح الذي يزود عن عقيدته وأُمته ووطنه وأخلاقه إذا ربينا في حجر عاهر ملوث؟ فالجريمة يصعب تحديدها عرفاً؛ لأنك تجد الفعل الواحد في مكان جريمة وفي مكان آخر ليس بجريمة، فلا نستطيع أن نعتمد على العرف في تحديد الجريمة، بل نعتمد في تحديدها على الشرائع السماوية؛ لأنها راعت مرتبة الخلق حفظاً لهيكل المجتمع وبنيته.

منشأ الجريمة وأسبابها في المجتمعات

ونسأل سؤالاً آخر هو: هل يولد الإجرام مع الإنسان وينشأ معه، أو أن هناك عوامل تسبب الإجرام؟ بعض النظريات تقسم مسببات الجريمة إلى أقسام: فبعضها يرى أن سبب الإجرام هو المجتمع، وبعضها يعزو السبب إلى التربية، والبعض منها يعزوه إلى الفطرة. يقول المشرع الإيطالي «لومبروزو»: «إن قسماً من المجرمين هم مجرمون بالفطرة». ويحدّد أوصاف «المجرمين بالفطرة» بأن لهم عيونا خاصة وجبهة معينة وشكلاً معيناً. فيولد هذا مجرماً بالفطرة.

وهذه النظرية لا تقبلها؛ فالشريعة الإسلامية تعتبر أن منشأ الاجرام هو المجتمع؛ فالمجتمع هو الذي يخلق الصالح أو المجرم، وليس هناك من يأتي إلى الدنيا وهو مجرم أو صالح. فالناس يخرجون من بطون أمهاتهم ورقة بيضاء،

والمجتمع هو الذي يصنعهم صالحين مؤدبين وذوي عفاف أو بالعكس. وأول تركيبة اجتماعية يتفاعل معها الطفل هي الأم والأب؛ فإن فتح عينيه على أم صادقة لا تكذب فإنه ينشأ في نفسه مثل أخلاقي هو احترام الصدق، ولو نشأ بين أب وأم كاذبين فسيكون مصنوعاً للكذب.

وهذا لون من الدراسة العملية التي تنطوي على إحياء أبلغ من الفعل والقول، فالولد يتأثر بالأب والأم تأثراً كبيراً؛ ولذلك يوجه الله تعالى التحذير للأبوين بقوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ﴾^(١)، فيكلف الأبوين بأن يكونا قدوة صالحة للولد.

ثم ينتقل الولد من هذه التركيبة الاجتماعية إلى التركيبة الثانية وهي المعلم، هذا الذي يصنع الأرواح والعقول. وللمعلم خطر أكبر من خطر الأبوين؛ لأن الولد يحمل في نفسه إكباراً للمعلم أكثر مما يحمل لأبويه؛ فقد يولد طفل له أب وأم بسيطان عاديان لا علم لهما ولا معرفة، فيحترمهما الابن باعتبارهما أبوين، ولكن لا يعتبرهما قدوة. في حين أنه يعتبر المعلم موجهاً وقائداً وبانياً لشخصيته. فإن كان المعلم قدوة حسنة في أخلاقه فما من شك أن الولد سيتأدب بآدابه وتهذيبه. وبالعكس لو كان المعلم كتلة من الانحراف.

فالبلاء ينبع من هنا؛ ذلك أن التلميذ أمانة في عنق المعلم؛ فمن السهل علينا أن نصلح باباً أخطأ النجار في صنعه، أو أن نصلح بيتاً أخطأ فيه المهندس، ولكن ليس من السهل علينا أن نعيد بناء الولد مرة ثانية إذا بناه المعلم بناء أعوج منحرفاً. ومن هنا تدرك أهمية المعلم.

وقد يتصور المعلم أن مسؤوليته تنحصر في بضع كلمات يحشو بها ذهن التلميذ

ليس إلا، وهو واقع أغلب المعلمين، أما التهذيب وآداب السلوك والحديث وغيره فلا؛ لأنه لم يدرسها، فكيف يعلمها غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه! وهذه هي المأساة. وعلى الأمم الراقية أن تفتح دورات أخلاقية إلى جانب الدورات العلمية لمعلميها؛ لأن المعلم نبي صغير^(١)، وهو صانع الجيل، ولا يمكن أن نطالب الجيل بالأخلاق إذا لم يكن قد أخذها عن المعلم أو عن الأسرة. وجزى الله مساجد المسلمين خير الجزاء، فقد لعبت دوراً كبيراً في تهذيب وتربية الجيل، ونشر الخلق وبعثه؛ لأن المسجد بناء القرآن، والقرآن معلم الإنسانية؛ ولذلك نحن نحرص على أن يُقرأ القرآن في البيوت؛ كي يحصل التلميذ على التربية الخلقية من أبيه وأمه إن تعذر عليه الحصول على ذلك من المدرسة.

فعلى الأب مسؤولية كبيرة في توجيه الابن وتربيته، وهي مسؤولية أكبر من توفير لقمة الخبز والمعيشة له؛ فإن كان يسعى إلى حمايته من الجوع، فعليه أن يحميه من الجوع الفكري والأخلاقي أيضاً. «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٢).

إذن منشأ الجريمة هو المجتمع حسب نظرية الإسلام، وليس عندنا مجرم يولد بالفطرة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾^(٣).

نظرية العقاب بين الإسلام والقوانين الوضعية

(١) قال شوقي:

كاد المعلم أن يكون رسولا

ديوان أحمد شوقي: ١٨.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٢٩/٣، صحيح البخاري ١: ٢١٥.

(٣) النحل: ٧٧.

ويبقى أن تطرح هذا السؤال: هل يعتبر الإسلام العقاب تحقيقاً للعدالة؟ أو يعتبره انتقاماً وثأراً للمجتمع؟ أو حماية للمجتمع؟ أو تربية للمجرم؟ فهذه أربع نظريات في المسألة.

فالنظرية الأولى تقول: إن العقاب هو تحقيق للعدالة.

والثانية تقول: إنه انتقام وثأر للمجتمع.

والثالثة تقول: إن المجرم عندما يرتكب الجرم فلا يمكننا إعادة آثار جريمته، فقتله بجرمه لا يعيد المقتول، لكننا نقتل المجرم لنمنع من ارتكاب الجريمة مرة ثانية في المستقبل.

والرابعة تقول: إن العقاب علاج للمجرم، فالمجرم يعاني من مرض اجتماعي، والعقاب يجب أن يأخذ صفة تربوية، على أساس فكرة الجزاء الإصلاحي. ونظرية الإسلام هي بالدرجة الأولى إصلاح المجرم. والإسلام عندما يوقع العقاب فإنه يوقعه على شخص مرتكب الجريمة، فمن يقتل يقتل هو نفسه، ولا شأن للمجتمع بذلك. أما أهله وأسرته فلا دخل لهم في المسألة ولا ذنب لهم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١).

وقد يسأل سائل: إننا عندما نعاقب المجرم، فإننا نعاقب تافهاً ربما يكون قد اعتدى على من هو قمة من القمم، فكيف نعدل هذا بذاك؟ وهذا صحيح، لكنه الواقع الذي لا مفر منه، وقد تعرض المختار رحمه الله لهذه المسألة، فقد جيء إليه برأس عمر بن سعد، ورأس ابنه حفص، بعد أن أمر بقتلهما، فأخذهما وقال: أهذا برأس الإمام الحسين عليه السلام؟ وهذا برأس علي الأكبر؟ والله لو قتلت ثلاثة أرباع أهل الأرض ما وفوا بأنملة من أنامل الإمام الحسين عليه السلام^(٢).

وحق له أن يقول ذلك، فهذا كله لا يعدل حرقه من حركات قلب الإمام الحسين عليه السلام لما نزل علي الأكبر إلى الساحة، وأخذ الإمام الحسين عليه السلام يطيل النظر إليه.. نظر إليه نظر آيس منه، وأرخى عينيه بالدموع، ثم شخص بصره إلى السماء وقال: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس بنبيك خلقاً وخلقاً ومنطقاً، وكنا إذا اشتقنا إلى رؤية نبيك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم قطر السماء وبركات الأرض»^(١).

وأخذ يلاحقه بعينه إلى أن نظر إليه وقد سقط على وجه الأرض، فأقبل إليه، حتى إذا وصل سقطت رجلاه من الركاب، وسقط زمام فرسه من يده، وألقى بنفسه عليه واحتضنه وصاح: «بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمها، وأبقيت أباك لهما وغمها. وما أسرع اللحاق بك»^(٢).

فجئاً وأقنع للسماء بشيية مسغورة بمدامع ودماء

يا عدل قد قتلوا شبيه محمد أنزل بساحتهم عظيم بلاء

قام يكفكف عينيه بمنديل كان في يده، ثم قال للهاشمين: «احملوا أخاكم، والله لا طاقة لي على حمله». فحملوه إلى المخيم ورجلاه تخطان الأرض، وطرحوه إلى جانب النساء، وقعت عليه أمه تحتضنه:

بنئ اقتطعتك من مهجتي علام اقتطعت جميل الوصال



حب الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في معنى اللغو

اللغو: هو ما يُطرح من الكلام. وكلُّ شيء من الكلام لا يُعتدُّ به ولا يُستفَع به يسمى لغوًّا. وقد قدم المفسرون أمثلة لما يسمَّى لغوًّا، فهم يقولون: من اللغو ثلاثة أشياء: الباطل، والفحش، والفضول. وسوف نبين الآن ما معنى هذه الثلاثة التي نزل الله تعالى عنها مجتمع الجنة:

الأول: الباطل

يقول المفسرون: إن من جملة الغيبة. لكن لماذا جعل الله تعالى الغيبة من الباطل؟ السبب في ذلك أن الإنسان لا يغتاب إنساناً في الدنيا دون هدف أو دافع معين، فلا توجد غيبة بدون دافع شخصي، فإذا ذكره بغيابه بما يكره، فهذا يعني أن هناك شيئاً دفعه لذلك، إمّا لعداوة، أو لأنه زاحمه بمصلحة ما من المصالح، أو لأنه

وقف في طريقه بأمر معين. فلا بد من سبب لهذه الغيبة.

وهذا المعنى ليس موجوداً في الجنة، فليس هناك من يزاحم غيره، فلا مصلحة يشترك فيها اثنان فيتزاحمان، فيضطر أحدهما لاغتيال الآخر، ولا دوافع انتقامية، فالقرآن الكريم يقول ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾^(١) فلا يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يُنْظَفَ، من الخبائث ومنها الغيبة التي تكون دوافعها في أغلب الأحيان شخصية؛ ولهذا عبّرت عنها الروايات بأنها «إدام كلاب النار»^(٢)، يعني أنها طعام كلاب النار.

والغيبة من الذنوب التي لا يعفو عنها الله تعالى ما لم يعفُ عنها المغتاب. فمن الذنوب ما هو موكل إلى الله فيعفو عنها، ومنها ما هو حقوق شخصية، فاذا تعدّيت على عرض إنسان فالله يقول لك: أنا آليت على نفسي أن أحقق العدل، وعليك أن تُرضي المُتعدّي عليه، ثم يوكل الأمر إليّ، إن شئت عفوت، وإن شئت عاقبت. قيل للحسن البصري يوماً: إن فلاناً اغتابك. فاشترى الحسن طبقاً من الرطب وأهداه لذلك الرجل، وقال له: بلغني أنك اغتبتني. فقال الرجل: أغتابك وتُهدي إليّ رطباً؟ قال الحسن: نعم؛ لأنك أهديت إليّ حسناتك فأردت أن أكافئك، فأنا أقابلك، وأجازيك على إحسان إليّ^(٣).

ولذلك قال أحدهم: لو شئت أن اغتاب أحداً لا غتبتُ أبوي. قيل له: لماذا؟ قال: لأنني أحبيهما، وأعرف أن من يغتابهما تؤخذ ما لديه من حسنات فتُدفع للمغتاب، وأنا أريد أن تذهب حسناتي لأبوي.

(٢) الآمالي (الصدرق): ٢٧٨ / ٣٠٨.

(١) الأعراف: ٤٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ٩: ٦٦.

فالعيبية إذن من الأخلاق التي يأبأها المشرع الإسلامي في مجتمعنا، فهو يريد لمجتمعنا أن يكون نظيف اللسان. ثم إن الغيبة لا تُقدّم ولا تؤخّر، فإذا ذكرت أحداً بسوء في غيبته، فماذا تُقدّم؟ وماذا تؤخّر؟ نعم إنك لا تقدم ولا تؤخر سوى أنك تضر نفسك؛ لأن الغيبة لون من ألوان الشتم، والشتم لا يعود بالضرر إلا على صاحبه. مع الإشارة إلى نقطة هامة هي أنه ربما كانت ترفع قدر الشخص المغتاب أو المشتوم، يقول أبو تمام:

وإذا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ طُويت أتاح لها لسانٌ حَسودٌ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرَفِ العودِ^(١)

إن بعض الناس يُخدَمون إذا شتموا، ولا تظنَّ أنَّ أحداً خدمه الشتم بقدر ما خدم الإمام علياً عليه السلام، فما أكثر الذين شتموا علياً! وما أكثر الذين تقرَّبوا لأعدائه بشتمه! وكانوا كلما شتموه رفعوه إلى السماء^(٢)؛ لأن شتمهم ليس واقعاً، إنما بحثوا عن شيء يعيبونه به فلم يجدوا، فدفعهم الحقد لأن يشتموه. لكن هذا الشتم رفعه إلى السماء، يقول أحد الشعراء في أمير المؤمنين عليه السلام:

أخذتكَ الجِراحَ حَيًّا وميتاً فرأيناكَ مثخناً بالجِراحِ

أخذته جراح الحروب في حياته، فقد جيء به يوم أحد فيه أربع وستون ضربة وطعنة، ويكاد جسمه يتقطع، فنبذ سيفه إلى فاطمة عليها السلام، وقرأ البيتين:

أفاطمُ هاتِ السيفَ غيرَ ذَمِيمٍ فلستُ بسرِّ عديدٍ ولا بـفيلِمٍ

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٦.

(٢) مرَّ هذا المعنى في كلام حمزة بن عبد الله بن الزبير في ج ٢ ص ٢١ من كتابنا هذا.

لعمرى لقد بالغتُ في نصرِ أحمدٍ وطاعةِ ربِّ بالعبادِ رحيمٍ^(١)

هذه الجراح في الحياة، أما الجراح بعد الممات فهي مختلفة وغريبة، فمثلاً: يقول أحد الكتاب: ليس من المعقول أن توجد خطبة فيما يسمى بـ (نهج البلاغة) بهذا الحجم الكبير، ويحفظها أحد الجالسين المستمعين لأمير المؤمنين (عليه السلام). فهذه الخطبة مفتعلة ومصنوعة اخترعت بعد رحيل أمير المؤمنين (عليه السلام). ثم يروي هذا الكاتب نفسه أن رجلاً جاء بكتابٍ للمتنبى، فأخذه المتنبى، وكان فيه ثلاثون ورقة، فقرأه وحفظ ما فيه وهو واقف، ثم أرجعه إليه.

ويروي أيضاً أن رجلاً كان يحفظ (٦٠٠) ألف بيت من الشعر، فلماذا يُعقل ما ذكره عن المتنبى وعمّن يحفظ (٦٠٠) ألف بيت، ولا يُعقل أن تُحفظ خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام)؟ إنَّ حُكْمَ الامثال فيما يجوز وما لا يجوز واحد.

وهذا مشابه لما يرويه أحد الكتاب في مسألة حَزَتْ المتوكل لقبر الإمام الحسين (عليه السلام)، فقد ذكر المؤرخون أن المتوكل عندما أمر بحراثة القبر الشريف وتسليط الماء عليه، وصل الماء للقبر فحارَّ حوله واستدار، ولم يُغَطِّ^(٢) القبر، بمعنى أنها كانت كرامةً للحسين (عليه السلام)، فيقول الكاتب المذكور: إن هذه خرافة، فهل للماء عقل لكي يعرف قبر الإمام الحسين ويقف عنده؟ ثم يذكر بعد هذا الكلام بصفحات أن دجلة فاضت في سنة من السنين، فجاء الماء إلى قبر أحمد بن حنبل فوقف عند قبره، حتى إنه لم يحرك الغبار المجتمع على حصير فوق القبر. فإما أن يكون الماء بلا عقل فهو في الحالتين كذلك، وإما أن يكون ذا عقل فهو في الحالتين كذلك أيضاً، أما أن يكون عند قبر الإمام الحسين (عليه السلام) بلا عقل وعند قبر أحمد بن حنبل ذا

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر ٣: ٣٨٥ - هاء، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، وفيهما هائي.

(٢) بحار الأنوار ٨٦: ٨٩.

عقل فهذا هو الغريب.

إن هؤلاء الرُّقَّعاء الذين يحاولون النيل من أمير المؤمنين عليه السلام لم يستطيعوا أن يصلوا إليه بشعرة؛ لأن الله خلق عليه رضا ورحمته، وهما ما لا نهاية، وكل هذا الكلام والتهريج ينحسر ويضمحل.

الثاني: الفحش

ومن اللغو الفحشاء، فهناك من يعود لسانه على الكلمات البذيئة، وهذا كما أنه خلاف الأدب، فكذلك فيه إشاعة فاحشة. فالقرآن الكريم يحاول أن يجعل ألسنتنا نظيفة في التعبير إلا في حالة الحدود فإنه يأتي باللفظة المباشرة، فهو في الزنا مثلاً يعبر عن هذا المعنى بهذه اللفظة في باب الحدود، فيقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا﴾^(١)، ولكنه عند عدم الضرورة، وعدم رجود الحدود يقول: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَن يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأُزْجُلِهِمْ﴾^(٢). فيأتي بالكناية عن الزنا ولا يصرح بهذه اللفظة؛ لأنه يريد أن يعود ألسنتنا على أن تكون مهذبة. فعلى المسلم أن يكون عفاً للسان، أما إذا استخدم الكلمة البذيئة فإنه سوف يشيع الفاحشة وسوء الأدب بين الناس.

الثالث: الفضول

ومن اللغو الفضول، وهو فضول الكلام، بمعنى أنك إذا أردت معنى من المعاني يمكنك الوصول إليه بجملة واحدة، فما زاد على ذلك فهو فضول؛ لأن الوقت له قيمة، والذوق له قيمة. ولكي تقرب المعنى نذكر هذا المثال: نفرض أن أحد الأشخاص أراد ماءً، فإنه يمكنه أن يقول لشخص ما: «أريد ماءً»، أما إذا قال له:

حيثُ إنني عطشان، وحيث إنك تقدر على أن تجلب لي الماء، وحيث إن عندك إناء، وحيث إن هناك نهراً، فاذهب واغترف الماء وهاته لي. فهذا من فضول الكلام الذي لا مبرر للإطالة فيه.

يذكر الأدباء في هذا الباب قصة طريقة هي أن شحاذاً وقف على باب بيت، فقال: أعطوني مما أعطاكم الله. فنادى صاحب البيت: يا مبارك، قل لرباح، ورباح فليقل لحسن، وحسن فليقل لحرب، وحرب فليقل لموسى، وموسى فليقل لهذا الشحاذ: أعطاك الله، فقال الشحاذ: يا رب قل لجبرئيل فليقل لميكائيل فليقل لعزرائيل: لتقبض روح هذا.

ويذكر المؤرخون أن المأمون أعجبه فصاحته يوماً وهو على المنبر، فخطب خطبة أطال فيها، مع أن المعنى كان يمكن أن يفهم بأقل من ذلك بكثير، إلى أن فرغ من الخطبة، فسأل أعرابياً كان جالساً: ما تعدّون الفصاحة عندكم؟ قال: الفصاحة هي الإفادة مع الاختصار. فقال المأمون: ما تعدّون الفهاهة والعبي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم يرحمك الله^(١).

ولهذا السبب يقال عن المبدع: إن عنده فصل الخطاب، يعني أن كلامه ذو جمل مضغوطة ومعبرة، ولا تأخذ وقتاً طويلاً، فالفضول لا داعي له.

وهناك فضول بمعنى آخر، وهو التدخل في شؤون الناس دون طلب أو سؤال، فالفضولي هنا هو من يقحم نفسه فيما لا يعنيه. فالإنسان تارة يكون مسؤولاً وعليه أن يجيب، وتارة يكون له شأن في المسألة ويوجد ما يُوجب التدخل والكلام، فيتدخل ويتكلم، أما إذا لم يكن هناك داعٍ للدخول فهو الفضول. وكما

(١) البيان والتبيين ١: ٦٩، وهو في مجمع الأمثال ٢: ٢٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.

تقول الرواية: «البلاء موكل بالمنطق»^(١).

يقال: إن بهرام كان جالساً تحت شجرة فأصابه النعاس أراد أن ينام في ظلها ويهدأ، فجاء طيرٌ وأزعجه بصوته العالي، فأوتر قوسه ورماه فقتله، ثم قال: البلاء موكل بالمنطق. أي أن هذا الطير لو كان ساكناً لما قتل.

إذن على الإنسان أن يترك فضول الكلام وفضول العمل، وكل ما لا يؤدي إلى الانتفاع؛ لأن الله تعالى نهانا عن ممارسته. والقرآن الكريم يقول: إن الجنة ليس فيها غيبة، ولا فضول ولا فحش ولا غل ولا حقد ولا حسد؛ لأنها تؤذي القلب، والجنة دارٌ نعيم.

المبحث الثاني: نوع الاستثناء في الآية

وانظر لتعبير القرآن ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾. وهذا استثناء كما ترى، فهل هذا الاستثناء متصل أو منقطع؟ فإن كان متصلاً فهذا يعني أن السلام جزء من اللغو، فما معنى أن يكون السلام من اللغو؟ يقول المفسرون: إن معنى السلام هو السلامة، فعندما تقول لأحدهم: «السلام عليكم»، فإنك تدعوه بالسلامة من الآفات والمكاره والعثرات^(٢)، والجنة ليس فيها مكاره، فلا معنى لدعائك لأحدٍ هناك بالسلامة، بل إن ذلك سيصبح لغواً لا معنى له، وهذا الرأي مبني على كون الاستثناء متصلاً. وإن كان الاستثناء منقطعاً، فمعناه أنهم لا يسمعون فيها إلا ما هو ضد اللغو، والسلام ضد اللغو؛ لأن السلام تطيبٌ للقلب، وإدخالٌ للسرور على نفس من تُسلم عليه.

والحقيقة أن السلام ينمُّ عن أدب المسلم والمجتمع، فإن الله تعالى شرع لنا آداباً

(١) الفقيه ٤: ٢٧٨ / ٥٧٩٧، مسند شهاب ١: ١٦١ - ١٦٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) مجمع البيان ٤: ٦٥.

للطريق، وآداباً للأسرة، فكما أنه وضع لنا منهجاً في البيت، فكذلك وضع لنا منهجاً في الطريق، فعندما تصادف أحداً أمامك؛ فإن كان مسلماً فحيِّه بتحية الإسلام: «السلام عليكم»، وإن كان غير مسلم فحيِّه بتحيته هو؛ لأن السلام على غير المسلم غير مشرّع^(١).

المبحث الثالث: دلالة ﴿سلاماً﴾ على أن لغة أهل الجنة العربية وردّها
فالسلم في الجنة إذن - بناءً على هذا - هو ضد اللغو، ويستفيد بعض المفسرين من هذا المقطع أن لغة أهل الجنة هي اللغة العربية؛ لأن القرآن يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلاماً﴾ والسلام لفظة عربية، ومعنى ذلك أن لغة أهل الجنة هي العربية. وهذا الاستنتاج ليس ناهضاً بل هو ضعيف لأسباب منها:
أولاً: أن المراد بالسلم هنا التحية، والتحية قد تكون بالسلم وقد تكون بالإشارة، فأنت قد تحيي أحداً بقولك: «السلام عليكم»، وقد تحييه بالإشارة بيدك.

ثانياً: أنه إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فهذا يستقيم إذا كان سكان أهل الجنة من العرب فقط، أما إذا كانوا مختلفين ﴿وَجَنَّةٌ غَرَضُهَا الشَّافَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٢)، فأين تذهب هذه الأمم من غير العرب؟

فهذا الذي يريد أن يُبرز بالطابع العربي يضر العرب ولا ينفعهم؛ لأن هذا لون من القومية المتطرفة الرّعاء، وهو أشبه بنظرية يحيى بن أكرم في الكفاءة. فعندما يبحث فقهاء المسلمين موضوع المسلم الكفوء للمسلم الآخر، فإنهم يحددون أولاً معنى الأراذل في الآية الكريمة: ﴿وَمَا تَرَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾^(٣)، فيقول

(١) فيض الغدير في الجامع الصغير ١: ٤٨٣.

(٢) هود: ٢٧.

(٣) آل عمران: ١٢٣.

يحيى بن أكرم: الرذيل هو: الحجام والكناس من غير العرب. فإذا كانت الرذالة من المهنة، فما الفرق فيها إن زاولها العربي أو غير العربي؟ وإن كانت الرذالة في الجنس فما ذنب هؤلاء الذين منهم المؤمنون كما عند غيرهم.

نعم، من حق الإنسان أن يخدم دمه، ويعتز بجنسه، ولكن ليس معنى ذلك أن تحتقر الآخرين، يقول الإمام السجاد عليه السلام: «العصبية التي يَأْثُمُ عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»^(١). فليس من داع لاحتقار القوميات الأخرى، لأن الله خلق الناس متساوين في أصل المنشأ والخلقة، فلا فرق بين إنسان وآخر في أصل المنشأ والخلقة. فهذا اللون من التعصب لا مورد له.

وقد يقول قائل: لماذا نُصِرَ على اللغة العربية في الدنيا؟

والجواب: أننا نُصِرَ على اللغة العربية في الممارسات العبادية فقط، كعقود الزواج مثلاً، أو عقود البيع والشراء، أو الأذان، أو قراءة الفاتحة. مع أن ذلك ليس عند كل المذاهب الإسلامية، فأبو حنيفة مثلاً يذهب إلى جواز القراءة بالفارسية، وجواز الاختصار على آية واحدة في الصلاة: عملاً بقوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ﴾^(٢)، فتُجزى في الصلاة عنده آية قصيرة مترجمة، ويجوز الأذان كذلك بغير العربية^(٣).

فالشارع المقدس يُصِرُّ على استعمال العربية في بعض الأمور العبادية لحفظ

(١) الكافي ٢: ٣٠٨ / ٧. (٢) المزمل: ٢٠.

(٣) عنه في فتح الغرير ٣: ٣٠٨ - ٣٠٩، بدائع الصنائع ١: ١١٢.

هوية المسلم، وكذلك يصر على عربية القرآن^(١).

المبحث الرابع: حول ترجمة القرآن الكريم وخصوصيات العربية

وهنا لا بد من توضيح هذه النقطة المهمة المختصة بالقرآن وعدم ترجمته إلى لغة أخرى، فاللغة تشترك مع المعنى في إعطاء صورة معينة، فأنت عندما تقرأ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾^(٢)، وتسال: ما الداعي إلى ذكر عبارة ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، في حين أن سقوط السقف لا يكون إلا من فوق؟ والجواب أن هذا التعبير مرتبط بحضارة العرب، فإن أرادوا أن يعبروا عمن أصيب ببلاء فإنهم يقولون: وقع البلاء على رأسه، فأراد القرآن أن يبين أن هؤلاء وقع عليهم البلاء بشدة، فراعى هذا المعنى، وإلا فإنك قد تقول: إن هذه العبارة: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ زائدة في الآية. لكن الصورة لا تتضح وضوحاً كافياً عند عدم ذكر ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾.

مثال آخر: يقول القرآن الكريم عن أهل النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾^(٣)، وكان يمكنه أن يقول: يصرخون بدل ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾، لكن «يصرخ» لا تعطي معنى «يصرخ»؛ لأن الأخيرة فيها صخب وضوضاء وضخامة، فهي تعطي معنى زائداً عن معنى الصراخ^(٤).

ومن ناحية أخرى فإن هناك ألفاظاً لا يقصد بها مدلولها الشائع عند الناس، فالساعة مثلاً، تعني عندنا الآن الآلة المختصة بضبط الوقت، ولكن عندما تقرأ في القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٥) فالمقصود بالساعة هنا: يوم القيامة، فكيف

(١) بما يمكن التعبير عنه أنه اللغة الرسمية للدين فكما أن لكل دولة لغة رسمية وإن تعددت القوميات فيها، فكذلك الإسلام له لغته الرسمية وهي العربية.

(٢) النحل: ٢٦. (٣) فاطر: ٣٧.

(٤) أي كما يقال: زيادة المباني تؤدي إلى زيادة المعاني.

(٥) لقمان: ٣٤.

تنقل هذا اللفظ إلى لغة أخرى؟ هل تقول: إنها آلة ضبط وقياس الوقت؟ أو تقول: إنها القيامة؟

فلا يمكن تغيير ألفاظ القرآن والعبادة، والمطلوب هنا الحد الأدنى لحفظ هوية المسلم إكراماً للغة القرآن، وللموطن الذي هبط فيه القرآن. والحد الأدنى هو أن المسلم يُفترض فيه أن يكون له إمام بالأمور العبادية التي يشترط فيها العربية، وإلا ليس معنى ذلك أننا نُجبر من لا يحسن العربية على الأذان أو حتى بعض العقود. وعلى العموم ففي هذه المسألة تفصيل، ولكنني أحببت أن ألفت إليه النظر فقط.

المبحث الخامس: في تحديد رزق أهل الجنة بكونه ﴿بُكَرَةً وَعَشِيًّا﴾

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، ﴿بُكَرَةً﴾ أي صباحاً، و﴿عَشِيًّا﴾ يعني في الليل، فهل معنى ذلك أن رزقهم أن يأكلوا صباحاً وليلاً فقط؟ وهل معنى ذلك أن الذي يأكل بين هذين الوقتين مذموم؟ عندنا الآن من يأكل ست أو سبع وجبات في اليوم، فهل هذا مذموم؟

الجواب: كلا؛ ذلك أن القرآن عندما يعبر هذا التعبير فهو يراعي حضارة العرب، فالعرب يعتبرون من يأكل في هذين الوقتين منعماً مرفهاً، ذلك لأن يشتهم كانت فقيرة، وقد يضطرون أحياناً أن يشاركوا الحيوانات في طعامها. وقد حدث في سنة من السنين جدب، وذلك أيام عبد الملك بن مروان، فأنحبس المطر، وقل الزرع، فجاء وفد من العرب إلى عبد الملك، فدخلوا عليه، لكنهم هابوا أن يكلموه لعظم ما وجدوا من الأبهة، والمظاهر السلطانية، فقام من بينهم شاب عمره ستة عشر عاماً، فقال: أصلح الله الخليفة، سنة أذابت عندنا اللحم، وسنة أذابت العظم، وسنة ثالثة ذهبت بكل شيء، وعندك فضل من الأموال، فإن كانت هذه الأموال

لله، فلم تحجبها عن عباده؟ وإن كانت لهم فلم لا تدفع إليهم حقهم؟ وإن كانت لك فتصدق عليهم إن الله يجزي المتصدقين. فقال عبد الملك: والله ما تركت لي مفرأً. فأمر لهم بمئة ألف درهم، ثم سأل الشاب: ألك حاجة؟ فرد عليه: أمألي دون المسلمين فلا^(١).

فكان هؤلاء إذا ضئت عليهم السماء بالمطر يقتلهم الجوع، فكان من يأكل في الصباح والليل يُعبر عنه بالمنعم، فالقرآن جاراهم في حضارتهم، فقال: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

هذا إذا كان المقصود بالرزق الأكل، وإلا فقد يكون المقصود بالرزق غير الأكل، لأننا لا نستطيع أن نعرف كل شيء عن أحوال ما وراء الطبيعة، ولا نستطيع أن نعرف بالتفصيل حياة الإنسان في الجنة، وهل إنه يأكل أو لا؟ وهناك من يقول: إنه يأكل الثمار، وورد في القرآن: ﴿وَفَاجِحَةٌ مِّمَّا يَخْفِيُونَ﴾ وَلَحْم طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ^(٢)، ففي هذه الآية قسم من أقسام الرزق، ولكن هناك رزق آخر، فقد ورد في بعض الروايات أنه لا نعيم أعظم من نظرهم إلى وجه الله عز وجل، يعني انتظارهم رحمته وعطاءه. فالوجه هنا لا بمعنى الجارحة، فالله منزّه عن الجارحة، وإنما هذا من نظير قولك لأحد: «إني أنتظر وجهك»، تعني بذلك «أنتظر ذاتك، أو عطاءك». فالقرآن يقول: إن هؤلاء يشعرون بنوع من النعيم وهو رضوان الله تعالى، والقرب منه، والاستظلال بظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

وهذا هو المعنى الذي كان الإمام الحسين عليه السلام يدعو له دائماً، فكان عندما يمرّ على المصارع يقول: «اللهم إن كنت حبست عنا النصر عاجلاً فاجعل لنا ولشيعتنا

(١) جمهرة خطب العرب ٣: ٢٦٠، البيان والتبيين ١: ٢٦٧، المستطرف ١: ١٠٨.

(٢) الواقعة: ٢٠ - ٢١.

منزلاً كريماً في مستقر رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك،^(١)

وعند تدبر القرآن نلاحظ أنه عندما يعدّد نعيم الآخرة فإنه يختتمه بقوله:
﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢)

كان أحد الصوفية عندما يحين موعد الطعام أو الشراب ويدعئ له يقول:
اتركوني فلست بحاجة إلى الطعام أو الشراب. فقد يشعر بلذّة لا حدود لها في
ساعات الخلوة مع الله تبارك وتعالى.

والكثير من الناس ممن هام بحب الله تكون عنده اللذة التي لا تعادلها لذة في
أن يكون في رحاب الله وكنفه، فينسى كلّ شيء. يروي نافع بن هلال يقول: مررت
على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفّته تتحركان، وقد مرّ عليه في حالة كانت فيها
الجراحات والألم النفسي والجسدي تستوعبه، فيسمع أصوات عائلته ترتفع،
ويرى الخيل قد هجمت على المخيم والجراحات أخذت منه كل مأخذ، والقتلى
إلى جانبه. كلّ هذا كان يراه وهو ما بين الألم النفسي والجسدي، ولكنه مع ذلك
كان منغمراً بحب الله، يقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا وأيتممت العيال لكي أراكا
قلو قطعنتني بالحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا^(٣)

كان نافع يقول: إن كان يدعو علينا هلكنّا ورب الكعبة... دنوت إليه لاسمع ما

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.
(٢) التوبة: ٧٢.

(٣) لم نعر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لابن إبراهيم بن أدهم. تاريخ
مدينة دمشق ٦: ٣٠٦، وقد مرّ ذلك في ج ٢ ص ٣٣٧ من كتابنا هذا.

يقول، فإذا به يقول: «صبراً على قضائك يارب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك». وأصوات عياله تتأهى إليه من داخل الخيمة... نور عيني يا حسين، يا ابن أُمي يا حسين، إن كنت حياً أدركنا، هذه الخيل قد هجمت علينا، وإن كنت ميتاً فأمرنا وأمرك إلى الله^(١).

أناديك ما يشجيك انداي	ولا تسمع اعتابي ونخوي
المن بعد يحسين منواي	ظني انقطع وانقطع رجوي
شتهيس بروحي بونتك هاي	يكلها ضهدي السهم بحشاي
وعادة المصوب ينسكه الماي	الماي ويسنه بولية اعداي

هذه هي التضحية التي قدمها الإمام الحسين عليه السلام، وتضحية زينب عليها السلام لا تقل عنها؛ لأنها صمدت أمام أعتى المصائب.. لم يبق عندها في اليوم العاشر من المحرم ولد ولا أخ ولا ابن عم، واليتامى يسحبون رداءها، والنار تلتهب في المخيم:

مشى الدهر يوم الطف أعمى فلم يدغ	عماداً لها إلا وفيه نغثاً ^(٢)
وجشمتها المسرى ببيداء قفرة	ولم تدرك قبل الطف ما البيد والسرى

يرقُّ لها الشوط إذ يلتوي عليها ويقسو لها الجأذ



(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٥٧، ينابيع المودة (٢) ديوان السيد حيدر الحلبي: ٧٨، ٨٣: ٣.

الإسلام والإيمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ﴾ اَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
تُخْبَرُونَ ﴿١﴾

مباحث النص الشريف

المبحث الأول:

يتضح من الآية الكريمة الأولى أن الإسلام دون الالتزام بالإيمان بمضامينه
فكراً وتطبيقاً قد لا يُعطي المنزلة المرجوة، صحيح أننا في الدنيا نُرتب أحكام
الإسلام على من يشهد الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً
رسول الله»، ولكن هل يترتب على مجرد ذلك ما أعدَّ الله لعباده من ثواب ومنزلة
مأمولة؟ هناك من يتشهد بالشهادتين لكنه لا إيمان له بمضامين الإسلام، وحتى لو
قدر أنه أقرها نظرياً، لكنه بعيد عن التطبيق. ولتوضيح ذلك نقول: هل يتعامل أحدنا
مع أفراد أسرته المسلمة ضمن ضوابط الإسلام؟ فيعامل زوجته ووالده ووالدته
بمثل ما رسمه الإسلام؟ كلا، إنه يتعامل مع زوجته بما في ذهنه من ميراث

اجتماعي، ويتعامل مع أبويه بما عنده من تراث اجتماعي أيضاً، أما تطبيقاً لما جاء به الإسلام فليس من ذلك شيء. إذن ما فائدة الإسلام؟ إذا قلنا: إن فلاناً مسلم وهو لا يطبق الإسلام، فما فائدة الألفاظ؟

فلذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، فهو يريد من الفرد المسلم أن يكون عنده إيمان بالآيات تطبيقاً وفكراً؛ لكي يحصل على الأثر الآتي في الآية التالية.

وبالجملة يُفترض بالمسلم ألا يعيش الإسلام على لسانه فقط، بل عليه أن ينزل إلى ساحة التطبيق العملي ضمن نطاق الأسرة والمجتمع والسوق، فهؤلاء الأفراد بهذه الصفة هم الذين يأتيهم النداء: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ﴾.

المبحث الثاني: هل في تقديم الذكر تفضيل له على الأنثى

وأول ما يلفت النظر في هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فما هذا الترتيب: ﴿أَنْتُمْ﴾ وبعدها ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ مع أن المخاطب بهذا الخطاب هم الجنسان من المسلمين (الذكور والإناث)؟ ثم هل في هذا الترتيب تفضيل لأحد الجنسين؟ وهل في تقديم الذكر على الأنثى في قوله تعالى مثلاً: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١) تفضيل للذكر كما هنا في هذه الآية؟ أي هل في تقديم ﴿أَنْتُمْ﴾ على ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ تفضيل؟

الجواب: أن المقصود هنا ليس التفضيل، وإنما هو التنظيم، فالقرآن الكريم يُعنى بالشكل كما يُعنى بالمضمون، ويحرص على الشكل الخارجي في كثير من آياته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِيَانًا

مَرْصُوصٌ^(١)، فهو يهتم في كون الجمع الخارج للقتال صفاء؛ لأنه يحرص على التنظيم، والحرص على التنظيم هو من المظاهر الحضارية الحديثة. ويوجد الآن ما يسمى بـ (فن الديكور)، فعندما تدخل إلى محل لبيع السلع، فلا تستطيع الحصول على السلعة المطلوبة إذا لم تكن معروضة أمام عينيك. فالعالم المعاصر يهتم بالهيئة والشكل.

وهذا المعنى يظهر في كثير من الآيات والروايات، حيث إن الله تعالى يريد النظام، والقرآن الكريم يهتم بالشكل الخارجي كما يهتم بالمضمون، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا^(٢)؛ لأن النظام يتجلى في المضمون ويتجلى في الشكل. فعندما يقول: ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فليس في ذلك تفضيل؛ لأن النتيجة واحدة، وهي دخول الاثنين إلى الجنة. فالمسألة إذن هي التعويد على النظام ليس إلا، وما من شك في أن التعويد على النظام هو مظهر حضاري يعنى به الإسلام، وأنت ترى الآن أن الأمم الراقية المهذبة تتعود على النظام في كل تصرفاتها.

أما التساؤلات التي تثار في تقديم الذكر على الأنثى، أو في تقديم السماء على الأرض في قوله تعالى: ﴿خَلَقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ^(٣)، فغير واقعية، غاية ما في الأمر هو التنظيم في الأداء والصورة كما قلنا.

المبحث الثالث: في معنى ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾

تقول الآية الكريمة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾، فما معنى الأزواج هنا؟ للمفسرين في معناها ثلاثة آراء:

(٢) الفجر: ٢٢.

(١) الصف: ٤.

(٣) البقرة: ١٦٤.

الرأي الأول: أنها الحور العين

ونحن لا نستطيع أن ندخل في تفاصيل هذا الأمر؛ لأنه خارج عن نطاق إدراكنا، وكل ما كان من شأن الجنة والآخرة فهو كذلك، فالجنة عالم لا نستطيع أن نعرف تفصيلاته، وهكذا كل قضايا ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا). فنحن نتوقف في هذه الأمور عند قول المعصوم عليه السلام، أما رأي المفسر غير المستند إلى قول المعصوم عليه السلام فلا نعبأ به، ولا نقبله؛ لأن عالم الآخرة عالم خارج عن إدراكنا ووعينا.

وهنا تُثار تساؤلات منها أن المؤمن إذا كانت له زوجة مؤمنة في هذه الدنيا، ثم دخلت معه الجنة، فهل تتزوج زوجاً من الحور العين هناك؟ وهل يتزوج الزوج من الحور العين هناك؟ وهل يُشير هذا المعنى سوء العلاقة بينهما هناك؟ فهذه المرأة المؤمنة هل تطيق أن ترى زوجها متزوجاً هناك؟

الإجابات عن هذه الإشكالات لم تتكفل بها النصوص، فالقرآن الكريم لم يبين هذه التفاصيل، أما الروايات؛ فهناك روايات نادرة في هذا المجال، وليس معلوماً أن هذه الروايات يُعتمد عليها، فهي بحاجة إلى بحث في السند والمصنوع. فالمسألة ليست سهلة كما ترى؛ ولذا فإننا نتوقف على البيان الوارد من المعصوم عليه السلام في قضايا الآخرة وما وراء الطبيعة.

وهنا من المفسرين من يُرسل هذا المعنى، فيقول: قبل في ذلك؛ أزواجهم من الحور العين.

إشكال حول هذا الرأي

وهنا يثار إشكال وهو أن الحور العين لما كانت داخل الجنة فما معنى أن يقول القرآن الكريم: ﴿ادْخُلُوا﴾؟ وبعبارة أخرى فما معنى ﴿ادْخُلُوا﴾ هنا؟ وهل يقال

للدخل: ادخل؟ إن هذه الكلمة تقال لمن هو خارج، أما الداخل فلا يقال له: إذ لا معنى لأن نقول له: ادخل؟

فكلمة ﴿ادْخُلُوا﴾ هنا قرينة على أن الأزواج هنا لا تعني الحور؛ لأن فرض المسألة أن الحور العين موجودات داخل الجنة.

وفي هذا الشأن وردت أعداد هائلة من الروايات، لكنها لا تصمد أمام المناقشة، وفيها من التفصيل ما لم ينزل به الله من سلطان، وقد جاءت هذه الروايات - مع الأسف - من العناصر غير المسلمة التي دخلت إلى الإسلام فجاءت بما تحمله من روايب في أديانها السابقة، ثم أدخلت تلك الروايب في الفكر والتراث الإسلامي. فمن الأمور المسلمة أن المهاجر إلى بلد جديد، لا ينسجم بسرعة مع تقاليد وثقافات ذلك البلد؛ وإنما يحتاج إلى مدة طويلة، وأجيال متعاقبة لكي ينسى ما يحمله من تقاليد وثقافات خاصة به. فالمسألة هنا كذلك، إذ ليس من المعقول أن ينسجم هذا المسلم الجديد مع الإسلام بسرعة، ويتخلى فجأة عما كان يحمله من أفكار وتعاليم في دينه السابق.

وهذا ما اصطُِّلِح عليه فيما بعد بـ (الإسرائيليات)، وهناك جملة من الروايات والآراء من هذا القبيل، وهذه لا يمكن قبولها في حال من الأحوال، فحينما نجد مثلاً من يقول في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُرِّيَّتَنَا وَإِنَّا لَكَا﴾^(١): إن زواج الذكر من الذكر والأنثى من الأنثى جائز، فلا يمكن أن نقبله؛ لأن هذا ليس من الإسلام قطعاً، وإنما جاء من بيئة من تَبَنَّى هذا الرأي قبل دخوله في الإسلام.

وقد تعب العلماء تعباً شديداً في ملاحقة الإسرائيليات وأصحابها من أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهم ممن كتب في التفسير والتاريخ كتابات لا

تسرّ العين والفكر أبداً. فتجد هنا روايات غاية في الغرابة، ومنها ما يصور أن هذا الداخل إلى الجنة ليس له من عمل سوى الجنس.

يقول أحدهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾^(١): إن شغلهم هو اقتضاض العذارى صباحاً ومساءً وفي كل حين^(٢). وهذا من التفكير العجيب؛ لأن هذا القائل لا يعرف اللذة إلا من هذا الطريق البهيمي، ونحن قد نجد من يعتبر هذه اللذة طريقاً بهيمياً حتى في الدنيا. فلماذا لا تكون هناك لذات روحية ممتعة، كالقرب من الله عز وجل والفوز برضوانه؟

الرأي الثاني: أنها الزوجة المؤمنة في الدنيا

وليس من شك أن المرأة المؤمنة الملتزمة بأداب الزواج كما رسمه الله تعالى هي من الأزواج المطهرة اللاتي قال عنهن القرآن: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾^(٣). فتقول الروايات: إن الله تعالى يصلحهم ويعيدهم شبانا.

وهذا هو المعنى الصحيح المناسب في هذا المقام، فالمعنى هنا أن سعادة المؤمن لا تتم إلا أن يكون مع زوجته المؤمنة.

إشكال حول هذا الرأي

ويثار هنا أيضاً هذا الإشكال وهو أنه إذا تزوجت المرأة المؤمنة هنا في الدنيا أكثر من زوج، فمع من تكون في الجنة؟ فيجيب المفسرون عن ذلك بقولهم: إنها مع من تختار من أزواجها. وهذا الرأي إلى هذا الحد لا مؤاخذه عليه، فالمؤمن مع زوجته المؤمنة هناك. ولا تدخل المرأة المؤمنة الجنة إلا بعملها لا إكراهاً لزوجها

(١) يس: ٥٥.

(٢) جامع البيان، المجلد ١٢، ج ٢٣: ٢٢ / ٢٢٣٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٤٣.

(٣) البقرة: ٢٥.

لأنه مؤمن، قال تعالى: ﴿أَمْرَأَةٌ نُوحٍ وَأَمْرَأَةٌ لُوطٌ حَاثَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ضَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(١).

فالأمر ليس بالتبعية وإنما هو بالعمل. يقول ﷺ: «اعملوا، والله لا أغني عنكم من الله شيئاً»^(٢).

الرأي الثالث: أنها الأصناف التي ينتمون إليها

ومعنى ذلك أننا في الدنيا مثلاً لدينا أفكار متقاربة أو طباع متقاربة أو مهن متقاربة، وهؤلاء يضمهم عنوان واحد، أو تراهم يميلون إلى فكرة واحدة؛ فمثلاً هناك من يحب الخير، وهناك من يحب الشر والجريمة، فهؤلاء تجمعهم الجريمة، وأولئك يجمعهم الخير. فهؤلاء أزواج بمعنى القرناء.

وقد دأب القرآن الكريم والحضارة الإسلامية على تصنيف الناس تبعاً لذلك، ونذكر هنا نصوصاً موضحة لذلك:

أولاً: يقول المفسرون: إن النبي ﷺ لما أسري به إلى السماء رأى أناساً على هيئة القردة، فسأل جبرئيل عليه السلام: «من هؤلاء؟». قال: «الْقَتَاتُونَ». يعني بذلك النمامين، الساعين بين الناس بالشحناء والبغضاء.

فالنمام ليس له عمل سوى أن ينقل من هذا لذاك، ويسعى بين الناس بالفساد والبغضاء، ولا تجد كلمة طيبة على لسانه أبداً، ولا تجد إلا كلمة السوء ينقلها ويحملها بين الناس. وهو عندما يتم فإنما يريد التقرب ممن تم إليه، فهو يبين له أنه دافع عنه أمام فلان عندما ذكره بسوء. وهذه خصلة من خصال القرد؛ فكان الجزاء من جنس العمل الذي مارسه في الدنيا. وهؤلاء القتاتون جمعهم الفكر والخلق

والصنف الواحد فهم أزواج حشروا على هيئة ما يعملون بعمله .

ثانياً: يقول المفسرون أيضاً: إن رسول الله ﷺ لما أسري به رأى أقواماً يمضغون ألسنتهم فتسيل قيحاً، فيتقذّرهم أهل الجمع، فقال ﷺ: «من هؤلاء يا جبرئيل؟». قال: «هؤلاء الخطباء والعلماء الذين خالفت أقوالهم أفعالهم».

ومن النوادر التي تُذكر في هذا المجال أن سقّاء وجد عالماً على باب سلطان فقال له: لدي سؤال عن حكم شرعي وأحب أن أسألك. فقال العالم مستنكراً: وهل هذا مكان للسؤال؟ فردّ السقّاء: وهل هذا موضع للعلماء؟

لقد أراد هذا السقّاء أن يقول له: أنت عالم، ولا يليق بك أن تتسكّع على أبواب الظلمة، فأنت تنهانا أن نأتي أبواب الظالمين ونركن إليهم، وتذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(١) ثم تأتي أبوابهم وتركن إليهم؟ فهؤلاء الخطباء والعلماء الذين يأمرّون الناس بالبر، وتخالف أقوالهم أفعالهم تسيل ألسنتهم قيحاً، ويتقذّرهم أهل الجمع.

ثالثاً: ويقول المفسرون أيضاً: إنه ﷺ رأى قوماً مقطّعة أيديهم وأرجلهم، فسأل جبرئيل عليه السلام عنهم فقال: «هؤلاء الذين يؤذون جيرانهم»^(٢).

وهذه المشكلة أخذت تتضخّم في العصر الحديث، فقد كانت المنازل في القديم متباعدة، أما الآن فأصبح الناس يسكنون عمارات كبيرة، فيسكن بعضهم قرب بعض، وهنا يتضاعف أذى الجار لجاره، فمنهم من لا يهدأ صباحاً ولا مساءً. فهؤلاء يحشرون مقطّعة أيديهم وأرجلهم؛ لأن الجار ينبغي أن يكون عضداً لجاره، فهو أشبه بيده ورجله، لذا كان جزاؤهم من نوع العمل الذي مارسوه في الدنيا.

(١) هود: ١١٣.

(٢) انظر حول مسألة الإساءة والمعراج في بحار الأنوار ١٨: ٢٨٢ - ٤١٠.

فهذه الأصناف الثلاثة وغيرها أزواج، بمعنى القرناء المتشابهين المتقاربين في العمل أو السلوك، أو الطباع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۖ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(١)، ومعنى ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ هنا: أن القرين إلى جنب قرينه، فهؤلاء صنف واحد، وحقل واحد هو الحقل الإجرامي.

وهذه نظرية ضخمة ومهمة جداً، فعلماء الفقه الجنائي ينتقدون الآن نظرية السجون باعتبار أن من يخطئ خطأ بسيطاً كمن يخالف التسعيرة فإنه يؤخذ للسجن إلى جنب المجرمين المحترفين من السراق والقتلة، وبهذا سوف يتلوث هذا المخطئ بأجواء الإجرام، فهو في مدرسة لتعليم أساليب الإجرام. فينبغي أن يكون للسراق مكان معين، وللقتلة مكان معين، ولأمثال هذا المخالف لقانون التسعيرة مكان معين وهكذا، أما إذا جمعناهم معاً فإننا نعرض بذلك هذا المخالف للانهيار والدمار والسقوط في الجريمة.

فالقرآن الكريم يبين لنا أن المجرمين مقرنين، فهم أصناف متنوعة؛ فالقاتل مقرن إلى القاتل، والسارق إلى السارق، وهكذا.

فمعنى ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي أصنافكم، وهذا المعنى واضح حتى في الدنيا، فملاحظ أن هنا في الدنيا كل صنف يميل إلى صنفه، ويسعد بهم ويأنس بالاجتماع بهم، فالعالم يأنس بالعلماء والتاجر بالتجار، وهؤلاء أزواج بمعنى متشاكلين^(٢)، ولذا نقول عن الشئيين المتشابهين: إنهما زوج.

(١) إبراهيم: ٤٨ - ٤٩.

(٢) قيل: الطيور على أشكالها تقع. روضة العقلاء ١: ٨-١٠، السيف الصقيل: ٩٣.

المبحث الرابع: في معنى ﴿تُخْبِرُونَ﴾

ثم قال تعالى: ﴿تُخْبِرُونَ﴾، وفي هذا المعنى ثلاثة آراء أيضاً:

الرأي الأول: أنه معنى تكرمون

فالعطاء قد لا يشتمل على الإكرام، فما كل من أعطى أكرم المعطى، فقد يُعَرِّضه لبيع ماء وجهه أو للامتهان أو لكلمة نابية أو لموقف خشن، فلا يحصل الإكرام بمعناه. يقول أحد أصحاب الإمام الرضا (عليه السلام): كنت جالساً عند الإمام الرضا (عليه السلام)، فدخل عليه رجل طوال آدم، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله، رجل من محبيك ومحبي آبائك وأجدادك (عليه السلام)، مصدري من الحج، وقد افتقدت نفقتي، وما معي ما أبلغ مرحلة، فإن رأيت أن تُنهضني إلى بلدي ولله علي نعمة، فإذا بلغت بلدي تصدقت بالذي توليني عنك فليست موضع صدقة. فقال (عليه السلام) له: «اجلس رحمك الله». وأقبل على الناس يحدثهم حتى تفرقوا فقال (عليه السلام): «أتأذنون لي في الدخول؟». فقال له سليمان: قدم الله أمرك. فقام فدخل الحجرة وبقي ساعة ثم خرج ورد الباب وأخرج يده من أعلى الباب وقال: «أين الخراساني؟». فقال: ها أناذا. فقال: «خذ هذه المثني دينار واستمن بها في مؤونتك ونفقتك وتبرك بها، ولا تُصَدِّق بها عني، واخرج فلا أراك ولا تراني». ثم خرج، فقال له سليمان: جعلت فداك لقد أجزلت ورحمت، فلماذا سترت وجهك عنه؟ فقال: «مخافة أن أرى ذل السؤال في وجهه، لقضائي حاجته. أما سمعت حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله): المستتر بالحسنة يعدل سبعين حجة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له؟ أما سمعت قول الأول:

إذا جفته يوماً إليه بحاجة رجعت إلى أهلي ووجهي بمانه^(١)

(١) الكافي ٤: ٢٤ / ٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٤٧٠.

وهذا المعنى هو الذي يذكره أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً، فَأَمَّا مَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ»^(١). فمعنى تُحْبِرُونَ هنا أي تكرمون. فالطلب من الله ليس فيه ذل أبداً، فإن حصل هذا المعنى عند العباد فلا معنى له عند الله، يقول الشاعر:

رَبِّي رُوحِي طَلِيقَةٌ فِي مَذَاجَا	تَكُ وَالْجِسْمُ مُصَفَّدٌ مَكْبُولُ
بَعْدَ الْفَرْقِ بَيْنَ رُوحِي وَجِسْمِي	جِسْدِي آثَمٌ وَرُوحِي بِتَوَلُّ
وَأَنَا السَّائِلُ الْمَلْعُ وَيَجْلُو	وَحَشَّةُ الذُّلِّ أَنَّكَ الْمَسْزُورُ

فليس من ذل في أن تمد يدك إلى الله عز وجل، فعطيا الله ليس فيها منُّ أبداً.

الرأي الثاني: أنه بمعنى تفرحون

فليس كلُّ مُعْطًى يشعر بالسعادة، فقد تدخل في الدنيا إلى بيت من البيوت الفخمة ولا تجد فيه من يشعر بالسعادة أبداً، فتشعر كأنك في مقبرة، فالعلاقات فيه متوترة، والسعادة بعيدة عنه، والهموم متجمعة فيه. وقد تدخل بيتاً متواضعاً فتجد السعادة في كلِّ ناحية من نواحيه. فالسعادة لا علاقة لها بالأموال، فقد تجد من يعيش على الذهب وفي داخله مأتم، وقد تجد من يعيش على رغيف من الخبز ووجهه يطفح بشرا وطلاقة فلا تطلب السعادة بالمال، ولا بالجاء:

وَالَّذِي نَفْسُهُ بَغِيرُ جَعَالٍ لَا يَعُدُّ الْحَيَاةَ شَيْئاً جَمِيلاً

ولهذه تأتي الإرشادات بالقناعة، فليس من شك أنك لو شئت أن يعطيك الله ما يكفيك، فالدنيا كلها لا تكفيك، وإذا أردت ما يكفيك حقاً فما عليك إلا بالقناعة،

فهي «كنز لا يفنى»^(١).

ويقول أمير المؤمنين رحمه الله: «القناعة كنز لا يفنى»^(٢). وليس معنى القناعة الكسل، لكن الإنسان إذا وصل إليه ما أعطاه الله عز وجل فعليه أن يقنع، ولا يهلك نفسه حسراتٍ على الدنيا. هذا هو معنى القناعة، فالقناعة تخلق عند الإنسان شعوراً بالسعادة، أما الجشع فيجعل الإنسان يكذب في هذه الدنيا ثم يخرج وهو غير راضٍ.

الرأي الثالث - وهو رأي غريب - : أنه تحبرون بلذة السماع

ومعنى ذلك أن كل عضو من أعضاء الإنسان له لذة خاصة به، ولذة الأذن السماع، فهي تلتذ بالنغمة، فهؤلاء الداخلون للجنة هم وأزواجهم يحبرون بهذه اللذة، وهي الموسيقى، فهم يسمعون الأنغام والموسيقى هناك.

يقول عبد الله بن عباس: لا تظنوا أن الأسماء التي عندكم هنا في الدنيا، وذكر القرآن أنها في الجنة هي بذاتها فيها، بل ليس عندكم منها هنا إلا الأسماء، أما في الجنة فهي تختلف عما عندكم^(٣). فعندما يقول القرآن ﴿أَنْهَارٌ مِنْ خَمِرٍ﴾^(٤) فليست كالخمر التي عندكم في الدنيا، وعندما يقول: إن في الجنة لبناً فليس كلبنكم هذا. وهكذا في الغناء والموسيقى، فهي هناك ليست كما هي هنا في الدنيا، فلو كان مثل هذا الغناء الذي في الدنيا، فلماذا يحرم الله هذا الغناء؟

في حد الغناء

وبما أننا مررنا بهذه النقطة التي هي محل ابتلاء، فدعنا نوضح ما تحتاج إليه من

(١) مشكاة الأنوار: ٢٢٣، المهود المحمدية: ١٢٣.

(٢) روضة الواعظين: ٤٥٤.

(٣) نسخة وكيع: ٥٤، تفسير الثعالبي ١: ٢٠٠، فتح القدير ١: ٥٥.

(٤) محمد: ١٥.

توضيح فنقول: ما هو تعريف الغناء؟ الغناء: هو الصوت المرجع المطرب. دخل عبد الأعلى على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: يا بن رسول الله، إن القوم يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يجوز أن يقول القائل: جئناكم جئناكم حيونا حيونا نحبيكم». يعني بذلك أغنية من هذا النوع، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «كذبوا، إن الله تعالى يقول: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴿١﴾ (٢)».

ونفهم من الرواية أن المحرم هو الكيفية الصوتية لا الكلامية، فالمفردات ليس فيها محرم كما نرى في الرواية، فالإنكار على الأداء الغنائي لهذه الألفاظ. فالغناء إذن: الصوت المشتمل على ترجيع مطرب، أي إنه الطريقة التي تؤدي بها الألفاظ.

وهناك روايات تذهب إلى أن الغناء في المفردات نفسها لا في الصوت فقط، فهناك كلمات تخدش الحياء، كمن يصف مفاتن المرأة ومحاسنها على وجه التفصيل بما يخدش الحياء، سأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣) قال الإمام عليه السلام: «الرجس هو الشطنج، وقول الزور هو الغناء» (٤).

ونفهم من هذه الرواية أن الغناء هو التلفظ بكلمات الزور أو الكلمات التي يتداولها أهل الفسوق.

(١) الأنبياء: ١٧ - ١٨. (٢) الكافي ٦: ٤٣٣ / ١٢.

(٣) الحج: ٣٠.

(٤) الكافي ٦: ٤٣٥ / ٣، ٤٣٦ / ٧، ومثلها قوله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الفرقان: ٧٢. قال عليه السلام: «الغناء». الكافي ٦: ٤٣١ / ٦، ٤٣٣ / ١٢.

وهناك قسم ثالث من الروايات يقول: الغناء يصد عن سبيل الله فليس المعتبر فيه الصوت ولا الكلام، إنما الغناء ما يشغل عن طاعة الله^(١)؛ فهو محرم بهذا اللحاظ. وقسم رابع من الروايات ينصبُّ على ما صاحب الغناء من آلات الطرب والجواري والرقص وغير ذلك^(٢).

ويذهب أغلب فقهاءنا إلى الكيفية والأداء، أي الصوت المشتعل على الترجيع المناسب لآلحان أهل الفسوق، وهذا الموضوع أشبعه الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله في المكاسب^(٣)، وهناك مؤلفات أخرى^(٤) أيضاً استوعبت كل جوانبه.

أما عند المذاهب الإسلامية الأخرى فهو مكروه^(٥)، وبعضهم يستدل على الإباحة بما ورد من أن حسان بن ثابت مرَّ على جارية تغني فاستمع إليها، ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعلي حرج في ذلك؟ قال ﷺ: «لا حرج عليك»^(٦).

وينقل ابن قدامة في (المغني)^(٧) عن أحمد، وأبو إسحاق الشيرازي في (المهذب) عن الشافعي إنه لا يرى كراهة في الغناء أبداً، فينقل عن الشافعي قوله:

(١) الإرشاد ١: ٢٩٧. (٢) بحار الأنوار ٧٦: ٢٤.

(٣) انظر المكاسب المحرمة ١: ٢٨٥ - ٣١٥ / المسألة: ١٣.

(٤) انظر مسالك الأفهام ١٤: ١٧٩ - ١٨١، المغني ١٢: ٤١، ونقل إباحته عن أبي بكر الخلف وعبد العزيز.

(٥) المدونة الكبرى ٤: ٤٢١، وفيها: أن مالكا يكره بيع كتب الفقه ويكره الغناء.

(٦) قريب منه في كنز العمال ١٢: ٣٢٨ / ٣٦٩٥٣، وفيه: عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج وقد رش حسان فناء أظمة وأصحاب رسول الله ﷺ ساطان، وبينهم جارية لحن يقال لها سيرين معها مزهر لها تغنيهم وهي تقول في غنائها:

هل علي ويحكم إن لهوت من حرج

فتبسم الرسول ﷺ، وقال: «لا حرج».

(٧) المغني ١٢: ٤١، ٤٢، وفيه أن أحمد سمع غناء عند ابنه ولم ينكر عليه.

ما رأيت أحدا من علماء الحجاز يُكرِّه الغناء.

أما الغزالي فقد عقد فصلاً كبيراً في الباب الأول من كتابه (إحياء علوم الدين) في باب الوجد والسماع، يقول: إن حرمة الغناء لا مدخل للعقل فيها، فنرجع فيها للنص الشرعي، وليس هناك نص شرعي على حرمة، وليس لدينا قياس يُحرّمه. ثم يستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾^(١)، فيقول: إن الغناء زينة، ويستدل بمفهوم الآية: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٢). فعندما يكون صوت الحمار أنكر الأصوات فهذا يعني أن الأصوات الجميلة يسوغ سماعها.

ويقول الغزالي أيضاً: إن الله أباح أشياء معينة لأعضاء الإنسان، فالعين تلتذّ بالمنظر الجميل وليس في ذلك حرام، والأنف كذلك يشم أنواع الروائح ويلتذّ بها وليس في ذلك حرام، وكذلك اللسان وغيره. فالأذن كذلك تسمع تغريد البلابل، وأصوات الطيور، وخرير الماء فتلتذّ بذلك، فلماذا يحرم سماع الغناء؟ ومن جملة استدلالات الغزالي أيضاً أن النبي ﷺ عندما دخل المدينة في هجرته استقبلته نساء المدينة وبأيديهن الدفوف، وقد صعدن إلى السطوح وهن يرددن:

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا	جنت بالامر العطاع

ولم ينهين النبي ﷺ عن ذلك، وفي هذا دليل على الإباحة. هذه وجهة نظر الغزالي.

أما فقهاء الإمامية فهم مجمعون على الحرمة^(١)، وكثير من فقهاء المذاهب الأخرى ينفردون أيضاً في القول بالحرمة^(٢).

ويقال للغزالي: هل كان في ذلك الشعر والأصوات ترجيع مطرب يقتضي الحرمة، أو كان ضرباً بالدفوف للتعبير عن الفرحة؟ وعلى العموم فنحن نجهل الأجواء التي كانت هناك عند دخول النبي ﷺ فلا يمكننا الجزم بكون ذلك غناء كي نستدل على الحرمة أو الإباحة.

نعم، إن المدينة فرحت فرحاً عظيماً بدخول النبي ﷺ، ولم يدخل النبي ﷺ حتى لحق به علي عليه السلام. فقد كتب ﷺ لعلي عليه السلام: «احمل إليّ الفواطم». فخرج أمير المؤمنين عليه السلام يقود طعينة الفواطم، وهن: فاطمة بنت رسول الله ﷺ قبل أن يتزوج بها أمير المؤمنين عليه السلام، وفاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب، وكان معه أيمن بن أم أيمن، وأبو واقد الليثي، فلما لحقته قريش ألح أبو واقد الليثي على النياق - وكان سائقها - لأنه خاف قريشاً وسطوتها، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «رفقاً بالفواطم». فإِنَّهن لم يتعودن السير والألم والشمس^(٣). فأخذ هذا المعنى السيد حيدر الحلبي عليه السلام فوجهه إلى حادي نياق الطف، فخاطبه:

فترفق بها فما هي إلا نأظّر دامعاً وقلباً مروغاً
لا تسفها جذب البرى أو تدري ربّة الخدر ما البرى والنسوغ

(١) النهاية: ٣٦٥، تحرير الأحكام ٢: ٢٥٩، إيضاح الفوائد ١: ٤٠٥.

(٢) المجموع شرح المذهب ١٢: ٣٢٢، نقله عن مالك، البحر الرائق ٨: ٣٦، حاشية رد المحتار

٤: ٥١٦. (٣) انظر شجرة طوبى ١: ٦٤ - ٦٦.

وقد نظر الإمام السجاد عليه السلام ليلة، فوجد عمته تصلي من جلوس، فقال لها: «يا عمّة، هذا خلاف عادتك، فأنت صليت واقفة حتى في الليلة الحادية عشرة من المحرم؟». قالت: «يا بن الأخ، من الضعف الذي ألمّ بي»:

شصار بأهالينا ونسونه بديار غربه ضيعونه

نشجي القعب ما يرحمونه

فترفق بها فما هي إلا ناظر دامع وقلب مروغ

ندبت نديها على البين ثكلى ودم الدمع بالخدود استهلا

يا مُجدُّ السرى رويدك مهلا (فترفق بها فما هي الا

ناظر دامع وقلب مروغ)



فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى

الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: لمحات من جهاده عليه السلام بالسيف

الجهاد كما يُعرّفه الفقهاء هو: بذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله ^(٢)، وهو مشتق من الجهد والتعب الذي يبذله الإنسان في سبيل ذلك. وانطلاقاً من هذا فإن أي نشاط يستهدف إعلاء كلمة الإسلام، وخدمة دين الله يكون جهاداً. فإذا وُجد مضمون التعريف السابق للجهاد في أي عمل فإنه يعتبر جهاداً.

ولعل الجهاد هو أبرز الملامح في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وسوف نتناول هذا الجانب من جوانب حياته؛ لنرى كيف أن الجهاد انبسط على كل أبعاد حياته؛ فهو مجاهد بالسيف والقلم والكدح والكدّ على العيال.

ولم يكن علي عليه السلام يرى أن عياله من يدور عليهم سور بيته، إنما كان يرى المسلمين عياله. فدعنا ننظر بعض صفات الجهاد في حياته: فعلي عليه السلام لازمه

الجهاد من بواكير حياته، وشاء الله له أن يقترن بالدعوة الإسلامية ولا يبعد عنها. والدعوة الإسلامية لم تكن تلاقي طريقاً سهلاً سحاً، وإنما كانت تحتاج دائماً للجهاد؛ لما كانت تواجه من صد من المشركين، فانبى هذا الرجل للجهاد منذ أن ترعرع.

جاء الإسلام وعلي صبي، فكان يضع يده على حسامه ويمشي وراء النبي أينما ذهب، فيذود عنه المشركين المعتدين.

ثم نزلت أول سورة من القرآن الكريم، فوعاها علي بن أبي طالب عليه السلام، وخرج رسول الله ﷺ يبلغ بها فتبعه علي عليه السلام ويده على قائم سيفه. ومرت الأيام، ولم يؤذن للنبي ﷺ بالقتال في مكة، فمكث علي عليه السلام معه لمجرد حمايته من الأعداء، ثم بدأ الجهاد الفعلي عنده عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة، واستدعى علياً عليه السلام وطلب منه أن ينقل ظمينة إليه. ومن هنا تبدأ نقطة حاسمة في تاريخه، فهو عليه السلام خرج وهو لا يزال صبيّاً، وكانت قريش يومذاك بعنفوانها وقوتها وعددها وعديدها، فيما كان المسلمون يعدون بالأنامل، وخرج علي عليه السلام يتحداهم، عندما أمره النبي ﷺ أن ينقل الظمينة، فأخرج الظمينة وهو صبي لم يتجاوز العشرين - أو تجاوزها بسنة - وقبل خروجه مر على نوادي قريش، فقال لهم: «يا معشر قريش لا تقولوا: جبن ابن أبي طالب وخرج من حيث لا نشعر، ها أنا ذا خارج بظمينة محمد ﷺ ومن أحب منكم أن يتبعني فليفعّل». فخرج وليس معه إلا شخصان: سائق للنياق وقائد لها، وهو ثالثهم وانبرت له قريش بما تملك من جبروت وطمع، وانبرى لهم علي عليه السلام، فاستبقتهم وضرب عبداً لأبي جهل سبق إليه، فقدّه بسيفه فتراجع عنه القوم، وأقبل بظمينة النبي ﷺ إلى أن دخل إلى

المدينة^(١). فالنقطة الحاسمة في حياته عليه السلام ابتدأت من ذلك اليوم.

وما كادت قدمه تطأ تراب المدينة حتى تهيأ للجهاد بالسيف بأوسع ما لهذه الكلمة من معنى، دعنا نر ما يصفه به رسول الله ﷺ وقد استدعاه يوماً فقال له: يا «علي أنت يعسوب المؤمنين» أو «يعسوب المسلمين»^(٢). يقول أهل اللغة: إن اليعسوب هو ذكر النحل الذي تحتمي به جماعة النحل أو المستوطنة^(٣)، ويكون أمامها. فالنبي ﷺ يقول لعلي عليه السلام: «أنت يعسوب المسلمين» أي يحتمي بك المسلمون. وقد كان حقاً الذائد عن الإسلام والمسلمين في غزواته وحروبه وإن أراد التاريخ أن يقف موقفاً غاية في السلبية، فمثلاً يقول أرباب السير: لما نزل علي عليه السلام إلى عمرو بن عبدود توجه النبي ﷺ بقوله: «والله لضربة علي عليه السلام لعمرو ابن عبدود تعدل عبادة أمتي إلى يوم القيامة»^(٤). ويمر الذهبي على هذه الكلمة في (ميزان الاعتدال) فيقول: لا شك في أن هذا الحديث موضوع؛ فلا يمكن أن تكون ضربة تعدل عبادة الأمة.

ويقال للذهبي: إن عشرات المصادر من مختلف كتب المسلمين ذكرتها، وبطرق موثوقة وصحيحة، ولكنها لعلي بن أبي طالب عليه السلام!

يعقب أحد علمائنا على ذلك فيقول: والله لو شهد الثقلان، وجاءت الملائكة وشهدت لكذبها الذهبي.

ومن نعم الله تعالى علينا أن نجد شيئاً من سيرة علي عليه السلام في تاريخنا، لأن المتتبع إذا وقف على العقبات التي وضعت بين الناس وبين علي بن أبي طالب عليه السلام

(١) شجرة طوبى ١: ٦٤ - ٦٦. (٢) المعجم الكبير ٦: ٢٦٩.

(٣) غريب الحديث ٣: ٤٣٩ - عسب، لسان العرب ١: ٥١٩ - عسب.

(٤) اختيار معرفة الرجال ١: ٢٥٧، عوالي اللآلي ٤: ٨٦ / ١٠٢، ينابيع المودة ١: ١١٢ / ٥.

فسيرف ما في التأريخ من دواءٍ حالت بيتنا وبين الوصول إلى ما ورد في علي عليه السلام في مختلف الأبعاد. فمن نعم الله تعالى علينا أن نحصل على شيء من الروايات التي تذكر الحقائق عن هذا الرجل، ورحم الله من قال:

والحق ينطق مُنصفاً وعنيداً

يقول أحد الأدباء:

لو تأتَى لنا إليك وصولٌ	سَيُدي يا أبا ثرابٍ عجيبٌ
ريخٌ وأستلهمُ لظاها النُقولُ	فبراكينُ الجُقدِ ألهمتُ القَا
سيا قريشٍ مَبْرُورٌ مقبولٌ	ولها من دمٍ بسيفك في علـ
والن الآن خَسْبَتْها موصولٌ	كَتَبَتْها أو شالٌ بدرٍ وأحدٍ
ولو اسْتَنفرت إليه الطُّبُولُ	هو صوتُ الأحقادِ ميهاتِ يعلو
في عليٍّ وجبرئيلُ الرسولُ	أرسلَتْهُ السَّما لأحمدَ وحباً

فالحمدُ لله أن في التأريخ شيء من الضمير الحي الذي يفتح لنا منفذاً للوصول إلى حقيقة هذا الرجل، وإلا فقد وقف التأريخ والمؤرخون من هذا الرجل موقفاً شديد العداوة، ونحن نعرف أن التأريخ كتبه أعداء علي عليه السلام، في الفترة الملعنة التي أعقبت مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وماذا تنتظر من الحجاج بن يوسف والي الأمويين على الكوفة إذا أراد أن يكتب تأريخ علي عليه السلام! الحجاج هذا الذي يصعد على منبر الكوفة فيقول: إن هؤلاء المسلمين لا يعقلون، فهم يطوفون حول قبر رسول الله ﷺ وليس فيه غير العظام البالية، لم لا يطوفون بقصر عبد الملك بن مروان؟^(١)

(١) الكامل في الأدب ١: ٢٢٢، وقال المبرد فيه: إن ذلك مما كُفرت به الفقهاء الحجاج، شرح

أَوْتَظَنَ أَنْ وَالِيًا مِثْلَ هَذَا يَحْمِلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَهْلِ بَيْتِهِ أَوْ لَعَلِّيٍّ شَيْئًا مِنْ الْاحْتِرَامِ أَوْ التَّقْدِيرِ؟ أَوْتَظَنَ أَنْ أَمْثَالَ هَذَا كَالزَّهْرِيِّ الَّذِي عَاشَ عَلَى مَوَائِدِ الْأُمُويِّينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَجَوَائِزِهِمْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُبَ شَيْئًا يُثْنِي بِهِ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام.

فَمَنْ النِّعَمُ أَنْ يَتَسَرَّبَ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ مِنْ بَعْضِ الْمَنَافِذِ فِيمَا يَسْلُطُ الضُّوءُ عَلَى حَيَاةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَإِلَّا فَمَوَاقِفُهُ مِنَ الشَّجَاعَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْرَهَنَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ، فَقَدْ بَدَأَ مِنْذُ أَنْ وَطِئَتْ أَقْدَامُهُ الْمَدِينَةَ يَنْزِلُ فِي لَهَوَاتِ الْحَرْبِ، وَعَلَى الصُّورَةِ الَّتِي رَوَاهَا لَنَا التَّأْرِيخُ.

يَقُولُ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ: أَهْدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَعَلِّيَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَرَسًا، فَقَالَ عليه السلام: «مَالِي وَلِلْخَيْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ». قَالَ عليه السلام: «لِمَاذَا؟». قَالَ: «إِنِّي لَا أَنْبِعُ مُدْبِرًا، وَلَا أَفْرَ مِنْ أَحَدٍ وَإِذَا ارْتَدَيْتُ سَيْفِي لَا أَضْعُهُ إِلَّا لِمَنْ ارْتَدَيْتُ لَهُ السَّيْفُ». وَلِذَلِكَ كَانَ يَمْتِطِي بَغْلًا إِذَا نَزَلَ لِلْحَرْبِ، فَكَانَ لَا يَتَّبِعُ مُدْبِرًا، وَلَا يَفِرُ مِنْ أَحَدٍ، وَكَانَتْ الْفَرَسانَ تَتَحَاشَاهُ. وَقَدْ سَمِعَهُ تَأْرِيخُ الْحُرُوبِ وَهُوَ يَقُولُ:

بَازِلُ عَامِرِينَ حَدِيثَ السَّنِ (١)	«قَدْ عَرَفَ الْحَرْبَ الْعَوَانَ أَنِّي
أَسْتَقْبِلُ الْحَرْبَ بِكُلِّ فَرْسٍ	سَنَحْنَحُ اللَّيْلَ كَأَنِّي جُنِّي
وَصَارِمٌ يُذْهَبُ كُلُّ ضَعْفٍ	مَعِيَ سِلَاحِي وَمَعِيَ مَجْنِي
لَمِثْلِ هَذَا وَلَدَتْنِي أُمِّي	أَمْضِي بِهِ كُلَّ عَدُوٍّ عَنِّي

نهج البلاغة ١٥: ٢٤٢.

(١) البازل: الكامل المعرفة. المعجم الوسيط: ٥٤ - بزل. يريد عليه السلام أنه عرك الحروب وهو صغير السن، أو هو من «بزل السن» إذا طلع.

ما ترقب الحرب العوان مني^(١)

بدأت الحروب تتوالى، وهو يعسوب المسلمين أمامهم، يحمل اللواء، ويدف إلى الحرب ويرجع وقد كللت جسده الأوسمة، يقول المجلسي: «مرّ عليه رسول الله ﷺ عند منصرفه من واقعة أحد، فرآه ينقل الفتائل من جرح إلى جرح، وكان فيه ثمانون جرحاً. ونظر إليه كأنه مُضْغَة (قطعة من اللحم) موضوعة على نُطْع، ومن حوله من يضمّد جراحه، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «حقّ لمن أصيب لله بهذا أن يفعل الله به كذا وكذا، ويعطيه كذا وكذا». وأخذ النبي ﷺ يعدّد ما أعدّ الله له، فقال: «يا رسول الله، إني حمدتُ الله أني ما ابتعدت عنك، ولا فررتُ، وسأبقى ذلك المقاتل بين يديك». فقال النبي ﷺ: «إن بينكم وبين أبي سفيان موعداً، وقد أرسل لي أنه سيلائيكم عند حمراء الأسد». فالحرب لم تنته، فقال ﷺ: «والله يا رسول الله، لو حملوني على الأيدي ما تركت القتال بين يديك ولا فررت عنك»، فنزلت الآية: ﴿وَكَايُنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتِلٍ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾^(٢) الآية. انظر إلى عبارة الشيخ المجلسي رحمه الله: «كأنه مُضْغَة» وهو مع ذلك يداوي جراحه، ويرمي السيف إلى فاطمة رضي الله عنها ويقول:

أفاطمُ هالكِ السيف غير ذميم فليست برعديد ولا بقليم
لعمرى لقد بالغتُ في نصر أحمد وطاعة ربّ بالعباد رحيم^(٣)

(١) الكافي ٨ / ١١٢ / ٩١، ونقل بعضها كل من محمد بن سليمان الكوفي في مناقب أمير المؤمنين رضي الله عنه ٢: ٥٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ١: ٩٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ١٦١، المناقب (الخوارزمي): ١٥٨. (٢) آل عمران: ١٤٦. (٣) الإرشاد ١: ٩٠، الأمالي (الطوسي): ١٤٣، شرح نهج البلاغة ١٥: ٣٥، المستدرک علی الصحیحین ٣: ٢٤، مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ٦٧، وغيرها كثير.

وأي واقعة خاضها المسلمون لم يكن لعلي عليه السلام فيها الساعد الأطول؟ أربع وثمانون غزوة ما تخلف فيها علي عليه السلام عن ساحات الجهاد، وكان المجاهد الأول والمدافع عن حمى المسلمين. وقد رسم لنا القرآن أوقاتاً من أخرج ما مر على المسلمين، ورسم لنا التاريخ وقوف علي عليه السلام فيها ممّا وصل إلينا من بعض الضمائر الحية. يقول القرآن الكريم ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(١)، في مثل هذا الموقف ينزل علي عليه السلام ليقول:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	ونصرت دين محمد بصوابي
فضربته فتركته متجذلاً	كالجذع بين دكاك ورواب
وعققت عن أثوابه ولو انني	كسنت المجدل بزني أثوابي
لا تحسبن الله خاذل دينه	ونبيته يا معشر الأحزاب ^(٢)

فهذا الصوت الذي انطلق في الملاحم مدوياً، وذلك الساعد الذي امتد ليفري، وذلك الرمح الذي كان ينال الأبعد، وتلك الروح الكبيرة التي ما وهنت ولا ضعفت أبداً في أي مرحلة من مراحل حياتها، كل هذه سوف تبقى هكذا، ويبقى صوت الجهاد مدوياً في حياة علي، ويبقى علي عليه السلام السيف الذي زكته السماء بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾^(٣).

ولم يكن جهاد علي عليه السلام سوى ابتغاء مرضاة الله، فهل ذكر لنا التاريخ بأن علياً عليه السلام جاهد لنيل منزلة من المنازل؟ أو ليحوز شيئاً من الأموال؟

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) شرح الأخبار ١: ٢٩٤ - ٢٩٦، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٣٣ - ١٣٤، البداية والنهاية ٤: ١٢٠ - ١٢١.

(٣) البقرة: ٢٠٧. وانظر الإيمان: ٣٠٣، شواهد التنزيل ١: ١٣٠ / ١٤٠ - ١٤١.

لقد امتدت مرحلة الجهاد بالسيف على مدى ثمانين غزوة وكلها في سبيل الله تعالى، بحيث أصبح الحديث عن جهاد علي عليه السلام لا يستأثر بالاهتمام؛ لأنه أصبح من الضروريّات، فالمتحدث عنه كالمتحدث عن نور الشمس بقوله: «الشمس مضيئة».

ولذا يُعقَّب بعض العلماء على كلمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في علي عليه السلام: «لضربة علي لعمر و تعدل عبادة أمتي»، بقوله: «فلو لم يُقتل عمرو بن ود ذلك اليوم، ولم يُهزم الأحزاب لأصبح الإسلام في الأمس الدّابر».

فهو إذن المجاهد بالسيف، وله من جراحاته ومواقفه شواهد وشواهد لا تندثر على مدى التاريخ، ولا تمحوها الأيام، ثم يمتدُّ هذا الجهاد في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، يقول المؤرخون عنه يوم الجمل: نزل علي عليه السلام ودفع اللواء لولده محمد بن الحنفية وقال له: «تد في الأرض قدمك، عضّ على ناجذك». فلما نزل محمد أخته رشقة من السهام فتلكأ قليلاً لتتكشف السهام، فما أحس إلا بنفس أبيه بين كتفيه وهو يقول: «أدركك عرق من أمك؟». ثم أخذ الراية فهزها، ثم قال:

«اطعن بها طعن أبيك محمد لا خير في الحرب إذا لم توقد

بالمشرقي والقنا المسدّد»

ثم حمل وحمل الناس خلفه، فطحن عسكر البصرة^(١).

يقول المؤرخون: كان للضرب على البيض والهجمات قرع، ونزل علي عليه السلام فما رده أحد حتى انتهى إلى الجمل فطعنه ورجع. ووقف بعد الواقعة على مصارع أعدائه، فلم يكن يهون عليه أن ينظر إلى جملة من رُفقاء السلاح الذين قادهم

سوء الطالع أن يُقتلوا، ولقد قال له رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ سَلَ سَيْفَهُ عَلَيْكَ، وَسَلَّتْ سَيْفَكَ عَلَيْهِ».

المبحث الثاني: لمحات من جهاده عليه السلام بالقلم والفكر

هذا في ساحة الحرب، أما الجهاد على مستوى القلم، وفي ساحة الفكر، فبين أيدينا تاريخ المسلمين والعلوم الإسلامية، فهل ترى - بالله عليك - مكاناً خالياً من أثر لعلي عليه السلام^(١)؟ كلا، إنك تجد آثاره في كل مكان بالرغم مما ذكرناه سلفاً من أن الأقلام حاولت أن تُلقي ستاراً على نشاطه عليه السلام في كل أبعاد المعرفة، ولكن شاء الله لهذا الرجل أن يبقى كالشمس الطالعة لا يسترها الغربال. قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «يا أبا الحسن، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، فَلَقَدْ شَرِبْتَ الْعِلْمَ شَرْباً وَنَهَلْتَهُ نَهْلاً»^(٢). فأخذ علي عليه السلام هذا العلم ليجنده للجهاد في سبيل الله.

تأمل معي قليلاً في (نهج البلاغة)، ولنمر بهذا الكتاب الذي حاول البعض أن يُبعده عن علي عليه السلام؛ لما فيه من جموح العبقرية، وهي محاولة من المحاولات التي كان هدفها التغطية على جهاده، فقيل: إنه منحول وليس لعلي عليه السلام. ودعنا نمر لننظر نظريات علي بن أبي طالب عليه السلام، فكل خطبة من خطبه في (نهج البلاغة) تتضمن من أبعاد المعرفة ما يملأ النفس إعجاباً. وكان عليه السلام في حياة النبي ﷺ هو المسدد، فيشير إليه النبي ويُحيل السائل إليه، وذهب إلى اليمن فدعا له رسول الله ﷺ، ومسح بيده على صدره، وما ابتعد عن ساحة المعرفة ساعة من الساعات في حياة النبي ﷺ.

(١) قد مرّ في ج ١ ص ٣٤٨ سؤال الحجاج من الحسن وعامر الشعبي وواصل بن عطاء وعمر بن عبيد حول مسألة القضاء والقدر، وكيف أجابوه كلهم بما وردهم عن أمير المؤمنين عليه السلام. وهذا مثل متواضع من دوره عليه السلام في مجال الفكر والعلم.

(٢) الأُمالي (الطوسي): ٤٩٢ / ١٠٧٧، كنز العمال ١٣: ١٧٧ / ٣٦٥٢٤.

ثم جتّد نفسه بعد وفاة النبي ﷺ لخدمة المسلمين في حقول المعرفة، فترى مجالس الخلفاء الثلاثة تحفل بالكثير من القضايا كان علي بن أبي طالب عليه السلام ينبري للإجابة عليها، بل إن معاوية كما ذكر ابن عبد البر في (الاستيعاب)، كان إذا نزلت به ملعة أو مسألة علمية يُرسل إلى علي عليه السلام يسأله، ولا يبخل علي عليه السلام بالإجابة عليه مع ما كان بين الأمويين وبينه عليه السلام، ولكنه عليه السلام كان يرى في ذلك نوعاً من أنواع الجهاد في ساحة المعرفة وفي سبيل الله. ولم يتوان في تجنيد قلمه وفكره في أيام الخلفاء أو في أيامه هو لخدمة المسلمين، حتى سُئل ابن عباس عن مقدار علمه قياساً لعلم علي عليه السلام فقال: «كقطرة إلى بحرٍ محيط»^(١).

لقد أجاب علي عليه السلام عن جملة من القضايا، وبين تفسير الآيات، وترك لنا تراثاً ضخماً في هذا المجال، وبوسعك أن تعود إلى (نهج البلاغة)، فترى لعلي عليه السلام رأياً في الاجتماع، وفي التربية، وفي السلوك.

يقول عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»^(٢)، ويقول عليه السلام: «من كانت همته بطنه كانت قيمته ما يخرج منها»^(٣)، ويقول عليه السلام: «المرء مخبوء تحت طي لسانه»^(٤) لا تحت طيلسانه.

يُقيّم علي عليه السلام أبعاد الحياة كلّها فيربطها بوجه الله عز وجل، فيضيف عليها المعنى الجهادي، ويريد لكل نشاط أن يُجنّد في سبيل الله.

وهكذا ترك لنا ثروة ضخمة في (نهج البلاغة)، وكان يتصدّى بنفسه للإجابة،

(١) الصراط المستقيم ١: ١٥٥. (٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٨١.

(٣) لم نعثر عليه، وفي عيون المواعظ: ١٢٤، أنه عليه السلام قال: «أمقت العباد إلى الله من كان همّه بطنه وفرجه».

(٤) نهج البلاغة / الحكمة ١٤٨، ٤٩٢، عيون الحكم والمواعظ: ١٨، ٢٠١.

وكان يجول في أسواق المسلمين منذ الصباح الباكر أيام خلافته، ثم يعود ليجلس على دكة القضاء ويتصدى للإجابة عن مسائل ومرافعات الناس.

جاءه يوماً طفل يبكي، فسأله عليه السلام: «ما بالك؟». قال: سيدي هؤلاء الأربعة خرجوا بأبي إلى السفر، ورجعوا ولم يرجع أبي، وادَّعوا أنه فقيد، ولم يُعيدوا إلي شيئاً من أمواله. فقال عليه السلام: «وهل ذهبت إلى القضاء؟». قال: نعم، ذهبت إلى شريح فطلب مني أن آتبه بشهود بينة على أن أبي كان معهم، ومعه كذا من الأموال. فاستشهدت بهذا البيت:

أوردها سعدٌ وسعدٌ مشتملٌ ما هكذا تورّدُ يا سعدُ الإبلُ

ثم قال: «أهون السقي التشريع»، وهذا مثلٌ يضرب لمن لا يُتعب نفسه في استخراج الفكر، أو في تناول أي شيء، ومعناه أن أسهل ما في سقي الإبل وجود شريعة على حافة البئر، فإذا وُجدت الشريعة فلا يتعب الساقى في سقي إبله. فالإمام عليه السلام يقول عن شريح: إنه لم يُتعب نفسه في استخراج الدليل والتوصل إلى النتيجة. ثم قال عليه السلام: «هاتوا إلي هؤلاء الأربعة»، فأمر بتفريقهم ثم جيء بواحد فسأله: «متى خرجتم؟». قال: في يوم كذا. قال عليه السلام: «في أية ساعة؟». قال: في ساعة كذا. ثم أخذ يسأله ويسأله وهو يجيب وشهادته تُدَوّن، إلى أن أكمل الإجابات فأخرجه وجاء بالثاني فسأله كما سأل صاحبه، وهكذا فعل بالآخرين، فاختلقت أقوال الأربعة، وعندئذ جمعهم وتوعَّدهم فأقروا بقتله وأخذ الأموال، فاسترجع الأموال وأخذ عليهم القود^(١).

كان قضاؤه كله مستنتج من القرآن الكريم، وتجري على أحسن التراتيب

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ١٩٩، فيض القدير ١: ٥٨٨.

الإدارية، كان عليه السلام متصدياً للقضاء بنفسه، فلا يكاد يبارح مسجد الكوفة يوماً. أما في أيام الخلفاء فقد ذكر التاريخ لنا كمّاً هائلاً من قضاياه العجيبة، فترك لنا ثروة كبيرة في القضاء. والمتأمل في قضائه عليه السلام يستغرب من وجود الفكر النافذ في ذلك الزمان، ولكن لا غرابة واقعاً لأن علياً عليه السلام تلميذ القرآن والإسلام، فلا بد أن يكون بارعاً، فهو مجاهد بالعلم والقلم، ولا سبيل إلا إلى الإذعان لذلك. فقد جند المعاني لتكون في طريق الله، ومن أجل كلمة الله. يقول عليه السلام في مناجاته لنوف البكالي: «يانوف، طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين بالآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً، ثم قرصوا الدنيا قرصاً على منهاج المسيح»^(١).

المبحث الثالث: جهاده عليه السلام في ساحة الكدح على العيال

أما الجهاد في ساحة الكد والكدح، فقد وقف يجاهد في هذه الساحة أيما جهاد، في حين أننا ما حُدُّثنا عن رجل كان يتولّى العمل في خلافته حتى يُصيب يديه المَجَل^(٢). نعم ما كان ذلك إلا من علي عليه السلام فقد أصاب يديه المجل من كثرة العمل، فكان منذ الصباح الباكر يتناول مسحاةً له ويخرج إلى الأرض فيصلحها ويفلحها، ويستنبط منها العيون حتى أصاب يديه المجل. كان يتناول قوته من عرقه عليه السلام، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «والله ما كان يأكل إلا العجوة وقليلاً من الخبز»^(٣). وقد أعتق ألف مملوك من كدّ يده، فكان يستنبط العين ثم يبيعهما ويشترى بثمرتها عبيداً فيعتقهم^(٤).

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٤. (٢) الغارات ١: ٩٢.

(٣) قريب منه في قرب الإسناد: ١١٣ / ٣٩١. بحار الأنوار ٦٣: ٥٦ / ١، عن الصادق عليه السلام.

(٤) انظر الهامش السابق.

وكان عليه السلام يؤجر نفسه في بساتين لبعض اليهود ليأخذ بضعة دريهمات، ثم يتصدق بها في سبيل الله، ويعود إلى البيت لا يحمل شيئاً^(١). وإذا احتاج إلى شيء من اللباس فإنه يقطع من أجور عمله ما يشتري به ثوباً من الثياب العادية.

وهكذا وقف يكد ويكدح حتى مجلت يداه وبلغ به الأمر حداً وقفت معه فاطمة عليها السلام يوماً على النبي صلى الله عليه وآله وهي باكية، فسألتها: «ما يُكيك؟». قالت: «دخلت علي نسوة من قريش، فعبرنني بأن علياً عليه السلام فقير». فقال لها: «بينة، أما رضيت أنني زوجتك أكثرهم علماً، وأرجحهم حِلماً، وأندمهم سلماً.. لقد زوجتك سيداً في الدنيا وفي الآخرة». فطفع البشر على وجهها^(٢).

وبلغ به الأمر أن انبرى له أبناء عمه من العباسيين فعيّروه بالفقر، فوقف مروان ابن أبي حفصة يشتم علياً عليه السلام، ويعيّره بالفقر، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله زوج ابنته بمسكين، فوقف له الحسين بن الحجاج من شعراء الشيعة فقال:

وكان قولك بالزهراء فاطمة	قول امرئ لهج بالنصب مفتون
عيّرتها بالرحى والحب تطحنه	لازال زائدك حسباً غير مطحون
وقلت إن رسول الله زوجها	مسكينة بنت مسكين لمسكين
وهي التي بغد في الحشر يخدمها	أهل الجنان بحور الخرد العين ^(٣)

هكذا كان عليه السلام يكد ويتعب، ثم يتصدق بما يكسبه على الفقراء والمساكين في

(١) المعيار والموازنة: ٢٣٨.

(٢) أسد الغابة ٥: ٥٢٠، كنز العمال ١١: ٦٠٥ / ٣٢٩٢٦ - ٣٢٩٢٧، ١٣: ١١٤ / ٣٦٣٧٠، ولم يذكر طرف القصة.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٥.

سبيل الله، ويقنع بقليل من الخبز أو بشيء من التمر يأكله ويمسح بيده على بطنه ويقول: «من أدخله بطنه النار فأبعده الله»^(١).

يقول بعض أصحابه: دخلت عليه وهو في طريقه إلى الحجاز، فوجدت جراباً معلقاً ومختوماً، فلما حان وقت الظهر أنزل ذلك الجراب ومد يده فيه ثم أخرج شيئاً من السويق، فقلت: يا سيدي، أراك قد أغلقتة! قال رحمه الله: «أوتظن ذلك لبخل؟ لا والله ولكن هذا طعام من أرض أنا أزرعها منذ كنت بالحجاز، والآن يزرعها أهلي ثم يبعثون لي منها، وأنا آكل منه ولا أحب أن يدخل بطني إلا الطعام الطيب»^(٢). وقد حدثنا في نهجه فقال: «أما والله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً»^(٣).

خلاصة البحث

لقد كان علي رضي الله عنه مجاهداً بالسيف والقلم والعمل، فهو سيد المجاهدين في سبيل الله، وقد قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. لقد كان جهاده دفاعاً عن الدين وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن الأمة. ولئن كان المجاهد في ميدان العمل يجاهد عن أسرة، فعلي رضي الله عنه كان يجاهد عن أمة بكاملها، فيرى أن المسلمين عياله وأهله. ولذلك استدعى في مثل هذه الليلة (الحادية والعشرين من رمضان)

(١) الدعوات: ١٣٨ / ٣٤٠، مناقب أمير المؤمنين رضي الله عنه (محمد بن سليمان) ٢: ٨٢ / ٥٦٧.

بحار الأنوار ٤٠: ٢٤٠ / ٢٦، كنز العمال ٣: ٧٨٢ / ٨٧٤١، تاريخ مدينة دمشق ٤٨: ٢٣٠.

(٢) لم نعر عليه بنصه، وقريب منه ما في (تم).

(٣) حلية الأبرار ٢: ٢٣٢ / ٢٠، نثر الدرر (الوزير أبو سعيد منصور بن الحسين الآبي) ١: ٢٤٣.

- ٢٤٤، مخطوط في دار الكتب المصرية برقم: ٢٦٠٤، وقد مرّ في ج ٢ ص ٢٢٩ من كتابنا

أولاده بعد أن اشتد عليه ألم ضربته فقال لهم: «الله الله في اليتامى لا تغبوا أفواههم»^(١). أي تتأخروا عنهم في إرسال الطعام فتغيب أفواههم، أي تحدث فيها رائحة بسبب تأخر الطعام. وصل عطفه حتى إلى من ضربه، فقد أدخل عليه في هذه الليلة عبد الرحمن بن ملجم، فرفع الإمام عليه السلام رأسه إليه قائلاً: «أي إمام كنت لك؟ ألم أحسن إليك؟ ألم أعطك عطاءك؟». وأخذ يعدد له ويذكره بنعمته عليه. فقال ابن ملجم: أفأنت تُنقذ من في النار؟ فأطرق علي عليه السلام ثم التفت إلى الحسن عليه السلام وقال له: «اسقوه من شرابي، وأطعموه من طعامي، ولا تُمثلوا به، إن أنا عشت فأنا ولي دمي، وإن أنا مت فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثلوا بالرجل فإن المثلة حرام ولو بالكلب العقور»^(٢).

أيتهما النفس المطمئنة المجاهدة، يا نفس علي بن أبي طالب عليه السلام أطلّي علينا من عليانك.. امنحينا من العطاء الذي عندك.. احملينا على أن نسير في الطريق الذي سرت فيه.. ابعثي في نفوس المسلمين ما كان فيك من شفقة ورحمة، تنبسط على هذه الدنيا، وسلامٌ على نفحاتك أبا الحسن وأنت تودّع حياة الجسد، ولا تودع حياة الروح، لأنك خالدٌ:

ومثل علي لا يُحذله عمر

مرّت عليه هذه الليلة وهو في أشد حالات الألم، يقول حبيب بن عمرو والأصبع بن نباتة في دخولهم عليه: «إننا وجدناه معصباً بعصاة صفراء، والله ما ندري أوجهه أشد اصفراراً أم العصاة، يقول الأصبع: جلست ومعي جماعة من

(١) نهج البلاغة / الوصية : ٤٧.

(٢) بحار الأنوار ٤٢: ٢٨٧ - ٢٨٨.

أصحابنا، فسمعنا البكاء من داخل الدار فارتفعت أصواتنا بالبكاء، ثم خرج الإمام الحسن عليه السلام وقال: «إن أمير المؤمنين عليه السلام يقول لكم: انصرفوا يرحمكم الله»، فانصرف القوم إلّا أنا، ثم سمعت البكاء مرة أخرى فعلا صوتي بالنحيب، فخرج الحسن عليه السلام فقال: «ألم أقل لكم: انصرفوا؟». فقلت: سيدي، إن نفسي لا تطاوعني ورجلي لا تحملاني، فلا بد أن أراه. فدخل الحسن عليه السلام ثم خرج، فقال: «ادخل». فلما دخلت وجدت أمير المؤمنين عليه السلام معصب الرأس، مصفر الوجه، وقد اشتدت عليه حرارة السم، فوقعت عليه أقبلة وأبكي، فقال: «يا أصبغ لا تبك، إنها والله الجنة». قلت: سيدي، أنا أعلم أنها الجنة ولكني أبكي لفراقك. عند ذلك سمعت النساء قد علا ضجيجهن بالبكاء^(١):

يسوبة من عكب عينك	عسن لا طالت الله اعمار
الدنيا موحشة بعدك	يوالينا وظلمه الدار
لسا بعد جرح امي	يساجي بالكلب نغار
ويفجعني زماني بيك	ويطفي النور بعيوني

يا مصباحه بالليل	يا خيمة هلي كلها
تسجعه على نورك	ننام ونعبد بظلمها

ولما سمع بكاءهن قال للحسن عليه السلام: «أسكتهن»، وقال لأم كلثوم: «بنية، لا تؤذيني، والله لو ترين كما أرى لما بكيت». فقال له الحسن عليه السلام: «وماذا ترى يا أبة؟». قال: «هذا جدك رسول الله ﷺ ومعه النبيون وهم يقولون: مرحباً بك، وإن ما أمامك

خيرٌ لك مما أنت فيه».

عند ذاك ارتفعت أصوات النساء مرة أخرى، وأقبلن إلى محراب أمير

المؤمنين عليه السلام:

يحمي الحمه مولي العوالي يالشلت راس الدين عالي

الليلة بكة المحراب خالي



دور المساجد في بناء المجتمعات الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ
يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في ماهية العبادة وشموليتها

المجتمع الإسلامي ولد بولادة المسجد، فإذا اردنا أن نرجع إلى تاريخ المسجد فسوف نجد أنه العامل الأول في بناء الشخصية الإسلامية. وقد يتصور البعض أن المسجد مقصور على العبادة فقط، لكن الواقع أنه أوسع بكثير من هذا المعنى، وإن كانت العبادة بالمعنى الأشمل أكبر من الصوم والصلاة والعبادات التكليفية المعروفة، فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) هل يمكن أن يُتصور أن الناس على ضوئه يتمحزون للصوم والصلاة ولا يمارسون أي عمل آخر سوى هذه العبادات التكليفية؟ ثم أين تصير أعمالهم الأخرى من الكد على العيال والكسب والأعمال التجارية والزراعية وغيرها؟

فالأمر إذن لا كما يتصوره البعض، ولا كما يقولون عن هذه الآية من أن العبادة هي أظهر التصرفات أو أهم الأمور؛ فلذلك ذكرها القرآن، باعتبار أنهم ينصرفون إلى الأهم. كلا، الواقع ليس هكذا، وإنما مفهوم العبادة ينبسط على كل نشاط يُراعى فيه وجه الله.

فالخارج من بيته بنية الكسب من الحلال، ونية عدم التطاول والاعتداء على العباد ومدّ اليد إلى ما حرم الله، ليس من شك أنه في حالة عبادة بل هو في حال يعدّ من أقرب القربات عند الله؛ لأنه صيانة للوجه عن السؤال، وللعيال عن التكفف.

وكذلك من يذهب لعبادة مريض بدوافع إنسانية صرفة ولوجه الله تعالى دون مصلحة أو مجاملة، فعمله هذا عبادة مقربة إلى الله من غير شك. وكذلك قضاء حاجات الناس لوجه الله.

فالعبادة لا تقتصر على الصلاة والصوم والحج وغيرها، وإنما تشمل مجالات الحياة كافة، وكل ما يُراعى فيه وجه الله فهو عمل عبادي.

المبحث الثاني: رسالة المسجد

أما المسجد فقد روعي فيه أن يكون محلاً لأفضل أنواع العبادة؛ لأن الأعمال العبادية، منها ما هو للقلب ومنها ما هو للروح ومنها ما هو للجسد. فأهم أعمال الروح وأعلاها وأشرفها الأعمال العلمية، فلذة طلب العلم لذّة روحية، وهي لذّة لا حدود لها. والفرق بين اللذة الروحية واللذة المادية، أن اللذة المادية يشعر بها الإنسان ما دام متلبساً بها، فهو يشعر بلذة الطعام مادام في فيه، وكذلك اللباس والشراب، والمسكن، أما لذّة الوصول إلى نظرية معينة، أو فهم مسألة من

المسائل العلمية فلا تذهب أبداً؛ لأن اللذات الروحية من جنس الروح فلا تنفى ولا تتلاشى.

وعليه فإن أعظم عمل روحي هو الأمور العلمية، والمسجد لعب دوراً مهماً في العلم وبناء الشخصية العلمية الإسلامية، فعندما نرجع إلى تاريخنا ونقرأ عن الفلاسفة، والعابرة والعلماء نجد أنهم من خريجي المساجد، وقد أعطوا نتاجاً ضخماً يعجز عنه خريجو الجامعات الحديثة. فهل يوجد في هذا العصر من يعطينا نتاجاً بقدر ما أعطاه الشيخ الطوسي أو العلامة الحلي أو الغزالي أو نظائرهم؟ هؤلاء العابرة وأمثالهم خريجو جوامع لا جامعات.

فالجامع إذن وعاء غذى الروح بلذة لا تنضب، وهذه الظاهرة موجودة في جوامع المسلمين جميعاً، فأينما ولد الجامع ولد معه العلم، لا الخرافة كما حدث للأديان الأخرى التي تحولت فيها دور العبادة عندهم إلى محل للخرافة، حتى إن النظريات العلمية تعرضت للاضطهاد من هذه الدور العبادية، كما حدث لمن قال بكروية الأرض من التعذيب والإعدام^(١).

ويروى أنه دخل أحدهم على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: يا ابن رسول الله، أريد أن أستدل على وجود الله تعالى، لكنني قبل الاستدلال أقدم الشك في وجود الله ثم أسوق البراهين والأدلة، فهل أتحمل إثماً في هذا؟ فقال الإمام عليه السلام: «هذا هو الإيمان». وهذه النظرية من النظريات الضخمة، وإن كان البعض ينسبها إلى علماء اليونان أو فيما بعد إلى العلماء الفرنسيين، لكنها في تراثنا موجودة، وهي أن ينتقل الإنسان من الشك إلى اليقين.

(١) كما حدث مع كوبرنيكوس وغاليليو.

وقد أغنى المسجد القلب والنفس بالعواطف الكريمة، فمن يدخل إلى المسجد ويصل إلى جانب الخليفة، أو الحاكم العام أو التاجر الكبير أو العامل أو غيرهم من النماذج الممثلة للمجتمع، فإنه يشعر بزوال الفوارق التي تميز الناس بعضهم عن البعض الآخر، ولا تبقى، إلا الإنسانية. وهذا يُغذّي عنده الشعور بالمساواة مع الآخرين.

ثم يأتي القرآن الذي يُنلى في المسجد فيدعم هذه النظرية ويعززها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

كما أغنى المسجد الجانب الجسدي عند الإنسان، فقبل أن يدخل المسلم الجامع عليه أن يتطهر: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ وعليه أن يحافظ على نظافة جسده بل تعدى ذلك إلى إبعاد كل ما يؤدي إلى إزعاج الآخرين عن الجامع، قال النبي ﷺ: «من أكل من هذه البقلة الخبيثة فلا يقربن مسجدنا»^(٢). وهذه البقلة هي الثوم.

فالإسلام يحرص على تجنيب المسجد الروائح المزعجة للآخرين. ولا يوجد بناء للشخصية أكبر من هذا البناء القلبي والروحي والجسدي الذي يحققه المسجد، وهل هناك من الجامعات من يعنى ببناء الإنسان بهذا الشكل الواسع والدقيق؟
فتاريخ ولادتنا إذن هو ولادة الجامع، فهو عندما ولد ولدت معه المكتبة والعلم. وتأريخ الجوامع تاريخ علم؛ في حلقات الدرس، وفي الدورات العلمية،

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ١٥٠، مسند أحمد ٢: ٤٢٩.

وفي المؤسسات المكتبية وغير ذلك من أمور العلم.

وقفة مع التاريخ

وكلّ جوامع المسلمين لعبت هذا الدور، ولكن - مع شديد الأسف - هناك نقطة سوداء في تاريخ المساجد، وهي تسليط الضوء على جوامع معينة لأسباب عديدة، وإهمال جوامع أخرى لها أهمية كبرى، فنجد شهرة واسعة لجامع الزيتونة والجامع الأزهر ومسجد النبي ﷺ، فيما نجد تعيماً على مسجد الكوفة وإن كانت الكوفة تعرضت إلى هضم وظلم وإهمال لا حدود له، ليس في جامعها فقط وإنما في مجتمعها أيضاً، وتركيبها السكانية، ومراكزها العلمية، مع العلم أن الكوفة خرّجت من الأعلام من لا نظير له إلى هذا العصر.

يقول الوشاء: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعئة شيخ، كلّ يقول حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ^(١). نعم، أربعئة حلقة دراسية تدرس لغة العرب وتفسير القرآن والفقه والأصول والأنساب والتاريخ وأيام العرب، فكان جامعة من الجامعات الضخمة، ولكن كلّ شيء يرتبط بعلي بن أبي طالب عليه السلام أصبح عرضه لهدم المعاول، غير أن كلّ تلك المعاول انهزمت وبقي علي عليه السلام، وسيبقى هكذا على مدى التاريخ.

وحاصل الأمر أن الأضواء لم تُسلط على جامع الكوفة كما سلّطت على غيره من الجوامع، وإلا فإنه لعب دوراً لا يضارعه دور آخر. وفي الجامع جانب آخر مهم ينبغي أن يشدّ المسلم إليه، فقد ورد في الحديث القدسي: «المساجد بيوتني في الأرض، فطوبى لعبيد تطهر في بيته ثم زارني في

(١) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعة شيخ.

بيتي»^(١)، وفي تأريخنا وحضارتنا أن من يدخل بيت غيره يصبح في أمان مهما كان عنده من جريمة، فعندما يقول الله تعالى عن المساجد: إنها بيوتني، فمعناه أن الداخل إليها سيكون في حمى الله تعالى.

المبحث الثالث: في سبب نزول الآية

لقد كان سبب نزول الآية، المذكورة أن النبي ﷺ عند دخوله إلى المدينة، كان أول الواقفين في وجهه أبو عامر الفاسق، ولما رأى علو شأن النبي ﷺ وشأن الإسلام أضمر من الحقد ما لا مثيل له، ورأى نفسه لا يستطيع أن يعمل شيئاً، فهرب إلى مكة، ثم إلى الشام.

وكان النبي ﷺ قد أسس في المدينة مسجد قبا، وهو المسجد الذي تذكره الآية السابقة، كما أسس المسجد النبوي، فكتب أبو عامر الفاسق من الشام إلى أصحابه في المدينة أن يبنوا له مسجداً، وأخبرهم أنه سيأتي إليهم ومعه جنود الروم، ليزيلوا النبي ﷺ عن المدينة، ثم يُصلُّوا في المسجد الذي عُرف فيما بعد بـ«مسجد ضرار»، ولما أتم أصحابه بناء المسجد نزلت الآية الكريمة، فأرسل النبي أصحابه ليهدموا المسجد، ويحولوه إلى محل للقمامة.

ومن هنا نعرف أن البناء يجب أن يُقصد في تأسيسه وجه الله، وأن يكون ذا هدف مشروع، فبناء المسجد يكون لوجه الله لا للرياء ولا للمضاربة. وهذا المعنى يجب أن يكون في كل بناء لا في المسجد فقط؛ لأن الهدف الخالد هو وجه الله تعالى.

ومن الغريب في أمر أبي عامر الفاسق، أن له ولداً كان آية في الإيمان والتقوى

(١) الفقيه ١: ٢٢٩ / ٧٢٠، صحيح مسلم ٢: ١٢١.

والتضحية، وهو حنظلة المعروف بغسيل الملائكة. فقد ذهب حنظلة في صبيحة ليلة عرسه إلى أحد، وقاتل فيها قتالاً شديداً حتى قتل فلما مرَّ عليه النبي ﷺ أطال الوقوف والنظر إليه، وبدا عليه التأثر الشديد، فلما سأله أصحابه قال ﷺ: رأيت الملائكة تغسله، إن صاحبكم خرج وهو جنب فغسلته الملائكة^(١)، فُعرف فيما بعد بهذا اللقب.

ومن هذا نعرف أن الإنسان تربيته البيئية الاجتماعية أكثر من تربية البيت، فقد تجد اثنين تربياً في بيت واحد ويكون أحدهما طيباً والآخر خبيثاً.

لقد درس علماء الاجتماع ما يسمى بـ «نظرية التوائم المتماثلة» ليعرفوا ما إذا كانت التربية الاجتماعية هي الأكثر تأثيراً في الفرد أو الوراثة، فأخذوا اثنين وُلدا لأبٍ وأمٍّ ووضعاهما في بلدين مختلفين فرأوا أنهما أصبحا مختلفين الواحد عن الآخر، فانتهوا إلى نتيجة مفادها أن الحضارة هي التي تصنع السلوك، وأن الإنسان يربيته المحيط الذي يعيش فيه.

ومما يُذكر في هذا المجال أن مالك بن أنس صاحب (الموطأ) وإمام المذهب المالكي كان له ولدٌ وبنت، فكان الولد يلعب بالحمام، وينشغل بملاعبة الطيور، وكثيراً ما يُزعج أباه بذلك، أما البنت فكانت تستوعب (الموطأ) الذي كان يُدرّسه، وكانت إذا سمعت من أبيها أثناء الدرس أنه لم يُعطِ أحد المطالب حقها، أو أخطأ في مسألة ما، فإنها تضرب الأرض بالعصا لإشعاره بذلك. فكان مالك يقول: الأدب أدب الله. قال الشاعر:

أبوك أبي والجذ لاشك واحد ولكننا عودان يباس وخروج

المبحث الرابع: في معنى التقوى وإشكالية كونها تروكاً

تقول الآية: ﴿لَتَسْجِدَ أُسُسٌ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فما هي التقوى؟ التقوى تروك، بمعنى أن يترك المسلم أشياء محذورة، فالمُتَّقِي لا يأكل الحرام ولا يترك العبادات، ولا يستغيب فهي إذن تروك. فكيف نتصور تأسيس المسجد على التقوى؟ يريد القرآن أن يقول: إن هؤلاء المؤسسين للمسجد أسسوه استجابة لأمر الله، وتركوا المشبطات، فأجبروا أنفسهم على تجاوز المشبطات. فمن المشبطات أن بناء المسجد يكلف أموالاً، فبذلوا الأموال وأجبروا أنفسهم على السخاء، ومن المشبطات أن بناء المسجد يحتاج إلى الوقت فأجبروا أنفسهم على ترك أوقات عملهم والعمل في بناء المسجد، ويكلف المسجد معارضة من الآخرين ومضارة وآلاماً نفسية، لكنهم تركوا كل هذه المشبطات واستجابوا لنداء الله ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾^(١). فكانت دوافعهم سليمة، وهي دوافع التقوى.

المبحث الخامس: في معنى ﴿أَحَقُّ﴾ وتصريفها

ثم قال تعالى: ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، فما معنى أحق في هذه الآية؟ وهل هي «أفضل تفضيل»؟ فهذا المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق هل هو حق فيكون القيام في غيره أحق منه^(٢)؟ كلا، إن ذلك المسجد لم يكن يصح القيام به من الأصل، فلا تكون لفظة ﴿أَحَقُّ﴾ هنا بمعنى التفضيل، وإنما هي بمعنى «حقيق»، أي يتعين عليك

(١) التوبة: ١٨.

(٢) من حيث إنه يكون بين المتفاضلين اشتراك في جهة معينة، فلا يصح مثلاً أن نقول: السكر أحلى من الملح؛ لأن الملح لا حلالة فيه، فإن كانت لفظة ﴿أَحَقُّ﴾ هنا للتفضيل فمعنى ذلك أن مسجد أبي عامر الفاسق من الحق أن يصلى فيه لكن غيره أحق منه، والواقع خلافه.

القيام فيه، وليس المعنى أنك يسوغ لك القيام في المسجد الذي بناه أبو عامر الفاسق.

أما لماذا هذا التعيين؟ ولماذا أراد الله من نبيه ﷺ أن يقوم في هذا المسجد الذي أسس على التقوى؟ فالجواب: لأن الله تعالى أراد من نبيه أن يقف إلى جانب الهدف الخير، وأراد منا أن نتأسي بالنبي ﷺ فنقف إلى جانب الهدف الخير أيضاً، وأن نبتعد عن الهدف المشبوه حتى لو حاول ذلك الهدف أن يتقرب منا. فالقرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: يتعين عليك أن تغذي نفسك وغيرك بالمارسات السليمة التي ليس فيها زور أو إفك أو دوافع غير حقيقية، وعليك أن تغذيهما بالخلق الكريم.

حرف دور المساجد

ونريد هنا أن نقف قليلاً مع مساجدنا لنرى هل إن دوافعها تقوم على التقوى؟ أقول: مع الأسف إن مساجدنا ليس فقط لا تقوم على أساس التقوى، وإنما تزرع الضلال في كثير من الأحيان، ونبقى نحن من حيث نتوقع الهدى يصلنا الضلال. فنحن نعرف مثلاً أن البيت بيت الله، والعباد عيال الله وهم أهل «لا إله إلا الله» فهم أسرة واحدة، ويظلمهم لواء واحد، ولكننا لا زلنا نمر بالمسجد فنسمع من يرفع عقيرته بالنداء: هؤلاء الضالون، المشركون. فهو يوزع الضلال على أهل «لا إله إلا الله» كما يشاء، وكأن الضلال بيده يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

إن تربية الفرد المسلم لا تكون هكذا، فنحن عندما نقرأ مثلاً نظرية عند بعض المسلمين تقول: إن الله تعالى يجلس على العرش فيئط من تحته^(١) (أي تسمع له

(١) سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، الدعاء (الطبراني): ٥٩٧، وغيرهما كثير.

صوتا)، فعلينا أن نقول: إن صاحب هذه النظرية قد أخطأ الدليل؛ لأن الله تعالى ليس بجسم، وعلى صاحب هذه النظرية أن يغير عقيدته بها، لأن الله لو كان جسماً صار محدوداً، وإذا صار محدوداً صار محتاجاً، وإذا صار محتاجاً صار فقيراً. فترتب المشكلات الكبرى على هذا القول، ولا يستطيع صاحبه أن يأتي بدليل ناهض. فعلينا إذن أن تناقش النظرية نقاشاً علمياً بعيداً عن التهريج والرمي بالضلal والشرك فليس هذا من روح الإسلام في شيء.

فنحن حينما نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فإننا إنما استفدنا المسح من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾^(١). وعلى فرض أنني أخطأت الدليل فلا يحق للآخر أن يهرج ويشتم؛ لأنه ليس أفضل من الآخرين الذين يرجعون لفقه آل محمد (عليه السلام)، والينابيع الإسلامية الصحيحة.

فمن أدب المسلم الذي يدخل بيت الله، ويعلم عباد الله أن يرى أن عباد الله عيال الله، وأن يرى أن وظيفته أن ينقل إلى المسلمين الزاد السليم لا الحقد والبغضاء، وأن يستشعر التقوى؛ لأن المسجد الذي لا يقوم على التقوى يقوم على العصية والتشنج والزور، وذلك ينافي إرادة الله في مساجده في أن تكون مصادر للإشعاع والنور والمعرفة والتقوى.

المبحث السادس: معنى التطهر

ثم قالت الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾، وفي معنى التطهر هنا رأيان:

الرأي الأول: أنه التطهر من الخبائث المادية

فالأنصار كانوا دائماً على طهارة في وقت كان يمر فيه الحصول على الماء،

فلم يكن الماء كما هو عليه اليوم. فقد كان الصحابة يستخرجون الماء منذ الليل من البئر ليتوضؤوا به صباحاً، فالماء كان قليلاً جداً. ومن هنا نجد اليوم في كتب الفقه ما يسمى بفقه الآبار، وقد يمر عليه بعض الفقهاء اليوم فيعتبره فقهاً ميتاً لا موضوع له؛ باعتبار أن العصر الحديث لا يعتمد في المياه على البئر مباشرة. وإنما أصبحت أنابيب المياه داخل البيوت. ولكن هذا ليس صحيحاً، فلا زالت الكثير من بقاع الدنيا تعتمد إلى الآن على الآبار.

لقد كان الصحابة في تلك الظروف يستعملون التجمير، وهو استعمال الحصى والأحجار في الطهارة، وقليل منهم من يستعمل الماء لقلته أولاً، ولوجود الكسل عن استعماله عند بعضهم ثانياً. فقد كان بعضهم يتكاسل في استعمال الماء حتى عند وجوده، ولا تستغرب من ذلك، فمن الناس في زماننا هذا من هو كذلك، فهو يتناقل من استعمال الماء مع وفرته وقلة تكلفته.

لقد كان الأنصار يبالغون في التطهر، فيستعملون الماء بكثرة، ويدخلون المسجد وهم طاهرون طيبون على العكس من غيرهم. دخل يوماً أبو الاحوص الجشمي إلى المسجد، فرآه النبي ﷺ وسخ الثياب تنن الرائحة، فقال ﷺ له: «هل عندك أموال؟». قال: نعم. فقال ﷺ: «من أيها؟». قال: أعطاني الله من كلها، من الإبل والبقر والغنم والمزارع والتجارة. فقال ﷺ: «أما وجدت ما تلبسه؟». ألم تجد ما تغسل به بدنك؟

وهذا الرأي في معنى التطهر هو الرأي السائد؛ فالحائض والجنب والنفساء لا يجوز لهم أن يمكثوا في المسجد، وهناك أحكام خاصة بالمسجد تفرض على المسلم أن يكون طاهراً عند دخوله إليه.

الرأي الثاني: أنه التطهر من الذنوب

فالمسلمون تطهرهم الصلاة من الذنوب، يقول النبي ﷺ: «مثل الصلاة كمثل النهر الجاري على باب أحدكم»^(١).

فالصلاة أشبه بالنهر الجاري الذي يغتسل فيه الإنسان خمس مرات يومياً، وهي مطهرة للإنسان المسلم من الحقد والجشع والطمع، فعندما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾^(٢) ثم يخرج من المسجد والجشع والطمع نصب عينيه يكاد يعبدهما فهو ما عبد الله حقاً، وإنما عبد مادة وقيعة من القيم الاجتماعية.

وعندما يقول ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) ثم يسير في طريق ضلالة فإنما يخادع الله. ومن يدخل إلى المسجد وكله حقد فليس من المتطهرين؛ لأن المسجد يعلمنا أن الفرد جزء من العباد وأن رحمة الله للعباد كافة.

فالتطهر هنا يعني التطهر من الأدران والذنوب والخبائث المعنوية، والصلاة مطهرة من هذه الموبقات، والله يحب المتطهرين. ولذا كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إذا دخل إلى المسجد يطيل السجود فيه، ويقول: «إلهي عبّيدك بفنائك، إلهي فقيرك بفنائك، يا محسن قد أناك المسيء تجاوز عن تبيح ما عندنا بجميل ما عندك»^(٤).

وهذا هو دين أهل البيت عليه السلام، فقد كانوا يقضون معظم أوقاتهم في المسجد، وقد تلا الإمام السجاد عليه السلام الصحيفة السجادية المعروفة بإنجيل آل محمد في

(١) تهذيب الأحكام ٢: ٣٧ / ٩٢٨، علل الدارقطني ٤: ٣٤٣ / ٦١٥.

(٢) الحمد: ٥.

(٣) الحمد: ٦.

(٤) ورد هذا الدعاء بصيغ كثيرة عن السجاد عليه السلام، انظر كمال الدين: ٤٧١ - ٤٧٢، دلائل الإمامة: ٥٤٤.

مسجد النبي ﷺ؛ لأن الإمام السجاد عليه السلام واجه في حياته حالة من الانصراف إلى الدنيا عند المجتمع الإسلامي، فقد كثرت الفتوحات، وانفتحت الدنيا على المسلمين، فجاء الروم والفرس والأحباش وأبناء الحضارات الأخرى إلى بلاد الإسلام وهم يحملون معهم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وحدثت طفرة مادية في المجتمع الإسلامي، فأصبح الذهب يُكسَّر بالفؤوس. فكان أن واجه الإمام السجاد عليه السلام هذه الحالة من الاعتماد عن الله بالدعاء، فكان يقف في مسجد النبي ﷺ في كل جمعة ويدعو بهذه الأدعية، وهي في الحقيقة دروس من أروع الدروس في التوحيد والآداب والأخلاق، فكان الإمام يعالج ما وفد على المجتمع الإسلامي من انحرافات عن طريق المسجد، فكان يقضي معظم وقته في مسجد النبي ﷺ.

وهكذا كان ديدن الأئمة عليهم السلام؛ فهم يقضون معظم وقتهم في المسجد، سواء في مسجد النبي ﷺ أو مسجد الكوفة أو في بيوتهم التي اتخذوها مساجد، فالداخل إلى بيوتهم يجد أنها تحولت إلى مساجد للعبادة. يقول سعيد حاجب المتوكل: دخلت على الإمام الهادي عليه السلام لما أمرني المتوكل باقتحام بيته، فوجدته يفترش حصيراً، وقد حول وجهه إلى القبلة^(١).

ويقول أحدهم: أردت أن أدخل على الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فأتيت رجلاً واقفاً على باب كوخ، فسألته: أين الإمام؟ قال: في هذا الكوخ، ليج لا حاجب ولا بواب. فدخلت وإذا به يفترش الحصباء ودموعه تجري على خديه، وهو يردد قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُفَرِّضُونَ لَا تُخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٢).

(١) انظر هذه القصة في مروج الذهب ٤: ١٠٢-١٠٣، ولم يذكر سعيداً هذا، بل ذكر الفضول فقط.
(٢) الحاقة: ١٨.

لقد كان أئمة أهل البيت عليه السلام يحولون أي موضع يحلّون فيه إلى محل للعبادة، وفي أية حالة من الحالات لا تفتر ألسنتهم عن ذكر الله.

يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفّيته تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنّا ورب الكعبة. فدنوت منه فسمعتة يقول: «صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»^(١).

تركت الخلق طراً في هواكا وأبتمت العيال لكي أراكا
قلو قطعني بالحب ارباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

وكانت هناك رغبة في نفوس عياله وفي نفس زينب عليها السلام أن يودّعوه وهو في لحظاته الأخيرة، ولكنها امتنعت لأن الإمام الحسين عليه السلام أوصاها، قال: «أخية لا تشمتي بنا الأعداء». فكظمت غيظها، وانطوت على ألمها وبقيت حتى جن الليل، فخرجت ومن ورائها لفيف الأرامل واليتامى:

منه انصدع يا بين صدعي والنار تسعر تحت ضلعي
أخبي عن الشّمات دمي واضم وتني حتى على سمعي
وانكرك بنص الليل والعبي

وثواكل بالفوح تسعد مثلاً رأيت ذا ثكل يكون سعيداً
حنت فلم تر مثهن توانحاً (أذ ليس مثل فقيدهن فقيداً)



(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٩-١٠، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المترجم): ٣٥٧، ينابيع المودة ٣: ٨٣.

من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ليلة استشهاده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ
إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

مقدمة في معنى الوصية، وبعض وصايا العهدة

فرض الإسلام على كل مسلم ألا يبيت إلا ووصيته تحت رأسه. ويقسم الفقهاء
الوصية إلى قسمين، عهدية وتعليكية. فالتعليكية هي تملك عين أو منفعة بعد
الموت، والعهدية هي أن يوصي المحتضر بالقيام بأشياء من بعده.

الوصية الأولى: حفر أربعة قبور له للتعمية

وأمير المؤمنين عليه السلام في مثل هذه الليلة كانت عنده وصايا تملكية ووصايا
عهدية، وعنده تركة من القسمين، فله تركة معنوية وأخرى مادية. فمن الوصايا
العهدية التي أوصى بها هذه الليلة، أوصى أن تحفر له أربعة قبور فيدفن في أحدها،
وأمر أن يحفر أحدها في دار جعدة بن هبيرة ابن أخته أم هاني فاختة بنت أبي

طالب، وهو البيت الذي سكنه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)، فحفر هذا القبر للتعمية. وقبر آخر حفروه في الرحبة وهو للتعمية أيضاً، وقبر ثالث للتعمية أيضاً حفر بجانب مسجد الكوفة. والقبر الرابع حفر في الغري بين ذكوات بيض أربع وهو القبر الذي دفن فيه، وعلم به الإمام الحسن والحسين (عليهما السلام) ووضعاً عليه علامة، والأئمة من بعدهم تناوبوا على تبيان تلك العلامة لأصحابهم. فكان أصحاب أمير المؤمنين والأئمة يأخذون ذلك بالتسالم بعضهم عن بعض.

وكان الهدف من حفر القبور الأربعة واضحاً. فنحن نعرف أن الحكم انتقل من بعده مباشرة إلى الأمويين، والأمويون معروفون بإقدامهم على ارتكاب أي عمل من الأعمال مع خصومهم. وهذا التاريخ واضح بين أيدينا، فقد قتلوا عبد الله بن الزبير في الكعبة أقدس تربة على وجه الأرض، وقد جعلها الله حرماً آمناً، ومع ذلك سلطوا عليها المنجنقات ورموها وهدموها وأحرقوا أستارها وأجروا الدماء في داخلها. والغريب أن تاريخنا ما يزال يمر بهم ويعتبرهم من الأبطال والرواد، وكأن الإسلام لا يعنيه من قريب ولا من بعيد. وقد صنعوا ذلك مرتين في الكعبة^(١). فجعلوا الكعبة مجرى للدم، ومرمى تقع عليه المنجنقات. وأسألوا فيها الدماء وصلبوا فيها ابن الزبير.

أما زيد الشهيد فأخرجوه من القبر وصلبوه أربع سنين حتى عشت الفاختة في جوفه، وحتى استرسل جلده على عورته فسترها. فليس عندهم مانع أن يخرجوا جثمان أمير المؤمنين (عليه السلام) ويصلبوه أو يفعلوا معه ما فعلوا مع غيره فيما بعد.

ولم يكن أمير المؤمنين مالياً أن هؤلاء سوف يُخرجون جسده ويمثلون به.

إنما الذي يعنيه ألا تحدث وصمة كهذه في تاريخ الإسلام، وإلا فإن علياً كان نهياً مشاعاً للرماح والسيوف في طاعة الله. وقد وضع جسمه في حياته ليقطع إرباً إرباً من أجل الإسلام وما عناه ذلك. فما كان يعنيه أن يقطع جسمه بعد الموت.

وقد كان ابن الزبير يقول لأمه أسماء بنت أبي بكر: أخشى من الأمويين أن يمثلوا بي بعد موتي. فقالت له: يا بني، إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الموت. وهذا هو الواقع. فلم يكن علي عليه السلام مهتماً أن يأخذوا جسمه فيمثلوا به، لكنه لم يرد أن تحدث هذه المثلية في حضارة إسلامية، وإلا فإن جسم علي عليه السلام كان أهون ما عند علي في سبيل الله.

ومن العبث أن نقول: إن علياً عليه السلام يحويه قبر. فإن كل المسلمين بالإجماع يقولون: إن النبي لا يبقى بعد موته في قبره أكثر من ثلاثة أيام، ثم يُرفع، والكثير من العلماء يذهب إلى أن الإمام كذلك. وللجمع بين الروايات يقال: إنه يعرج بروحه ويبقى جسمه. فالقبر لا يضم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا نستطيع أن نلتمس في حفنة من التراب في قبر مبني من اللبن، ولا نلتمس علياً عليه السلام في حفنة من التراب في قبر، يقول أحد الشعراء:

فإن قيل هذا قبره قلت أربعوا أهذا الكيان الضخم بجمعه قبرٌ
ولكنه بابٌ إلى معطياته يمدُّ غِنَاهُ من بساحته فقُرُ

فلا يعنينا أن تكون منطقة ما قبراً لعلي، فكم أرادوا أن يسلطوا التشكيك على مكان القبر، فجاء الخطيب البغدادي ومن بعده كثيرون، وسخر الأمويون شعراءهم، وادعوا أن نعش علي وضع على بعير وضلّ البعير طريقه. وراح شاعرهم يقول:

فإن يك قد ضلّ البعير بحمله فما كان مهدياً وما كان هادياً^(١)

ولكن انحسرت تلك الافتراءات والأكاذيب والادعاءات، وظل علي عليه السلام أكبر من أن يحويه قبر أو أن يحلّ بقبر. وهو عليه السلام لا يهمه أن يمثل بجسمه وهو يعلم سلفاً أن الجسم يعطى لله، وقد خلّد الله علياً عليه السلام على العصور فلا يضره جسم تمزق أو تحول إلى تراب.

كانت هذه أولى وصايا الهدية التي أوصى بها هذه الليلة.

وصايا الهدية التمليلية

الأولى: أنه عليه السلام أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه

وهذه الوصية هي من الوصايا التمليلية، فقد أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه، فقد كان عنده لواء مكتوب عليه هذا البيت:

هذا علي والهدى يقوده من خير فتان قريش عوده^(٢)

وكان عنده درع صدر لا ظهر لها، مكتوب عليها هذان البيتان:

أي يومي من الموت أفر يوم لا يُقدر أم يوم قُدّر

يوم لا يقدر لا أخشى الوغى يوم قد قُدّر لا يغني الحذر^(٣)

وترك أربعة عشر كتاباً من مؤلفاته وتراثه العلمي وهي: كتاب القضاء، وهو مجموع القضايا التي قضى بها على دكة القضاء في مسجد الكوفة وغيره. وكتب

(١) انظر الغارات ٢: ٥١٩، شرح نهج البلاغة ٤: ٨٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٧، بحار الأنوار ٤٢: ٦٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٨٤، بحار الأنوار ٤٢: ٥٨.

فيها جماعة من العلماء وما تزال حتى الآن ماثرة في ثنايا الكتب. وهذه القضايا بعضها انفراد به وبعضها لم ينفرد به. فمما انفرد به مثلاً القضاء بشاهد ويمين إذا عدم الشاهدان.

ومن كتبه أيضاً كتاب الأحكام الفقهية، وهو مجموع الفتاوى التي كان يستفتى فيها ويجب عليها، وكانت إجابته مباشرة من القرآن. فالفقيه الآن إذا أراد أن يستنبط الحكم يبحث عن الأصل ويستعمل الأدوات الفنية ومجموعة من العلوم، ويناقش الروايات متناً ودلالة وسنداً ثم يدرس الرواية وهل هي معارضة أو ليست معارضة، وغير ذلك من الأدوات الفنية كي يصل إلى الحكم، أما أمير المؤمنين عليه السلام فكانت يده على المنبع مباشرة. فهو يقول: «فتح لي رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»^(١). وكان رسول الله يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٢).

فكان يعطي الجواب مباشرة لأن يده كانت على الحكم بشكل مباشر، وقد أخذ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله في حياته.

ومن جملة الكتب الأربعة عشر تفسير القرآن، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام إذا نزلت آية يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله فيكتبها ويكتب تفسيرها. وتفسير القرآن يطلق عليه كلمة «الوحي»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(٣) أي تفسيره. فقد كان النبي إذا نزلت الآية يأمر الكتاب أن يكتبوها، ويبين لهم المعنى ثم يسجل المعنى. وهذا القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين هو

(١) الخصال: ٥٧٢ / ١، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٢٨٥.

(٢) الخصال: ٥٧٤ / ١، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٢٦، المعجم الكبير ١١: ٥٥.

(٣) طه: ١١٤.

الذي يقول عنه الإمام الصادق: إنه «مصحف فاطمة»، وإنه «مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات»، و«ما فيه من قرآنكم شيء»^(١). فهو تفسير للقرآن وليس هو القرآن.

وهذا القرآن هو الذي بدأت الأقلام الرخيصة تتجه إلى القول فيه: إن الشيعة قرأنا يخالف قرآن المسلمين. فأين هو هذا القرآن؟ فهذه آراؤنا وآراء علمائنا صريحة في أن ما بين الدفتين هو القرآن، والذي يقول بالتحريف غيرنا. وبين يدي دراسة ضخمة لعلّي أوفق لإنجازها إنشاء الله، وهي تبين بالإحصاء من الذي يقول بتحريف القرآن. إن الذي يقول بالتحريف غيرنا لا نحن. وما عندنا إلا آراء شاذة لا يعتمد عليها. أما الآخرون فهم الذين يذهبون إلى التحريف.

وهذا الذي نقول عنه مصحف فاطمة ما هو إلا تفسير القرآن الذي كان يأخذه علي عن رسول ويكتبه، وهذا هو الذي شغله بعد وفاة النبي عن الخروج، فلم يخرج إلا بعد إكمال القرآن. فما كان يترك آية إلا وقد دوّنها مع شرحها وتفسيرها. ومن الكتب التي تركها (الجفر) و(الجامعة) و(صحيفة الدولة). فالجفر جلد جدي مدبوغ مكتوب فيه بعض الملاحم وما سيحدث خلال الزمان. وهذا الجفر هو الذي يشير إليه أبو العلاء المعري:

لقد عجبوا لأهل البيت لما أتاهم علمهم في مسك جفر
ومرأة المنجم وهي صغرى أرته كل عامرة وقفر^(٢)

وكان في هذا الجفر حتى أرش الخدش^(٣) كما يقول الإمام الصادق. أما (صحيفة الدولة) فكتب بها أحوال بني العباس ودولتهم وما يسبقها وما يجري

(١) الكافي ١: ٢٣٩ / ١، بحار الأنوار ٢٦: ٣٩ / ٦٩.

(٢) اللزوميات: ٣٥٣.

(٣) الكافي ١: ٢٤١ / ٥، معاني الأخبار: ١٠٢ / ٤.

فيها. وقد أخذ هذه الصحيفة محمد بن الحنفية، طلبها من الحسين، فأعطوه إياها فدفعها إلى ولده أبي هاشم، ودفعها أبو هاشم إلى أولاد عبد الله بن الحسن. ولما لاحقهم مروان آخر خلفاء بني أمية دفنوها في الصحراء بين دمشق والمدينة في مكان يسمى الحميمة أو الجميمة من أرض الشراة، ثم بحثوا عنها بعد ذلك فلم يجدوها^(١).

أدلة كون (نهج البلاغة) له عليه السلام

وهناك مجموعة من الكتب تركها أمير المؤمنين من ضمنها (نهج البلاغة)، وقد صار موضع أخذ ورد. وقد اتبع العلماء في إثبات (نهج البلاغة) لعلّي منهجاً من عدة شعب، منها:

الأول: منهج الأسلوب الأدبي

درسوا الأسلوب، فمن عنده تذوق للأدب وعرضت عليه قطعة شعرية فإنه يعرف لمن! للبحثري أو لأبي فراس أو لأبي تمام أو للمتنبّي؛ لأنه يأنس بالتذوق فيصبح تخصصه. وهذا أشبه بعالم الآثار الذي يؤتى إليه بقطعة حجرية فيعرف أنها من عهد ما قبل التاريخ أو من العصر الأول أو الثاني أو غير ذلك. فمنهج علي منهج متميز له ديباجة وأسلوب خاص، فإن وضعت قطعة من قطع علي بن أبي طالب إلى جانب القطع الأخرى تجدها متميزة واضحة. وهذا الأمر يعرفه الأدباء وأهل الفن.

الثاني: وجود خطب النهج قبل ولادة الرضي

وهناك منهج آخر هو أنهم فزعوا إلى الروايات التي سبقت الشريف الرضي،

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١٠٢، شرح نهج البلاغة ٧: ١٤٩.

فالمتأخرون ادعوا أن (النهج) اخترعه الشريف الرضي ونسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام. لكن الواقع هو أن أسلوب الشريف الرضي معروف وأسلوب علي معروف. ومن ناحية ثانية فإن خطب النهج موجودة قبل أن يولد الرضي بمئة سنة. وهذا ما ينص عليه العلماء.

الثالث: منهج التمحيص

فقد ادعى جماعة أن في (نهج البلاغة) ألفاظاً لم تكن موجودة في زمن علي وإنما هي مستحدثة أيام العباسيين من بعد ما حدثت الترجمة، وذلك مثل كلمة الأزل والحد. فالحد في اللغة هو الفاصل، ومعناه العلمي هو التعريف. فعندما نعرف الفرس نقول: إنها حيوان صاهل، والإنسان نقول عنه: حيوان ناطق. وهذا لم يكن موجوداً أيام علي حتى يقول: «من حده فقد عده»^(١).

وهذه مغالطة، فإن أمير المؤمنين لم يستخدم لفظة الحد بمعناها الفني، إنما استخدمها بمعناها اللغوي. فمن حده أي من جعل له حداً وأنه جسم جالس على العرش.

وهناك مناهج متعددة استعملت وسلطت على (نهج البلاغة) فدلّت على أنه من عطاء علي. يقول أحد الأدباء:

شهد الشبر أنه لعلي ربّ قولٍ عليه منه دليلُ

كل فصل أبو تراب به يبج سدو قتهتز بالهدير الفصولُ

فـ(نهج البلاغة) بروقه وعطائه وديباجته وبهائه هو من عطاء هذا الرجل. فكان هذا (النهج) مما تركه من الكتب. ومما ترك من الكتب (جنة الأسماء) وهو

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١، ١٥٢.

الذي شرحه الغزالي. وقد نص على هذا من كتب في معاجم المؤلفين^(١).
هذه الكتب أعطاها لولده الحسن عليه السلام بالإضافة إلى اللواء والسيوف التي تركها
ومنها ذو الفقار، ومنها حديدة هُبَل التي أخذها عندما صعد على ظهر الكعبة وأخذ
الأصنام فحطمها.

وبالأمس سمعت مديعاً يذكر فتح مكة ويقول: دخل المسلمون إلى الكعبة
فحطموا الأصنام، ولم يذكر علياً عليه السلام بقليل ولا بكثير، ورحمة الله على الإمام أحمد
ابن حنبل لما سئل يوماً: ما بال الصحابة كلهم كأنهم أخوة وعلي كأنه ابن علة؟ قال:
لأن علياً سبقهم سلماً، وفاقهم علماً، وبزهم شجاعة فحسدوه^(٢).

كان علي عليه السلام في الصلاة فدخل سائل يقول: من منكم يقرض الله قرضاً حسناً،
ويتصدق علي؟ فأشار إليه بأنملته، فتناول منه الخاتم وخرج، فلم يبرح الإمام
حتى هبط الأمين جبريل يحمل هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ زَاكِعُونَ﴾^(٣)، فأقبل رسول الله عليه السلام يحمل
الآية ويقول: «بشراك يا بن أبي طالب؛ لقد أنزل الله فيك قرآناً»^(٤). ثم قرأ عليه الآية.
وهذا ما اتفق عليه جمهور مؤرخي المسلمين.

(١) انظر كشف الظنون ١: ٦٠٦ - ٦٠٧، هدية العارفين ١: ٦٦٧، وشرح جنة الأسماء للغزالي
موجود في مكتبة مخطوطات آية الله السيد الكلبي بكناني في قم برقم ١ / ش ٩٥٠، ورقم
٢١٣ أيضاً.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٦٠٨ - ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، وفيهما عن
الخليل بن أحمد الفراهيدي.

(٣) المائدة: ٥٥، وانظر: شواهد التنزيل ١: ٢١٧ / ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٢٢١،
تفسير القرآن العظيم ٢: ٧٤.

(٤) شواهد التنزيل ٢: ٣٤٧ / ٩٨٩، وأورده في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
التحریم: ٤.

الثانية: وصيته بوقف حوائطه

وكان علي عليه السلام يتختم بأربعة خواتم، تصدق بأحدها وبقيت ثلاثة: واحد من عقيق والثاني من فيروزج وخاتم آخر، وكانت ضمن التركة التي أعطاها للإمام الحسن عليه السلام. ومما تركه من وصاياہ التملیکیة الحوائط الضخمة (البساتين)؛ لأنه كان يستغل قوته ويخرج بنفسه يستنبط الماء ويزرع النخل ويفلح الأرض، حتى إذا اكتملت وقفها في سبيل الله. وكان عنده سبعة مناطق، منها ينبع وأدينة وديمة وأبو نيزر والبغیفة والعفرتان، وكلها كان له فيها نخيل وعيون ماء. وكتب بيده وبخطه أن يحبس أصلها ويُنْفَقَ واردها في سبيل الله.

وهذه وصية لجهات لا لوجوه، فقد ملكها الله، وكانت هذه البساتين تغل عليه وارداً كبيراً. وقد دفع معاوية في أبي نيزر والبغیفة الملايين من الدراهم، لكن الإمام الحسن عليه السلام امتنع^(١) وقال: «هذه صدقات أبي، ولا أبيعها». فكانت تنفق كلها في سبيل الله.

وكان علي عليه السلام ينفقها في حياته ثم يعود إلى سوق الكوفة فينادي: «من يشتري مني هذا السيف؟ والله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته»^(٢)؛

أيها المال ما خدعت علياً حسبته منك بلغة لعشانة

حتى إن أحد هذه الحوائط السبعة كان فيه عبيد ثلاثة من جملتهم أبو نيزر، فأوصى الإمام عليه السلام أن يُعْتَقُوا من بعده شرط أن يبقوا بالحوائط خمس سنين.

الثالثة: وصيته عليه السلام بعنق ممالیکه وأمهات الأولاد عنده

وأوصى بعنق ممالیکه، وكان قد أعتق في حياته ألف مملوك من كدّ يده، ومما

(١) معجم البلدان ٤: ١٧٦ - البغیفة. (٢) الفارات ١: ٦٣، مكار الأخلاق: ١١٤.

كان يعرق به^(١). ولم يكن يمد يده إلى بيت المال، فكان يصبح عليه الصبح فيأخذ مسحاته، وله معها تاريخ طويل، فيأتي إلى الأرض ويسكب فيها عرقه، ويستصلحها ويبيع أحياناً بعض البساتين ويشترى بها عبيداً يعتقهم لوجه الله. ومن كان عنده وقت الضربة والوفاة أوصى بعقبتهم في سبيل الله.

ومن وصاياه في هذه الليلة أنه كان عنده أمهات أولاد^(٢) عددهن سبع عشرة، فأوصى بعق من لم تكن حاملاً، والحامل تحسب من نصيب ولدها وتعتق بعد ذلك.

أما من النقود فإن راتب علي عليه السلام من بيت المال لم يكن يتميز عن راتب قنبر، ولذا لما جاءه عقيل أخوه يحمل صبيانه وهم جياع، أو كما يقول عنهم أمير المؤمنين: «فرايت صبيانه شعث الشعور غير الألوان من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالمظلم»^(٣)، وطالبه بزيادة الراتب، أجابه الإمام عليه السلام بأنه لو كان عنده وفر ما بخل به عليه. وأنه عليه السلام لا يمد يده إلى مال المسلمين. ثم قال له: «انتظر حتى يخرج عطائي من بيت المال فأعطيك إياه. أو أن تأخذ بيدي إلى سوق الصرافين حتى أسرق لك». فقال: معاذ الله أن أكلفك هذا. قال: «فما الفرق في أن أمد يدي إلى بيت المال أو أسرق من الناس؟». وانتظر عطاءه، حتى إذا جاء قال لابنه الحسن: «اكس عمك جبة».

فهذا الراتب الذي كان يأخذه أمير المؤمنين عليه السلام كان يقتطع منه قليلاً قليلاً، حتى جمع منه سبعمئة درهم. وهذه كل تركته التي ينص عليها كل من كتب في تاريخه.

(١) الكافي ٥: ٧٤ / ٢، ٤، ٨: ١٦٣ / ١٧٣، ١٦٥ / ١٧٥، ينابيع المودة ١: ٤٤٦.

(٢) أم الولد: الأمة التي يطؤها مولاها فتحمل وتلد منه.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

وقد جمعها ليشتري بها جارية تساعد أهله في خدمة البيت. فهو عليه السلام ضَمِنَ ما كان خارج البيت من نقل الحطب والماء وجلب الحاجات. وممّا يذكر هنا أن الزهراء عليها السلام نفسها كانت تضمن ما بداخل البيت، فكانت تكنس البيت وترضع الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وتغسل الثياب، وتطحن الحب بالرحى، وتطهو الطعام وتقوم بالأعمال البيتية. حتى قال المؤرخون: إن يدها مجلت من الرحى^(١). وقد جاءت يوماً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت له: «يا رسول الله رُوحِي فداك، لقد مجلت يداي من الجاروش». وكان رسول الله يعرف ذلك؛ لأنه مر يوماً فوجد عليها وفاطمة يتعاونان على إدارة الجاروش فجلس بينهما يعينهما^(٢).

وأذكر هنا عبارة لأحد العلماء يقول فيها: والله لو أعطيت جزءاً مما كان في هذا الجاروش لكان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس. هذا الجاروش الذي كانت تديره فاطمة كان العباسيون وشعراؤهم يعيرون به فاطمة وأنها مسكينة وأن أباهما مسكين زوجها لمسكين مثله، وأنها كانت تطحن الحب بالرحى. وقد تصدّى لهم الحسين بن الحجاج النيلي المدفون عند رجلي الإمام الكاظم عليه السلام، صاحب القصيدة الفائية. ومما قال ردّاً على مروان بن أبي حفصة شاعر البلاط العباسي:

وكان قولك بالزهراء فاطمة	قول امرئٍ لهجٍ بالنصب مفتون
عيرتها بالرحى والحب تطحنه	لا زال زائدك حياً غير مطحون
وقلت إن رسول الله زوجها	مسكينة بنت مسكين لمسكين
وهي التي في غدٍ بالحشر يخدمها	أهل الجنان بحور الخرد العيين

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٠، مسند أحمد ٦: ٢٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٤٣: ٤٧ / ٥١.

فكانت الزهراء تطحن بتلك الرحى.

ودخل عليها الرسول ﷺ يوماً فرأى الإمام الحسين عليه السلام يبكي على صدرها والبيت يحتاج إلى كنس، والملابس تحتاج إلى غسل، وهي تدير الرحى، فقال: «يا فاطمة تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة»^(١). ثم ذهب واشترى لها جاريتها فضة لتعينها في أمور البيت.

فكان الإمام علي يريد أن يشتري جارية تعين أهله. فقد كانوا يديرون شؤون البيت بأنفسهم، وكان جميع ما ترك سبعة مئة درهم أراد أن يشتري بها جارية تعين أهله، وأدركه الموت. فكانت تلك تركته من الدنيا.

وقد وجدت رواية تقول: إن الإمام أوصى أن تُقسم الدار إلى ثلاثة أقسام، فأى دار هذه؟ أنا لا أعرف داراً لعلّي في الكوفة. وهذه يمكن أن تكون الحجرة التي كانت في المدينة. والحجرة التي كانت في المدينة لم يقسمها لأنها كانت صغيرة وظل فيها أولاد الحسن. وكان بابها على المسجد، فلما جاء عبد الملك بن مروان أراد أن يوسع المسجد، فقليل له: هذه الدار لعلّي بن أبي طالب وفيها ولده. قال: يخرجون منها. فامتنع الحسن أن يخرج حتى ضرب بالسياط، وهدموها وأدخلوها إلى المسجد^(٢).

فلم يكن لأمر المؤمنين دار، ولا أدري ما هو منشأ هذه الرواية، فعلي لم يملك داراً، ولم يضع حجراً على حجر وهذه عبارة المؤرخين.

هذا كلّ ما تركه علي من الأموال، أما الثياب فلم يترك منها شيئاً، نعم ترك تلك المدرعة التي يقول عنها هارون بن عنترة أحد أصحابه: دخلت عليه في الخورنق

(١) التمهيد (الإسكافي): ٦، شواهد التنزيل ٢: ٤٤٥، كنز العمال ٢: ٤٢٢ / ٣٥٤٧٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٨، بحار الأنوار ٣٩: ٢٩ / ١١.

والسدير فرأيت عليه سمل قطيفة، فقلت له: إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في بيت المال حقاً. قال: «إني أكره أن أرزأكم من أموالكم شيئاً، إن الله يعلم أنها القطيفة التي خرجت بها من أهلي في المدينة، وإن خرجت منكم بغيرها فأنا خائن».

تَقَمَّة وصايا العهدية

الثانية: وصيته بابن ملجم (لع)

أما وصايا العهدية فهي حفر القبور الأربعة لتضييع القبر كما ذكرنا. والوصية الأخرى أنه قال: «إن عشت فأنا ولي دمي، وإن مت فاضربوه ضربة بضربة»^(١). يعني أنكم أولياء الدم، فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم عفوتم عنه.

وأقسم أن علياً عليه السلام لو عاش بعد تلك الضربة لأطلق سراح ابن ملجم؛ لأنه ظفر بمن هو أشد منه نكاية فعفا عنه، فابن ملجم جرح جسم علي، ولكن هناك أناس جرحوا الإسلام فظفر بهم علي وأطلق سراحهم^(٢). وهذا كان دأبه وديدنه، فهو تلميذ القرآن: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾^(٣).

وهكذا أوصاهم بعد الرحمن أن إذا عشت فأنا ولي دمي، وإن قضيت نحبي فلا تمثلوا به؛ «فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: المثلة حرام ولو بالكلب العقور... اضربوه ضربة بضربة».

الثالثة: وصيته بلوازم دفنه

ومن وصايا العهدية أنه أوصى الإمام الحسن بأن هناك بقايا حنوط من رسول

(١) انظر نهج البلاغة / الوصية: ٤٧، قرب الاسناد: ١٤٣ / ٥١٥، تاريخ الطبري ٤: ١١٤.

(٢) كما حصل مع عمر بن العاص، وبسر بن أرطاة وغيرهم.

(٣) فصلت: ٣٤.

الله هبط به جبرئيل من الجنة، وكان الإمام عليه السلام قد قسم هذا الحنوط خمسة أقسام: فقسم منه حنط به رسول الله ﷺ، وقسم حنط به الزهراء عليها السلام، وقسم اختص به نفسه، وقال لهم: «ادخروا الباقي لكم». وأوصاهم أن يحملوا مؤخر السرير فيكونوا مقدمه.

الرابعة: وصيته عليه السلام بتعاهد المساجد

وأوصاهم ألا يتركوا مسجد ربهم، وقال لهم: «لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تُناظروا»^(١). فالمساجد مجد المسلمين وعزهم. وأوصاهم بالصلاة عمود الدين. وأوصاهم بصلة الأرحام وأوصاهم بأهل بيت نبيهم، وصحابة جدتهم رسول الله ﷺ. إلى غير ذلك من الوصايا المتعددة التي أوصى بها في هذه الليلة.

لقد ترك علي تركة مادية وقد ذكرناها، وتركة معنوية، فقد ترك على التربة التي دفن فيها بصماته، فهذه التربة منذ دفن فيها علي تحولت إلى مدرسة للحكمة والعلم والفكر والقرآن بكل أبعاده. وبصماته عليه السلام لا زالت فيها، ومن يعرف تأريخ المدارس الإسلامية كالأزهر والزيتونة يلاحظ بصمات علي واضحة على النجف. فالذي يدرس في النجف يعرف قيمة تراثها العلمي، يقول أحد الشعراء:

أيا صاح هذا مربع في ترابه	لحبيرة جسم وفي أفقه فكر
ثلاث وعشرون قرُون تَضُرمت	وما زال منه فوق هذا الثرى عطر
وأزمنة مرّت بكل ضروفيها	يَشْدُ بها زيدٌ ويدفئها عمرو
تَقَرُّ عليه وهي سوداء غيمة	فيمشي إليها وهو مُنْبِلجٌ بندر

نعم، هذا تراب أمير المؤمنين عليه السلام، مأوى أرواح المؤمنين، ومحراب الفكر،

ومركز العبادة، وهذه بصمات علي عليه السلام على هذا التراب الذي يودّ العلماء أن يحصلوا على شبر منه ليضطجعوا فيه، كتب التراقي إلى معاصره السيد مهدي بحر العلوم:

ألا قل لسكان أرض الغري لقد قُزتمُ بجنانِ الخلوة
أفيضوا علينا من الماء أو فنحنُ عطاشى وأنتم وروذ^(١)

هذا التراب المقدس الذي يعبر عنه عبد الباقي العمري بقوله:

إذا نحن زرتها وجدنا نسيمها يسفوح لنا كالغدير المتنفس
ونمشي حفاة في ثراها تَقْدُسا نرى أننا نمشي بوابِ مُقدس^(٢)

وهذا من تراثه عليه السلام المعنوي والنفسي، والمسلمون يعتقدون ببقاء النفس الناطقة، وكذلك اليونانيون، فكانوا إذا أعضلت عليهم مشكلة جلسوا إلى قبور حكمائهم يستجلونها. فمدفن علي عليه السلام محراب فكر.

الإمام عليه السلام عنوان الأحرار

ومما ترك علي عليه السلام دماءه ودماء الشهداء من أبنائه ألوية ترفرف للأحرار على مدى الزمان، ورحم الله أبا العلاء المعري حيث يقول:

وعلى الدهر من دماء الشهيد سدين علي ونجبه شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا ن وفسي أوليائيه شفقان
فبنا في قميصه ليحيى الـ حشر مستعدياً إلى الرحمن^(٣)

(١) الفوائد الرجالية ١: ٧٤ / مقدمة المحقق.

(٢) لم نعثر عليهما لعبد الباقي العمري، بل هما للبهاء زهير في ديوانه: ١٧٧.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢١٣، درر السمط: ٩٣.

نعم ترك دماء الطاهرة ودماء أبنائه ألوية على طريق الشهادة والشهداء تشير للأجيال أن الدم الحرّ هو الذي ينير الطريق وحده. فكلّما احتاج الزمان إلى لواء استجلى بعض تلك الألوية التي تركها علي من دمانه ودماء أبنائه:

وَتَرَكْتَ لِلْأَحْرَارِ حِينَ يَلُزُّهُمْ غَنَتْ السُّرَى وَيَضِيقُ فِيهِ الْفَهْرَبُ
جُنْتُ الضَّحَايَا مِنْ بَنِيكَ تُرِيهِمْ أَنْ الْحَقُوقَ بِمِثْلِ ذَلِكَ تُسَلِّبُ

فعلي عليه السلام أبو الشهداء والأحرار، وهو مفترع طريق الشهادة، وهو من ترك الدم لواءً يرفرف خفّاقاً على طريق الأحرار والحرية. وترك أيضاً جلال المصرع في محرابه، وصورة يختزنها الفكر إذا دخل إلى مسجد الكوفة وواجه محراب علي وكأنه يرى البيت:

قَتَلْتُمُ الصَّلَاةَ فِي مَحْرَابِهَا يَا قَاتِلِيهِ وَهُوَ فِي مَحْرَابِهِ

نعم، سقط في المحراب والصلاة بين شفتيه، ولسانه عامر بذكر الله، وقلبه عامر بذكره، فترك جلال المصرع في هذا المكان. وماذا ترك علي بعد؟ ترك لوحة في قلوب شيعته ودمعة حرّى في عيونهم:

أَرُقُّ مِنْ دَمْعَةٍ شِيعِيَّةٍ تَبْكِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ

كل هذا تركه علي في مثل هذه الليلة وقد اجتمع حوله أولاده وأصحابه وأهل بيته، وكان عليه السلام هذه الليلة يتلفت يمينا وشمالاً، يقول له الحسن: أبه، «مالني أراك تتلفت؟». فيقول له: «بني، هذا جدك رسول الله، وهذا عمّي حمزة، وهذا أخوي جعفر، ورسول الله يقول لي: إنك صائر إلينا عن قريب».

فلما سمعت بناته صوته تعالى بكأوهن ونشيجهن وارتفعت أصواتهن بالنحيب،

فقال أمير المؤمنين: «مهلاً لا تؤذوا إمامكم بيكاثكم».

ودخل عليه ذلك اليوم مجموعة من أصحابه منهم الأصمغ، يقول الأصمغ: نظرت إلى وجهه مصفراً وقد عصبوه بعصابة صفراء، والله ما أدري أوجهه أشدّ اصفراراً أم العصابة، فلما وقع بصري عليه انتحبت باكياً، فقال لي: «يا أصمغ لا تبك، إنها والله الجنة». قلت: سيدي أنا أعلم أنها الجنة ولكن أبكي لفراقك يا أمير المؤمنين. فهدأ أمير المؤمنين قليلاً، ثم رفع رأسه إليهم، قال: «بالأمس أنا صاحبكم، واليوم أنا عبرة لكم، وغداً أنا مفارقكم». فلما سمعت النساء ذلك علت أصواتهن بالبكاء^(١)؛

يبويه عليه مجبل العيد أغلل ايّامك بالمواعيد

واحولن ذخراً بلجن بعيد

فلما اشتدّت عليه الحالة أخذ أصحابه يتبرّكون بالدنو منه والسلام، فصاح الإمام الحسن: «خففوا على إمامكم؛ فقد احمرت قدماء، واشتدّ عليه الألم، وثقل جفناه». فأطرق الإمام برأسه على صدر ولده الحسن، وهو يمسح ما تلاصق بجبينه من العرق، حتى إذا اشتدّت حالته سجّاه الإمام الحسن عليه السلام إلى القبلة، وأسبل يديه ورجليه، وغمض عينيه، وقضى نحبّه.



المحتويات

٥	٤٩ في رحاب السبط المجتبى ﷺ
٥	مباحث الآية الكريمة
٥	المبحث الأول: الناس أقسام ثلاثة
٧	المبحث الثاني: سبب نزول الآية الكريمة
٨	المبحث الثالث: البنوة دمية وروحية
٩	النوع الأول: بنوة الدم
٩	النوع الثاني: البنوة الروحية
٩	المبحث الرابع: من ملامح الإمام الحسن ﷺ
٩	الأول: أنه ﷺ أشبه الناس برسول الله ﷺ
١٢	الثاني: أنه ﷺ أحد من باهل بهم النبي ﷺ
١٢	الثالث: أنه ﷺ مَعْن شملتهم آية التطهير
١٢	الرابع: أنه ﷺ حفظ نسل الرسول ﷺ
١٢	الخامس: أنه ﷺ إمام قام أو قعد
١٣	السادس: أنه ﷺ سيد شباب أهل الجنة
١٧	نشاط الحسن ﷺ إبان إمامة والده ﷺ
١٨	أمير المؤمنين ﷺ يرسل الحسنين ﷺ لحماية عثمان
٢٠	نشاطه ٧ إبان إمامته

٢٥	٥٠ الإمامة في القرآن
٢٥	مباحث الآية الكريمة
٢٥	المبحث الأول: آراء في الكلمات الواردة في الآية
٢٦	الرأي الأول: أنها التكليف
٢٧	الرأي الثاني: أنها ذبح ولده إسماعيل عليه السلام
٢٩	الرأي الثالث: أنها تكاليف النبوة وأعباء الإمامة
٣٠	الرأي الصواب من هذه الوجوه الثلاثة
٣٢	المبحث الثاني: هل العامة مؤهلون لانتخاب الخليفة؟
٣٢	قاضي القضاة وقرطبة
٣٣	دليل الشورى غير ناهض
٣٣	إشكال حول نظرية الشورى
٣٤	المبحث الثالث: صفات الإمام
٣٦	القرطبي يدعم خروج الحسين عليه السلام على يزيد
٣٧	الحسين عليه السلام يبرر تعجله الخروج
٤١	٥١ من عيون المواظ
٤١	المباحث العامة للموضوع
٤١	مغالطات في حياة الإنسان
٤٢	المبحث الأول: أنه يرجو الآخرة بغير عمل
٤٢	أقسام النعمة
٤٣	المبحث الثاني: أنه طویل الأمل مع علمه بقضاء الله

المبحث الثالث: أنه يقول ما لا يفعل	٤٥
المبحث الرابع: أنه يُقبل على الدنيا ويطلب خلود الذكر	٤٨
المبحث الخامس: أنه يحاسب غيره ولا يحاسب نفسه	٥٠
المبحث السادس: أنه يحب الخير ولا يفعله ويكره الشر وهو يقربه	٥١
٥٢ نظرية الدولة في الإسلام	٥٥
مباحث الآية الكريمة	٥٥
المبحث الأول: في معنى آيات الله	٥٥
المبحث الثاني: الآيات الواجب معرفتها	٥٧
المبحث الثالث: حجابة الخلفاء	٦١
المبحث الرابع: في إيجاب الله تعالى بعض الأمور على نفسه	٦٥
٦٢ بشارة الله للمؤمنين	٦٩
مباحث النص الشريف	٦٩
المبحث الأول: صفات أولياء الله	٦٩
المبحث الثاني: المراد من {البُشْرَى} في الآية	٧٠
الرأي الأول: أنها الرؤيا الصالحة	٧٠
معالجة الرؤيا الصحيحة	٧٠
العلم الحديث يؤيد نظرة الدين إلى الرؤيا	٧١
جانبان هامان في موضوع الرؤيا	٧٢
الأول: تشخيص الرؤيا الصادقة	٧٢
الثاني: ترتب الأثر الشرعي على الرؤيا	٧٢

٧٢	غريب قصص الرؤيا.....
٧٤	نموذج من الرؤيا الصالحة
٧٥	الرأي الثاني: أنها المحبة في قلوب الناس.....
٧٦	الرأي الثالث: أنها معرفة الإنسان عاقبته قبل خروجه من الدنيا
٧٨	المبحث الثالث: أن الله لا يخلف وعده.....
٨٠	المبحث الرابع: حول مسألة البداء
٨٥	❶ موقف الإسلام من الجور.....
٨٥	مباحث الآية الكريمة.....
٨٥	المبحث الأول: سبب نزول الآية الكريمة.....
٨٦	المبحث الثاني: قوله تعالى: {وَاثْقُوا فِتْنَةً}.....
٩٠	المبحث الثالث: إشكالية شمولية الفتنة.....
٩٠	جواب الفخر الرازي حول ذلك
٩٠	الرأي الأول: أن الله حق التصرف في ملكه.....
٩١	الثاني: إثابة من أصابته الفتنة.....
٩١	المبحث الرابع: الآراء في السلطان الجائر
٩١	رأي الأشاعرة في المسألة.....
٩٣	رأي الإمامية والمعتزلة
٩٣	من مفتريات الشاطبي على الشيعة
٩٧	المبحث الخامس: العقاب في الدنيا والآخرة

- ١٠٢ ⑤٥ مشروعية الجوار في الإسلام
- ١٠٢ مباحث النص الشريف
- ١٠٢ المبحث الأول: معنى الملكوت
- ١٠٢ الأول: أنه تمكّن المالك ممّا يملك
- ١٠٤ التمكين خارجي وذاتي
- ١٠٤ الثاني: أنه خزائن كلّ شيء
- ١٠٥ المبحث الثاني: العقود المعاطاتية
- ١٠٦ المبحث الثالث: معنى الإجارة عند المفسرين
- ١٠٦ الأول: أنها تكون يوم القيامة
- ١٠٧ الثاني: أنه تعالى يجير ولا يمكن لأحد أن يجير عليه
- ١٠٧ الثالث: الإجارة التشريعية
- ١٠٨ أحق من مجير الجراد
- ١١٠ الرشيد يأمر بتشيد قبر أمير المؤمنين (عليه السلام)
- ١١٢ المبحث الرابع: موارد عدم إجارة المشترك
- ١١٤ عبيد الله يزور شريكاً في دار هانئ
- ١١٥ المبحث الخامس: أسباب عدم قتل مسلم عبيد الله في دار هانئ
- ١٢١ ⑤٦ مواقف مشرقة في حياة العباس (عليه السلام)
- ١٢١ المباحث العامة للموضوع
- ١٢١ المبحث الأول: بعض الجوانب البطولية عند العباس ٧
- ١٢٢ المبحث الثاني: قوله (عليه السلام): «رحم الله»

أقسام الرحمة	١٢٣
المبحث الثالث: قوله ﷺ: «عمي العباس»	١٢٥
المبحث الرابع: إيثار العباس ﷺ	١٢٩
المبحث الخامس: العباس يُعوّض بجناحين في الجنة	١٣١
٥٧ دور الأدب في كشف أسرار النهضة الحسينية	١٣٥
المباحث العامة للموضوع	١٣٥
المبحث الأول: الأدب العربي يعمّق مفاهيم واقعة الطف	١٣٥
المبحث الثاني: أبعاد الشعر	١٣٦
الأول: أنه وسيلة للارتزاق	١٣٦
الثاني: أنه وسيلة للانتقام	١٣٨
الثالث: أنه وسيلة لقلب الحقائق	١٣٩
المبحث الثالث: معنى التعصيب	١٤٠
المبحث الرابع: أهداف زج الأئمة: الشعراء في ميدان الشعر	١٤٤
الهدف الأول: التعريف بأهل البيت:	١٤٤
الهدف الثاني: رفع المثل الأعلى	١٤٤
الهدف الثالث: عرض جانب الظلامه وأسرار النهضة	١٤٥
١٨ كتب التفسير والأساطير	١٥١
مباحث النص الشريف	١٥١
المبحث الأول: رأي المفسرين والإساءة إلى آدم ﷺ	١٥١
المبحث الثاني: معنى {نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}	١٥٢

لماذا يركّز القرآن الكريم على ظاهرة النفس الواحدة؟	١٥٢
المبحث الثالث: الجعل بسيط ومركّب	١٥٦
المبحث الرابع: الغاية الحقيقية من الزواج	١٥٧
المبحث الخامس: من أدب القرآن	١٦٠
الرد على تهمة الشرك في بعض الأسماء	١٦٢
المبحث السادس: دليل كون الآية عامّة	١٦٣
⑤٩ منطق العبرة ومنطق التاريخ	١٦٧
المباحث العامّة للموضوع	١٦٧
تساؤلات وإجابات	١٦٧
المبحث الأوّل: عمر العطاء	١٦٧
المبحث الثاني: خلود صوت الحسين	١٧٠
المبحث الثالث: إنجازات النهضة الحسينية	١٧١
المبحث الرابع: متى بدأ التشيع	١٧٤
⑥٠ حقيقة الموت في المنظور القرآني	١٨٣
مباحث الآية الكريمة	١٨٣
المبحث الأوّل: الأهداف التي وظفتها الآية	١٨٣
الأوّل: المحافظة على طرفي معادلة الحياة	١٨٤
الثاني: الموت	١٨٤
الثالث: حقيقة الموت وبيان متى تذوقه النفس	١٨٦
المبحث الثاني: حكمة الزحزحة عن النار ومدلوها	١٨٩

معنى الجنة وصفتها	١٩٠
٦١ المرأة بين نظرة المجتمع وتكريم الإسلام	١٩٧
مباحث الآية الكريمة	١٩٧
المبحث الأول: بعض الجوانب الإيجابية حيال المرأة	١٩٧
الأول: الجانب الموضوعي	١٩٧
الثاني: الجانب الذاتي	١٩٨
المبحث الثاني: دوافع التعامل السلبي للمجتمع مع المرأة	١٩٩
الأول: دافع الشرف والكرامة	١٩٩
الثاني: دافع الفقر والجوع	١٩٩
الثالث: دافع الغلظة والقسوة	٢٠١
المبحث الثالث: مسألتان هامتان حول الزواج	٢٠٥
الأولى: دور الأب في زواج ابنته	٢٠٥
الثانية: النتائج السلبية للطلاق	٢٠٦
النتيجة الأولى: عدم توفر فرصة للبنت في الزواج	٢٠٦
النتيجة الثانية: ضياع الأطفال وتشردهم	٢٠٧
المبحث الرابع: قضية الوأد ومعالجة الإسلام لها	٢٠٨
٦٢ التوكّل الواعي	٢١٣
مباحث الآية الكريمة	٢١٣
المبحث الأول: في سبب نزول الآية	٢١٣
المبحث الثاني: في معنى الدابة وبعض خصائصها	٢١٨

٢٢٢	المبحث الثالث: في أنواع الرزق
٢٢٥	المبحث الرابع: لمحة من مواقف الأنصار مع المهاجرين
٢٢٩	١٣ العقل عند الإمامية
٢٢٩	المباحث العامة في النص الشريف
٢٢٩	المبحث الأول: معنى {المُذْتَرُّ} والآراء فيه
٢٣٠	الرأي الأول: أنه خطاب لطف وتدليل
٢٣١	الحجاج يستفتي الشعبي
٢٣٢	الرأي الثاني: أنه خطاب عقاب وتوجيه
٢٣٥	المبحث الثاني: في معنى {قُمْ فَأَنْذِرْ}
٢٣٥	الرأي الأول: إنذار المعادين بالعذاب
٢٤٠	الرأي الثاني: أنه خلّص عقل الكافر من ظلمه له
٢٤٢	الرأي الثالث: أن طلب الراحة بالإنذار لا بالادّثار
٢٤٢	المبحث الثالث: في معنى {وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ}
٢٤٢	الرأي الأول: أنه افتتاح الصلاة
٢٤٤	الرأي الثاني: أنه لا كبير إلا الله
٢٤٥	الرأي الثالث: اجعل ربك أكبر من حاجات الإنسان
٢٤٩	٦٤ مسؤولية الفقهاء تجاه الأمة
٢٤٩	مباحث الآية الكريمة
٢٤٩	المبحث الأول: حول التقييح والتحسين
٢٥١	المبحث الثاني: معنى العذاب في الآية

٢٥١	الرأي الأول: أنه حبس المطر والنبات
٢٥٢	الرأي الثاني: أنه الصواعق والخسف والزلازل
٢٥٢	الرأي الثالث: أنه جور الأمراء والغوغاء
٢٥٤	المبحث الثالث: دور الاستعمار في خلق الشُّيْع
٢٥٥	وقفة مع محمد فريد وجدي
٢٥٨	المبحث الرابع: معنى قوله تعالى: {نُصْرَفُ الْآيَاتِ}
٢٦٣	٦٥ مصادر العظة والعبرة
٢٦٣	مباحث الآية الكريمة
٢٦٣	المبحث الأول: طبيعة العبرة
٢٦٤	المبحث الثاني: حجية ظواهر القرآن
٢٦٦	ضرورة التأريخ للألفاظ قبل التعامل معها
٢٦٧	المبحث الثالث: السفر قراءة لكتاب الله المفتوح
٢٦٨	أقسام سفر الطاعة
٢٦٨	١- السفر الواجب
٢٦٩	٢- السفر المستحب
٢٧٠	٣- السفر المباح
٢٧٠	٤- السفر المكروه
٢٧١	المبحث الرابع: كيف نستفيد من تجارب الغير
٢٧٢	المبحث الخامس: عمى البصر والبصيرة
٢٧٩	٦٦ إنما يعجل من يخاف الفوت

مباحث الآية الكريمة	٢٧٩
المبحث الأول: في أن الله يعاجل بالعقوبة	٢٧٩
الإمام الهادي <small>عليه السلام</small> والمتوكل	٢٨٠
سبب قتل المتوكل	٢٨٢
المبحث الثاني: في معنى {كُذِّبُوا} ونماذج من المكذبين	٢٨٣
أنموذج قوم نوح	٢٨٤
أنموذج فرعون	٢٨٤
أنموذج صحابة الرسول ٦	٢٨٤
أيهما يجب الوفاء به على الله: الوعد أم الوعيد؟	٢٨٥
المبحث الثالث: من هو المجرم؟ وما هي الجريمة؟	٢٨٧
الأول: لا يمكن أن نتصور أن أحداً أشد بأساً من الله ليرد بأسه	٢٨٨
الثاني: من هو المجرم	٢٨٨
العرف لا يصلح مصدراً للتشريع	٢٨٩
منشأ الجريمة وأسبابها في المجتمعات	٢٩١
نظرية العقاب بين الإسلام والقوانين الرضعية	٢٩٣
⑥٧ حب الله تعالى	٢٩٧
مباحث الآية الكريمة	٢٩٧
المبحث الأول: في معنى اللغو	٢٩٧
الأول: الباطل	٢٩٧
الثاني: الفحش	٣٠١

الثالث: الفضول	٣٠١
المبحث الثاني: نوع الاستثناء في الآية	٣٠٢
المبحث الثالث: دلالة {سلاماً} على أن لغة أهل الجنة العربية وربّها	٣٠٤
المبحث الرابع: حول ترجمة القرآن الكريم وخصوصيات العربية	٣٠٦
المبحث الخامس: في تحديد رزق أهل الجنة بكونه {بُكَرَةٌ وَعَشِيًّا}	٣٠٧
❶ الإسلام والإيمان	٣١١
مباحث النص الشريف	٣١١
المبحث الأول:	٣١١
المبحث الثاني: هل في تقديم الذكر تفضيل له على الأنثى	٣١٢
المبحث الثالث: في معنى {وَأَزْوَاجُكُمْ}	٣١٣
الرأي الأول: أنها الحور العين	٣١٤
إشكال حول هذا الرأي	٣١٤
الرأي الثاني: أنها الزوجة المؤمنة في الدنيا	٣١٦
إشكال حول هذا الرأي	٣١٦
الرأي الثالث: أنها الأصناف التي يتمتعون إليها	٣١٧
المبحث الرابع: في معنى {تُحَبَّرُونَ}	٣٢٠
الرأي الأول: أنه معنى تُكْرَمُونَ	٣٢٠
الرأي الثاني: أنه بمعنى تفرحون	٣٢١
الرأي الثالث: أنه تحبرون بلذة السماع	٣٢٢
في حدّ الغناء	٣٢٢

٣٢٩	٦٩ فلسفة الجهاد عند أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small>
٣٢٩	مباحث الآية الكريمة
٣٢٩	المبحث الأول: لمحات من جهاده <small>عليه السلام</small> بالسيف
٣٣٧	المبحث الثاني: لمحات من جهاده <small>عليه السلام</small> بالقلم والفكر
٣٤٠	المبحث الثالث: جهاده <small>عليه السلام</small> في ساحة الكدح على العيال
٣٤٢	خلاصة البحث
٣٤٧	٧٠ دور المساجد في بناء المجتمعات الإسلامية
٣٤٧	مباحث الآية الكريمة
٣٤٧	المبحث الأول: في ماهية العبادة وشموليّتها
٣٤٨	المبحث الثاني: رسالة المسجد
٣٥١	وفقة مع التاريخ
٣٥٢	المبحث الثالث: في سبب نزول الآية
٣٥٤	المبحث الرابع: في معنى التقوى وإشكالية كونها تروكاً
٣٥٤	المبحث الخامس: في معنى {أَحَقُّ} وتصريفها
٣٥٥	حرف دور المساجد
٣٥٦	المبحث السادس: معنى التطهّر
٣٥٦	الرأي الأول: أنه التطهر من الخبائث المادية
٣٥٨	الرأي الثاني: أنه التطهر من الذنوب
٣٦١	٧١ من وصايا أمير المؤمنين <small>عليه السلام</small> ليلة استشهاده
٣٦١	مقدمة في معنى الوصية، وبعض وصايا العهدة

الوصية الأولى: حفر أربعة قبول له للتعمية	٣٦١
وصاياہ ﷺ التملیكية	٣٦٤
الأولى: أنه ﷺ أوصى بكتبه وسلاحه ولوائه	٣٦٤
أدلة كون (نهج البلاغة) له ﷺ	٣٦٧
الأول: منهج الأسلوب الأدبي	٣٦٧
الثاني: رجود خطب النهج قبل ولادة الرضي	٣٦٧
الثالث: منهج التمهيص	٣٦٨
الثانية: وصيته بوقف حوائطه	٣٧٠
الثالثة: وصيته ﷺ بعق ممالكه وامهات الأولاد عنده	٣٧٠
تتمة وصاياہ العهدية الأخرى	٣٧٤
الثانية: وصيته بابن ملجم (لع)	٣٧٤
الثالثة: وصيته بلوازم دفنه	٣٧٤
الرابعة: وصيته ﷺ بتعاهد المساجد	٣٧٥
الإمام ﷺ عنوان الأحرار	٣٧٦
المحتويات	٣٧٩



اهداء صين المزاعي لموقع
الدكتور الشيخ احمد الوائلي قدس سره
www.al-waeli.com